كتاب الهلال

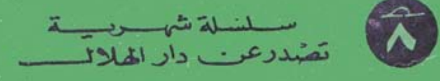
الذئب الأغبر

مصطفى كمال

تأليف

الكابتن هـ. س. أرمسترونج









KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيسا تحريرها : اميل زيدان وشكرى زيدان

مدير التحرير : طاهر الطناحى

العدد ١٦ ـ شوال ١٣٧١ ـ يوليو ١٩٥٢

No. 16 — July 1952

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بك
(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال ـ بوستة مصر العمومية ـ مصر

التليفون : ٧٩٨١٠ (تسعة خطوط)

الاشـــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢عددا) ـ مصر والسودان ٨٥ قرشا صاغا ـ سوريا ولبنان ١١ ليرة سورية او لبنانية ـ الحجاز والعراق والاردن ١١٠ قروش صاغ ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ـ فى سائر أنحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٩/٣٠ شلنا

الذئب الأغبر

مصطفى كمال

تأليف

الكابتن هـ. س. أرمسترونج

مؤلف الكتاب



مؤلف هذا الكتاب ـ وثلاثة كتب غيره فى شؤون تركيا ـ هو الكابتن (ه • س • ارمسترونج) الملحق الحربى لبريطانيا فى تركيا سابقا • أما الكتب الثلاثة الأخرى فهى (تركيا تعمل) و (تركيا وسوريا تولدان من جديد) و (المعركة غير المنتهية)

وقد عاش فى الشرق فترة طويلة من حياته ، فقد عين فى البداية ـ قبيل الحرب العالمية الأولى ملحقا بالجيش الهندى ، وعهد اليه فى مراقبة الحدود التى كان الافغانيون يتخطونها فى غارات كثيرة متكررة فى ذلك الحين

ثم أرسل الى العراق حيث عمل ملحقا بقيادة الجنرال (سير تشارلس ميلليس) القائد الانجليزى المشهور الحائز على وسام صليب فيكتوريا •• ثم أسره الأتراك مع فرقة الجيش الساس بأكملها •• وسار على قدميه مع الأسرى

من أقصى جنـــوب بلاد العرب الى تركيـا ، مارا بالأراضى السورية !

وقد حاول الفرار من هذا الأسر بعد حين،لكن محاولته باءت بالفشل فضبط وحكم عليه بالحبس ستة أشهر

وكان القائد أنور باشا هو الحاكم بأمره فى تركيا خلال ذلك العهد ، فالتمس مقابلته وجرى بينهما حـديث طويل انتهى بأن أمر أنور باشا بأن يزج به فى سجن منفرد عقابا له على ما اعتبره اهانة له !٠٠ ثم فوجىء بافراج السلطات التركية عنه بعد قليل وتعيينه على أثر ذلك ضابطا مشرفا على جميع أسرى الحرب الآخرين !٠ ثم اختير ممثلا للاتهام فى احدى المحاكمات العسكرية التركية لقواد معسـكرات أسرى الحرب بتهمة تهجمهم على الأسرى الموضـــوعين فى حراستهم ورعايتهم !

وقبيل نهاية الحرب العالميةالاولى فر الكابتن ارمسترونج من تركيا بواسطة استخدام الرشوة !٠٠٠ وبعـــد انتهاء الحرب أعيد الى تركيا فى مهام رســمية عهدت فيهـا اليه السلطات الانجليزية المحتلة ، وهناك بقى أعواماكانخلالها على اتصال مباشر بالأتراك عامة ، وبمصطفى كمال خاصة ٠٠ وشهد نهوض تركيـــا الجديدة ، ثم هزيمة اليونانيين والانجليز والايطاليين والفرنسـيين ، الذين كانوا يحتلون أراضى تركيا بحكم انتصارهم عليها وعلى حليفتها ألمانيا فى تلك الحرب

وفى سنة ١٩٢٧ عين ملحقا بريطانيا فى لجنةتعويضات الحرب بتركيا ٠ ومكث هنـــاك ثلاث سنوات طاف خلالها بجميع أنحاء تركيا

تمهيـــد

فى القرن الثالث عشر الميلادى أجدبت الأرض فى جزء كبير من المعمورة نتيجة لقلة الامطار ، فأصاب القحط أكثر البلاد الممتدة بين سور الصين وآسـيا الوسطى ٠٠ بحيث اضطرت القبـــائل التى تقطنها الى الهجرة بحثا عن مراع جـــديدة ، وكان « الأتراك العثمانيون » من بين أولئك المهاجرين ، وزعيمهم يومئذ « سليمان شاه » الذى جعـــل شعاره علما عليه صورة لرأس « ذئب أغبر ! »

والواقع أن هؤلاء الاتراك العثمانيين كانوا جبابرة قساة يعيشون على الفطرة ، أقوياء ، ذوى وجوه مغولية مسطحة تتوسطها عيون مشقوقة ٠٠ وكانوا أشبه بالذئاب الغبراء التى تجوس خلال تلك البرارى الفسيحة فىآسيا الوسطى ٠٠٠ لكنهم – برغم ذلك – كانوا منظمين يدينون لزعمائهم بالخضوع التام والطاعة العمياء ٠ وقد انقضت عليهم قرون وهمينصبون خيامهم السوداء فى سهول « سنجاريا » عند حافة صـحراء « جوبى » ٠٠٠ فلما اضـــطرهم نقص الماء والخضرة الى النزوح عن بلادهم قادهم زعيمهم سليمان شاه نحو الغرب،ثم وجد أمامه قبائل التتار فانثنى بقومه جنوبا عبر « ارمينيا » الى أن استقروا فى آسيا الصغرى ، حيث بدأ هناك تاريخهم الحديث !

ومات سليمان شاه ، فخلفه « ارطغرول » ، ثم تتـابع



مصطفى كمال

الزعماء والسلاطين على حكم الاتراك العثمانيين عشرة أجيال كاملة ، ابنا عن أب ، فكان منهم الحاكم ، والزعيم ، وقائد الجيش ، وعرف أكثرهم بالقسوة والجبروت ۰ ولم يجدوا مشقة في غزو البلاد المحيطة بهم والاستيلاء عليها ، فقد كانت هذه البلاد بعضها تحت حكم الامبراطورية البيزنطية الفاسدة الملوثة ، وبعضها تحت حكم امبراطورية العرب الممزقة فى بغداد ۰ وهكذا لم تمض ثلاثمائة عام بعد وفاة سليمان شاه الجد الاكبر للاتراك العثمانيين حتى كان خليفته العاشر العظيم السلطان سليمان القانونى، يحكم امبراطورية شاسعة تمتد من ألبانيا ، على البحر الأدرياتيكى إلى حدود فارس، ومن مصر الى القوقاز ، ودانت لحكمه هنغاريا والقرم، وجاءه ملوك أوربا بالهدايا يلتمسون معونته فى حروبهم ، وتغلغلت جيوشه في الطريق الى الشرق ۰۰ وأبحرت أساطيله مرفوعة الراية فى أرجاء البحر الابيض وسيطرت عليه ۰ ثم اعترفت بسيادته بلاد شمال افريقا ۰۰ ودانت له القسطنطينية ، فتطلع الى سيادة العالم كله ، وأعد لذلك عدته ۰ فما جاء عام ١٥٨٠ حتى كانت جيوشه تدق أبواب « فينا »

على أن أمنيته الكبرى هذه لم تتحقق ، ثم دب الفساد فى امبراطوريته فى عهد خليفته سليم الاول ، وتفاقم الفساد فى العهود التالية ، ففيما عدا واحدا من سبعة وعشرين سلطانا تعاقبوا على عرش الامبراطورية العثمانية كان الحكم فى واقع الأمر لحريم القصر والخصيان « الأغوات » !۰۰ ووجد الاتراك أنفسهم بلا قائد ولا زعيم يوجههم الى سواء السبيل ، فأمعنوا فى المجون وانساقوا مع الملذات والاهواء، فأصابهم الانحلال ، وفقدوا صلابتهم الفولاذية ونشاطهم وحيويتهم وبسالتهم وكل قواهم المادية والمعنوية ۰ وأخذت

الشعوب التى حكموها تشق عصا الطاعة وتعلن العصيان ، وحصل بعضها على الاستقلال كاليونان والصرب والبلغار !

وهكذا، لم تمض ثلاثمائة عام أخرى بعد سليمان القانونى حتى تهاوت الامبراطورية العثمانية مفلسة ، عاجزة ، عفنة !·· وانتهزت دول الغرب القوية فرصة تفكك هذه الامبراطورية الشرقية وانحلالها ، فسارعت الى الاجهاز عليها واقتسام أسلابها !· فاستولت روسيا على القرم والقوقاز وطالبت بالقسطنطينية والطريق الى البحر الابيض عبر الدردنيل ، ووضعت فرنسا يدها على سوريا وتونس، واحتلت بريطانيا مصر وقبرص !

وكانت ألمانيا يومئذ فى مرحلة التوسع فانحازت الى صف السلطان العثمانى (عبد الحميد الثانى) ضد بقية أوربا ، لا رغبة فى انقاذ امبراطوريته المنحلة ، بل لكى تستأثر لنفسها بالنصيب الاكبر من الغنيمة !

وفى سنة ١٨٧٧ قررت روسيا أن تضع حدا لذلك الترقب ، فأعلنت الحرب وتقدمت جيوشها حتى صارت على مسيرة عشرة أميال من القسطنطينية ··· وعندئذ حذرتها بقية دول أوربا بتحريض من (دزرائيلى) فى مؤتمر برلين من مواصلة الزحف ، وطالبتها بالانسحاب فورا ، بدعوى وجوب المحافظة على سلامة الامبراطورية العثمانية !

وبعد أربعة أعوام من ذلك التاريخ، وفى مدينة (سالونيك) ـ الواقعة عند قمة بحر ايجة ـ ولد لأب تركى يدعى على رضا وأم تركية تدعى زبيدة ·· طفل أطلقا عليه اسم (مصطفى) ·· وكان هو نفسه (مصطفى كمال) أو (أتاتورك) ·· أو (الذئب الأغبر) الذى شاء القدر أن يتم على يديه انقاذ تركيا من التقسيم والفناء !

الفصل الأول

الثائر الصغير

كان (على رضا) وزوجته (زبيدة) يعيشان ـ مثل سواد الشعب التركى فى ذلك العهد ـ معيشة فقر واملاق، وان استطاعا المحافظة على كرامتهما الشخصية ومكانتهما المرموقة بين الجيران !· وكان منزلهما يقع فى الحى التركى من بلدة (سالونيك) عند منتصف الطريق الصاعد الى القلعة القديمة فى أقصى تلك البلدة الصغيرة العامرة باليهود ، وأكثرهم من التجار الذين يتحكمون فيما يرد الى مينائها من صادرات البلقان

ولم يعرف (على رضا) بما يميزه من مواطنيه الكادحين فى المدينة ، ولم تكن له مبادىء جديدة يؤمن بها ولا آمال كبيرة فى المستقبل يسعى فى سبيل تحقيقها· وكل ما عرف عنه انه انحدر الى البلدة فى صباه من جبال البانيا على حدود الصرب ، ثم عمل كاتبا فى (ادارة صندوق الدين العثمانى) بالميناء ، فكان يؤدى عمله ـ مثل الألوف من موظفى الحكومة التركية ـ فى غير حماسة !· ولما كان مرتبه ضئيلا لا يكفى

لسد مطالب حياته فقد اضطر الى استغلال أوقات فراغه فى ممارسة التجارة !

ولم يكن الشارع الذى يقع فيه البيت الا « ممرا » ضيقا أرضه من الاحجار التى تتعثر فيها القدم وسقفه « تكعيبة » خشبية تتسلق عليها أغصان الكروم، وكان البيت ذاته نصف مهدم ، يميل طابقه الأعلى فى زاوية على الطريق · وكانت جميع بيوت الحى التركى ساكنة موحشة، أبوابها ونوافذه مغلقة على الدوام ، لا تنبعث منها حركة أو حياة !· وبين حين وآخر ترى بعض الصبية يلعبون فى الحارة ، أو نفر من الرجال يتلكأون ويتسكعون أمام المقهى القريب ، أو يجلسون فيه يحتسون القهوة أو يدخنون ويتحدثون !

ومن حين الى حين كانت تدلف الى الطريق من أحد المنازل امرأة متشحة من قمة رأسها الى قدميها ، بعباءة سوداء ، وبعد أن تغلق الباب خلفها بعناية، ترفع ذيل ملاءتها متخذة منه نقابا يخفى وجهها فلا يظهر منه غير احدى عينيها ، ثم تتابع سيرها الى نبع الماء وكأنها شبح أسود يسير فى وضح النهار !

أما نوافذ البيت فكانت كلها مغلقة، بحكم العادة السائدة فى ذلك العصر ـ عصر الحريم والمحظيات اللواتى يحرسهن الأغوات ـ لا فرق فى ذلك بين هذه البيوت التى هى أشبه بالاكواخ ، والقصور الفخمة التى يسكنها الباشوات والأثرياء !

وكانت زبيدة فى الثلاثين من عمرها حين ولدت « مصطفى »·وقد تعودت الحجاب منذ كانت فى السابعة·· وفيما عدا أهلها وبعض جاراتها لم تكن تتحدث الى مخلوق· كما أنها لم تتلق شيئا من التعليم على الاطلاق ، فبقيت تجهل القراءة والكتابة ، بل تجهل جميع الشئون العادية التى تجرى خارج نطاق بيتها !

لكنها مع ذلك كانت الحاكمة فى أسرتها ، بفضل طبيعتها المسيطرة وطبعها النارى الذى سرعان ما يثور اذا استثير ، برغم أنها من أصل ريفى طيب ، انحدرت من أب كان فلاحا بسيطا فى جنوب ألبانيا وأم مقدونية

وكانت طويلة القامة ، قوية البناء ، زرقاء العينين ، كستنائية الشعر ، ذات حيوية تنم عن صحة خارقة ، كما كانت شديدة التدين ، متحمسة لوطنها، ذات نزعة محافظة وفكر ثاقب ، وحكم صائب على مختلف الأمور !

وككل امرأة تركية ركزت عنايتها كلها فى ابنها الذكر، وكانت قد فقدت قبله طفلا ذكرا آخر عقب ولادته · فلم يبق لها غيره وابنة تكبره بسنوات اسمها « مقبولة » ·· ومن ثم دللته دون تحفظ ، لكنه لم يستجب لتدليلها الا قليلا ، فقد كان صبيا صامتا متحفظا ضعيف البنية نحيل الجسم ، ذا عينين زرقاوين شاحبتين وشعر فى لون الرمال وكان يندر أن يبدى أى عاطفة ، ويتقبل تدليل أمه كأمر لابد منه ، ولا فضل لها فيه·بل كان يعصى أوامرها ويأبى فى عنف كل عقاب !

كان اكتفاؤه بذاته خارقا للمألوف ، فلم يبد ميلا الى مصادقة زملائه من الصبية الا فيما ندر ، وكان يلعب وحده فى أكثر الأحيان !

ولم يلبث أبوه قليلا حتى استقال من وظيفته الحكومية ليتفرغ لتجارة الخشب · وكان يرغب فى أن يخلفه ابنه فى احتراف التجارة ، بينما أصرت زبيدة على اعداده ليكون واعظا · وتغلبت وجهة نظرها فأدخلته مدرسة ملحقة بأحد المساجد لكى يحفظ القرآن ويتلقى مبادىء الدين ، ثم ألحقته بمدرسة أفضل ، يديرها رجل يدعى الشمسى افندى، فاظهر الصبى تقدما ملموسا فى دراسته · ولكن حدث أن توفى والده على رضا بعد قليل تاركا تجارته مفلسة وأسرته

معدمة .. فاضطرت زبيدة الى اخراج مصطفى من المدرسة لتلجأ به وأخته الى بيت أخيها الفلاح فى قرية قريبة من سالونيك. وهناك عهد الى الصبى فى تنظيف الحظائر واطعام الماشية ورعاية الاغنام .. وبدا أن هذه الحياة راقت له ، وأكسبه العمل الشاق والهواء الطلق قوة على قوته وازداد صلابة وعنادا ، على أنه كان كلما تقدم فى السن يبدو أكثر تحفظا وميلا الى العزلة ، والاستقلال عن الناس !

وبعد عامين ، حين بلغ مصطفى الحادية عشرة من عمره ، استطاعت أمه أن تقنع شقيقة لها بأن تنفق على تعليمه لنفورها من أن ينشأ راعيا للغنم أو عاملا فى حقل . ومن ثم ألحقته من جديد باحدى مدارس سالونيك . لكن الصبى الذى ألف الحياة الحرة الطلقة لم يطق الخضوع للنظام،فصار مشاغبا متمردا شرسا مع أساتذته ، متعاليا على زملائه فى المدرسة. يأبى مشاركتهم فى ألعابهم ، ولا يطيق أن يتدخل أحد منهم فى أمر من أموره . ومن هنا كثرت مشاجراته معهم ، وضربه اياهم ، الى أن اشتبك فى معركة مع نفر منهم ، فانتزعه مدرسه انتزاعا من وسطهم ، وألقى عليه درسا بيده وعصاه ، فأعماه الغضب لكرامته وبادر بالفرار من المدرسة .. ثم أبى العودة اليها بأية حال ، كما أبت خالته أن تتحمل زيادة فى نفقة تعليمه بمدرسة أخرى ، وكلما حاولت أمه مراجعته فى الأمر أبى الا اصرارا على عناده !

واقترح خاله الحاقه بسلك الجندية ، نظرا الى شدة مراسه وطبيعته التى لا تؤهله للمثابرة على تجارة .. واستصوب ارساله الى المدرسة الحربية الابتدائية فى سالونيك ، وكانت تحت رعاية السلطان ولا تتقاضى من تلاميذها رسوما ، بينما يتيح برنامجها للتلميذ الناجح فيها أن يرتقى حتى يصبح ضابطا ، أو جاويشا على الأقل !

ورفضت أمه هذا الاقتراح ، لكن الفتى كان قد بت فى الأمر وقرر قبول اقتراح خاله فى اغتباط شديد،ولاسيما أنه رأى « أحمد » ابن جارهم بعد أن تخرج فى تلك المدرسة يختال بسترته العسكرية فى زهو الطاووس . وهذا الى أنه لم يكن يميل الى أن يصير واعظا دينيا ، وكانت التجارة فى رأيه حرفة لا تليق لغير اليونان والأرمن واليهود ومن اليهم. أما الأتراك أمثاله فالحرفة التى تليق بهم هى الجندية .. ولا شيء غير الجندية !

ولم يصبر الفتى على تأجيل والدته وخاله تنفيذ الاقتراح فمضى الى ضابط مسن متقاعد من أصدقاء والده ، واقنعه بأن يضمنه لدى ادارة المدرسة الحربية.. ثم تقدم لامتحان الالتحاق ونجح فيه فصار طالبا بالمدرسة ، ووضع أمه وخاله أمام الأمر الواقع !

□

وفى المدرسة الحربية وجد الفتى مجاله الذى أعدته الطبيعة له ، فنجح فى دراسته .. لكنه لم يكن محبوبا من المختلطين به ، فانه ــ وقد خلق مرهف الحساسية بفطرته ــ كان يثور ويغضب اذا انتقده أحد أو تحدث اليه فى خشونة. ولذلك آثر أن ينطوى على نفسه ، وشغل بالدراسة عن اتخاذ الأصدقاء ، وان لازمه شوق دائم الى أن يكون ملحوظ المكانة مرموق الشخصية من الجميع ، وأن ينظر اليه الناس على أنه ممتاز متفوق على أقرانه ، خارق للطراز الشائع من الشباب !

ولم يكن أحد من زملائه يجرؤ على أن يتدخل فى أمر من أموره ، فقد كان الضرب أهون ما يرد به على ذلك التدخل! وفى بعض الاحيان كان أحد اخوانه يسعى اليه ليدعوه الى

مشاركتهم لهوهم ، أو ليسأله فى أمر من الأمور • وهنا كان يجيب فى خشونة وجفاء : « لست أحب أن أصيرمثلكم بل أريد أن أكون أبرز شخصية وأكبر أهمية ! »

ونجح فى دراسته،فقدكان ذا ميل خاص الى الرياضيات، وجميع العلوم العسكرية •• كما كان بارعا فى الطوابير والاستعراضات•وفى عامه الثانى بالمدرسة أعجب بهسميه الكابتن مصطفى أحد أساتذته ، فرقاه الى مرتبة « تلميذ مدرس » وعهد اليه فى الاشراف على فصل من الفصول الصغيرة • وأطلق عليه لقب « كمال » حتى لا يحدث لبس بسبب تشابه اسميهما ، فصار منذ ذلك التاريخ يعرف باسم « مصطفى كمال »

واستمر فى دراسته مبديا تفوقا كبيرا فى الامتحانات ، وفى تعليم التلاميذ الصغار ، اذ كان شغوفا بالأمر والنهى والسيطرة • كما أظهر أحيانا قدرا غير قليل من الغيرة ، نحو كل زميل يحرز نجاحا أكبر منه ، لانه لم يكن يطيق أن يتقدمه غيره ويأبى الا أن يكون اما الأول فى كل ميدان، واما ألا يكون شيئا على الاطلاق !

وكما أفادته رعاية الكابتن مصطفى تقدما فى الدراسة ، كانت وبالا عليه من جهة أخرى ، اذ أنضجت شخصيته وغرائزه قبل الأوان ، فلم يبلغ الرابعة عشرة حتى كان قد جاوز مرحلة الصبا وتفتحت ميوله الجنسية الطائشة ، فانغمس وهو فى هذه السن فى مغامرة غرامية مع ابنة الجيران ، وبينما كان أنداده يلهون ويلعبون ويمرحون، كان هو يذرع الطرقات مرتديا أحسن ثيابه ليتطلع الى النساء المختبئات وراء النوافذ ، أو ليغازل بنات الهوى المتبذلات فى الميناء !

وحين بلغ السابعة عشرة نجح فى الامتحان النهائى

للمدرسة العسكريةالابتدائية وأرسل الى المدرسةالعسكرية العليا فى « موناستر » ••

فى الكلية الحربية

شوارع موناستر يسودها الضجيج والغبار والذعر والقلق ، فاليونان احتلت جزيرة كريت ، ولم يسع تركيا الا اعلان الحرب عليها ، وهذه هى طوابير جيوشها الزاحفة الى ميدان القتال !

والعهد كله يسوده الاضطراب والمنازعات ، والحروب وشائعات الحروب ، بينما الامبراطورية العثمانية فىالرمق الاخير تعالج سكرات الاحتضار ، ودول الغرب أنشبت مخالبها فى عنقالفريسة العاجزة ووقفت تتبادل فيما بينها النظرات الشزراء ، وكل منها تتحفز للنهش والقضم والابتلاع ••!

وأدهى من ذلك وأمر ، أن الامبراطورية المحتضرة كانت تمزقها من الداخل أيضا عوامل التذمر والسخط ، فمقاليد الأمور فيها ما زالت كلها مركزة فى يد السلطان ، مثلما كانت فى القرن السادس عشر ، ولكن شتان ما بينالحالتين، فهناك كانت الامبراطورية فى أوج قوتها ومجدها • أما الآن فهى محطمة القوى تتناهبها عوامل الانحلال والفساد من كل جانب •• فالفقر سائد فى كل مكان ، والعجزوعدم الكفاية يسيران دفة الدولة ، والسخط على كل لسان وصيحات الشباب تدوى مطالبة باصلاح عاجل حاسمكفيل بالانقاذ !

أما السلطان « عبد الحميد » أو الثعلب الأحمركما كانوا يسمونه حينذاك ، فيخشى رعاياه بقدر ما يخشى الاجانب ، ولذلك يقمع كل فكرة جديدة ، ويرفض كل اصلاح،ويغطى الامبراطورية كلها بشبكة من الجواسيس ، بحيث لم يكن

ثلاثة يتحدثون فى أمر الا كان على مقربه منهم رابع يتـولى نقل حديثهم الى ادارة البوليس السرى !.. لم تبق حرية مكفولة ولا أمن شخصى لمخلوق ، بل ملأ السلطان السجون برعاياه !

وفى البلقان ، وحول موناستر خاصـة ، كان السخط والثورة على أشدهما ، ونار الفتنة والعصيان متأججة عـلى الدوام ، وكانت «الأفكار الجديدة» تملأ بلاد العالم الخارجى المتقدم فى المدنية والحرية ، فاستوعبها مصطفى كمال جميعها بحماسة الشباب المضطرمة فيه !. وكان ككل ألبـانى أو مقدونى يقاوم بفطرته كل سلطان ، وكثيرا ما حلق بخياله الثائر فتصور نفسه قائدا لثـورة تطيح بالظـالمين وتنقذ الوطن وتطهره !

وفى أيام العطلة المدرسـية كان يعود الى سالونيك ولكنه كان يتجنب بيت أمه قدر طاقته ، اذ كانت قد تزوجت من تاجر رودسى ميسور الحال، ولم يرض هو عن ذلك الزواج فصارحها برأيه هذا فى خشونة ، وقامت بينهما مشـادة سرعان ما تحولت الى مشاجرة !.. ومنذ ذلك التاريخ أبى مصطفى أن يعترف بزوج أمه ، بل أبى حتى أن يكلمه .. أما أين كان يقضى وقته فى سالونيك ففى صـحبة بعض الرهبان المقدونيين الذين لقنوه مبادىء اللغة الفرنسية ، ثم مع صديق جديد له هو شاب مقدونى خجول يكبره بقليل، واسمه فتحى . وكان هذا يتقن الفرنسية ، فصار الاثنان يلتهمان معا كل ما يصل الى أيديهما من كتب فولتير وروسو وغيرهما من كتاب فرنسا الأحرار ، ومن مؤلفات « هوبز » و « جون ستيوارت ميل » فى الاقتصاد السياسى . وكانت كلها كتبا ممنوعة محرمة ، يسجن كل من يضبط متلبسا بقراءتها . لكن الخطر ضاعف من استمتاع الشابين بقراءة هذه الكتب !

ثم أخذ مصطفى كمال يمارس الخطابة فى زملائه الطلبة، فيحدثهم عن وطنهم وكيف ينبغى انقاذه من براثن الاجنبى ومن فسـاد حكم السلطان !.. كما أخـذ يدبج المقالات الحماسية فى معانى الحرية والوطنية ، وينظم الشعر الملتهب بنيران المشاعر القومية المتأججة فى صدره !. ومع ذلك كله كان فى دراسته فى موناستر ـ كعهده دائما ـ ناجحا متفوقا تصفه تقارير أساتذته ومراقبيه بأنه « شـاب نابه صعب المراس ، يتعذر على المرء أن يصادقه » . واخيرا وقع عليـه الاختيار ليسافر فى بعثة الى كلية أركان الحرب الكبرى فى القسطنطينية ، ورقى الى رتبة « ملازم ثان » قبل أن يرسل الى هناك !

□

انه الآن فى العشرين من عمره ، قوى البنية ، ذو حيوية غير محدودة . ولكن خبرته بالحياة والمجتمع كانت محدودة ، فالبـلدتان اللتان عاش فيهما أعوامه السـابقة ـ وهما سالونيك وموناستر ـ من البلاد الاقليمية الصغيرة نسبيا، وليس فيهما الا القليل من دور اللهو وأسباب الغواية، وهو نفسه لم يكن على شىء من تدين أمه وايمانها العميق ، فلما وجد نفسه فى العاصمة الصاخبة « القسطنطينية » انغمس لفوره فى ملاهيها وحاناتها ومقاهيها وأنديتها الليلية وراح يشرب ويقامر كل ليلة ، ولا يعنيه أن يتأنق فى اختيـار النساء . فحسبه نظرة أو ضحكة من امرأة ليلتهب دمه ، وينطلق وراءها فلا يرجع الا وقد نال منها ما أراد !. وكلهن عنده نساء لا فرق بين هذه وتلك

على أنه لم يقع فى هوى واحدة من هؤلاء أو أولئك ، فهو لم يكن عاطفيا قط .. وانما كان يتنقل من احـداهن الى الاخرى !

وعلى حين فجأة أفاق الشاب الذكى الثائر الطموح لنفسه فاذا هو يضيق بهذه الحياة ، واذا هو يركز همه كله فى عمله ، فيمضى فيه متقد الحماسة والنشاط ، وكأنما أدرك أن تحقيق أمانيه مرهون بما يبذل فى سبيل ذلك من جهود . هذا وليس فى تركيا ما يحول دون الترقى من الحضيض الى القمة ، فليست هناك مدارس مخصصة لأبناء الاغنياء وذوى الحسب والنسب ، ولا أفضلية فى الوظائف والمناصب للأبناء بسبب نجاح آبائهم فى الحياة أو مولدهم فى حلة من الارجوان .. واذن ما كان انتسابه للفقراء والفلاحين بالذى يعوق نهوضه وبلوغه الغاية التى ينشدها ، متى توافرت له الشخصية القوية والذكاء ، وهما عنده متوافران

ولما كان قد جاز جميع امتحانات المدرسة بتفوق كبير ، فقد اختير لدراسة ذات برنامج خاص تابعة لكلية أركان الحرب ، ونجح فى هذه أيضا بتفوق .. فتخرج فى يناير سنة ١٩٠٥ ورقى تبعا لذلك الى رتبة اليوزباشى !

جمعية « الوطن »

وخلط السياسة بعمله ، ففى موناستر كان غلاما ممتازا بين الغلمان ، وفى كلية أركان الحرب بالعاصمة كان محاطا بضباط شبان اختيروا جميعا بعناية خاصة وكلهم فى مثل سنه ومستواه . وقد وجدهم جميعا ثوريين . فكل ضابط شاب كان ثائرا ضد استبداد السلطان المدمر وتدخل الدول الاجنبية فى شؤون البلاد . كان الشباب هم ورثة الامبراطورية العثمانية ، وكانت تركتهم مثقلة بالديون!.. وفى الوقت ذاته كان أساتذة الكلية وكثيرون من كبار الضباط يعطفون على الطلبة ويشاركونهم مشاعرهم ، لكنهم اكتفوا بأن أغمضوا أعينهم وسكتوا ، ولم يجرؤوا على البروز للعيان أو تزعم الحركة !

وكانت فى الكلية جمعية ثورية تعرف باسم « الوطن » ، تقيم مناظرات سرية وتوزع منشورات خطية تنتقل من يد الى يد ، تهاجم فيها كل أوضاع الحياة التركية وأحوالها الراهنة ، وتخص بالعداء المرير أسس النظام القديم ، وطغيان السلطان ، وخنقه للحريات وقمعه للأفكار والآراء الحديثة ، وعدم كفاية مرؤوسيه وأعوانه الرسميين .. كما تهاجم الوعاظ ورجال الدين الذين يعوقون كل تقدم واصلاح ، وتنادى بهدم صوامع الدراويش الذين يضللون الشعب ، وبوجوب الغاء القوانين العتيقة الرجعية !

وأقسم أعضاء الجمعية معاهدين أنفسهم على المضى فى مكافحة استبداد السلطان وانشاء حكومة دستورية يختارها برلمان شعبى ، تكون مهمتها تحرير الشعب من رجال الدين وتحرير النساء من الحجاب ونظام الحريم ، فلقد كانت « تركيا بمثابة المخنوقة بيد السلطان وجواسيسه ، وما لم يسمح لدم الأفكار الجديدة بالمرور فى عروقها فمصيرها حتما الى الموت » !

وانضم مصطفى كمال الى جمعية « الوطن » ، وصار يكتب المقالات النارية والشعر الملتهب للنشرة السرية ، ويخطب فى المناظرات والمناقشات السياسية فى حماسة شديدة . وكان مدير الكلية الحربية على علم بأعمال الجمعية ، لكنه تجاهلها وغض الطرف عنها !.. كذلك علم بأمرها جواسيس السلطان وكتبوا تقريرا عن نشاطها رفعوه الى القصر ، فانزعج السلطان « عبد الحميد » أيما انزعاج ، ولم يخفف من غضبه أن كل أفرادها من « الشباب الذين لم ينضجوا بعد » ، لأن هؤلاء الشباب هم ضباط الجيش وقواده فى المستقبل .. ومن ثم أصدر السلطان أمره الى « اسماعيل حقى باشا » ، القائد العام للتدريب الحربى ، لكى يقضى على « جمعية الوطن » هذه من أقرب سبيل . وسرعان ما دعا

حقى باشا اليه مدير الكلية ، واشتد فى لومه وتعنيفه على تهاونه فى معاقبة القائمين بأمر الجمعية ، ومنذ ذلك التاريخ منع المدير عقد أى اجتماع داخل أسوار الكلية ، ولكن أعضاء الجمعية واصلوا عقد اجتماعاتهم فى الخــــارج ، وكفوا عن المناقشات العلنية والمناظرات الكلامية ليركزوا جهودهم فى العمل سرا على تقويض دعائم الحكم الاستبدادى ٠٠ وهكذا تحولت جمعيــة « الوطن » الى منظمة من المنظمات السرية التى ازدحمت بها العاصمة التركية فى ذلك الحين !

فى السجن الأحمر

كانت هناك بضعة أسابيع أمام مصطفى كمال بعدتخر فى الكليــة الى أن يعين فى المنصب الذى يلائمه ٠ وكا حالته المالية أكثر يسرا من حالة أكثر زملائه ، فقد صـ فى مقدور أمه بعد زواجها أن ترســـل اليه اعانة شهر منتظمة ٠٠ ومن ثم تولى ادارة جمعية « الوطن » ، فاستأ غرفة فى شارع غير مطروق كى تكتب فيها وتنسخ المنشورا الثورية ٠ ونظم عقد الاجتماعات فى منازل الاعضاء أحيا وفى الغرف الخلفيـــة بالمقاهى أحيـانا أخرى ، فكان أفرا الجمعية يتسللون الى مكان الاجتماع خفيـة وهم يختلسو النظر الى ما حولهم خشية أن يتبعهم أحد الجواسيس !

وأمتعت مصطفى كمال هـذه السرية ، والأخطار الت تكتنف الحركة ، فبدأ يدرس أنظمة الجمعيات الثورية، وطرق تأليف الخلايا ، واختبار اخلاص الاعضاء الجدد ، كما درس الملاكمة ، واستعمال الشفرة والرموز والاشـــارات وصيغ الايمان المغلظة التى يتبادلها الاعضاء ٠٠ الى آخر ما يتصل بالغاية التى يسعون فى سبيلها من قريب أو بعيد

وكان رجال البوليس يراقبون نشاط الجمعية خفية، لكى يضبطوا أعضــــاءها « متلبسين » بالجريمة ٠ ولم يكن ذلك

عسيرا ، فقد كانوا «مبتدئين» تغلب حماستهم على حكمتهم ٠ وهكذا استطاع الاندساس بينهم جاسوس للحكومة أخــذ يموه على الشبان الاغــرار حتى كسب ثقتهم ، وفى الوقت المناسب قام ـ على رأس قوة من رجال البوليس ـ بمهاجمة مكان الاجتماع أثناء وجود الاعضاء جميعا فيه فضبطوا جميعا متلبســــين واعتقلوا ومعهم مصــطفى كمال ثم زج بهم فى « السجن الاحمر » باستانبول !

وكان موقفه يدعو الى القلق ، فقد تجمعت لدى البوليس ادلة كثيرة ضده ، ومن ثم عزل عن الباقين فى زنزانة خاصة وبدا المســـــتقبل مظلما أمامه ، فأقل ما ينتظره اذا اعتبره السلطان « خطرا » أن يبقى فى السجن الاحمر الى ما شاء الله ، وهذا أخطر من نفيه من البلاد ، لان كثـــيرا من نزلاء هذا السجن قبله اختفوا من الوجود ولم يخلفوا وراءهم أى أثر يدل على مصيرهم الرهيب !

وجاءت أمه زبيدة وشقيقته مقبولة من سالونيك لترياه ٠ لكن السلطات حالت بينهما وبين مقابلته ، فلم تستطيعا أكثر من ارسال بعض النقود اليه ٠ وانقضت أسابيع وهو حبيس زنزانة ضـــيقة قذرة عامرة بالحشرات والهــوام ، لا يدخلها الهواء والنور الا من كوة صغيرة فى أعلى الجدار !

وأثر السجن فى نفســـيته أسوأ الأثر ، فغـدا ثائرا متوحشا ٠٠٠ وذات يوم ، وبلا مقدمات ، فتحت زنزانتــه واقتيد منها عبر ميدان وزارة الحربية الى مكتب اسماعيــل حقى باشا ، حيث وقف يؤدى التحية العسكرية فى حراسة اثنين من رجال البوليس الحربى ٠ وجلس الباشـــا يرقبه برهة صامتا ، وكان رجلا من الطراز العتيق ذا لحية ،وثياب فضفاضة زاهية ، وحركات بطيئة وقورة ٠ وكان من رجال السلطان المخلصين ٠٠ وبعد أن تفرس فى الســجين برهة

ابتدره قائلا : « لقد أظهرت مقـدرة فائقة ٠ وأمامك ـ اذا شئت ـ مستقبل باهر فى خدمة صـاحب الجلالة ٠ لكنك بدلا من ذلك قد جلبت العـار على نفسك وعلى ســترتك العسكرية ، فعشت مع رفاق من أسوأ الشبان سـمعة ، تقـامر وتشرب الخمر ٠ وأنكى من ذلك أنك صرت خائنا ، فانغمست فى السياسة والمؤامرات الانقلابية التى يقوم بها خونة يضمرون الشر لمولاك السلطان ، وشجعت رفاقك على أن يحذوا حذوك »

وقبل أن ينبس مصطفى كمال بكلمة يدافع بها عن نفسه، واصل حقى باشا كلامه فقال : « على أن صاحب الجلالة رأى مع ذلك كله أن يظهر نحوك الرأفة والحلم ، على أساس أنك شاب طائش ، أقرب الى أن تكون منسـاقا الى ذلك الاجرام بحكم شراستك وعنادك وحماقتك٠وعلى هذا سوف نلحقك باحدى فرق الفرسان المعسـكرة فى دمشق ٠ ومستقبلك يتوقف على التقارير التى سوف نتلقاها عنك ٠ فيجب عليك أن تكف عن كل هذه السخافات والحماقات ، وتكرس وقتك وجهدك للنهوض بواجباتك العسكرية ٠٠ فخذ حذرك واعلم أنه لن تتاح لك فرصة أخرى ! »

وفى الليلة ذاتها وضع مصطفى كمال فى سفينة متجهة الى سوريا،دون أن يسمح له برؤية أمه أو أحد من أصدقائه

فى دمشق

بعد رحلة شاقة استمرت ثمانين يوما هبط مصطفى كمال الى بيروت ، حيث استقل جوادا مضى به عبر جبال لبنان حيث وجد فرقته الجديدة المعسكرة هناك متأهبة للزحف ضـد الثوار الدروز ، الذين يعيشون فى الجبال الشامخة الواقعة الى الجنوب من دمشق

وأفاد مصطفى كمال من تجربته الأولى هـذه فى الخدمة

العاملة بالجيش ، لكنها كانت مهمة عسيرة شاقة ، فالاقليم يتكون من جبال صخرية متـداخلة تقطعها وديان عميقة ، وليس هناك ماء ولا طرقات معبدة٠وكان الدروز من الجبليين المتوحشين الذين لم يروضوا ، وهم يعرفون كل شـبر من الارض فى بلادهم !٠ بينما الطوابير التركيـة ظلت أياما تهيم على وجهها عاجزة عن الاهتداء الى مقر الثوار أو الاشتباك معهم فى معـركة ، فقد كان من دأب الدروز أن يتجنبوا المعارك ، وما يكادون يشعرون بخطر يتهددهم حتى يغادروا مكان تجمعهم مسرعين ، ليتبعثروا فى كل مكان، ثم يتصيدوا أعداءهم ليل نهار من وراء قمم الصخور ومنعطفات الجبال!٠٠

وهكذا كان أقصى ما استطاعه الاتراك أنهم لقنوا الدروز درسا قاسيا بحرق قراهم المهجورة وحقولهم القليلة المتواضعة ٠٠ فلما فرغوا من ذلك عادوا الى دمشق ليقضوا فيها فصل الشتاء !

عكف مصطفى كمال بعد عودته مع فرقته لدمشق عـلى انشاء فرع لجمعية « الوطن » هناك ، ومن هـذا يبدو أن الأسـابيع التى قضاها فى زنزانة السـجن الأحمر ، والتهديدات التى وجهها اليه حقى باشا ، لم تضعف عقيدته ضد السلطان أو تخيفه سطوة حكومته ٠٠ فقد كان بفطرته ثائرا لا يحترم دينا أو انسانا أو وضعا من الاوضاع ، ولا يقدس شيئا على الاطلاق ٠ وكان ما يزال يلتهب بحماسـة الشباب ، لكنه قرر أن يهجر الادب والشعر والكتابة ،لانها لا تتفق مع الحركة والاقدام ، وتضعف العزيمة والقدرة على البت فى الأمور !٠٠ ومن ثم طرح الكتابة والشـعر وراء ظهره ، وركز همه فى التفصيلات العملية والتنظيم الدقيق للثورة ٠٠!

ووجد التربة صالحة لبذر البذور٠٠فالشبان من الضباط

الاتراك فى دمشق كانوا كزملائهم فى القسطنطينية ساخطين متذمرين من الحالة ، والكبار منهم يؤيدون الحركة فى الخفاء ، ويبذلون عطفهم للقائمين بها !.. وقد وجد مصطفى كمال بين ضباط حامية دمشق زميلا قديما من اخوانه فى المدرسة الحربية يدعى « مفيد لطفى » يشاركه ميوله وحماسته ، فاتخذه معينا له .. ونمت الجمعية نموا سريعا فكثر عدد أعضائها وانتشرت مبادئها فى صفوف شتى الحاميات التركية المتفرقة فى أنحاء سوريا ، وهكذا بدأ مصطفى كمال يصبح شخصية ذات أهمية .. لكنه تبين بعد قليل ان جهوده لن تؤتى ثمارها الا اذا انصبت كلها على اشعال فتيل الثورة من دمشق ، وقد كان ذلك أمرا عسير التحقيق ، لان ضباط الحامية التركية الصغيرة هم وحدهم المستعدون للثورة، فأما أهل البلاد السورية أنفسهم فكانوا أقرب الى عرقلة الحركة واحباطها ، اذ تنقصهم الحماسة للفكرة بحكم كونهم أجانب عن النزاع !

وفى أثناء ذلك تلقى مصطفى كمال رسالة من بعض أصدقائه فى استانبول أكدوا فيها ان البلقان مركز القلاقل هى أصلح مهد للثورة ، واقترحوا أن يسعوا فى سبيل نقله الى سالونيك ، لكى يتيسر له استغلال الفرصة هناك. فرأى أن يبحث بنفسه هذا الأمر ويذهب الى سالونيك سواء أأذنت السلطات المختصة له بذلك أم لا..وكان قائد حامية « يافا » ـ ويدعى أحمد بك ـ صديقا له ، ومن أعضاء جمعية الوطن ، فاتفق معه على خطة رسمها لذلك ، ثم حصل على اجازة لبضعة أيام وسافر الى يافا . وهناك حصل على جواز سفر مزور باسم تاجر سورى ، ثم أبحر متنكرا على سفينة متجهة الى مصر،ومنها عبر البحر الى أثينا ثم الى سالونيك، وقد سره أن وجد السخط والتذمر ، والجمعيات السرية ، والجو الذى ينذر بالثورة ، فى كل مكان !

وهناك فى سالونيك اختبأ فى بيت أمه فترة من الوقت واستطاع من طريق أمه وأخته أن يتصل ببعض زملائه القدامى فى كلية أركان الحرب ويبذل المساعى لكى ينقل من دمشق ، بعد ان تبين صحة ما قيل له عن تضخم حركة التذمر فى البلقان وتأهب الضباط الشبان للقيام بحركة كبيرة فى الوقت المناسب !

على أن أمره انكشف قبل أن يتاح له الوصول الى نتيجة، اذ عرفه بعض جواسيس السلطان فى سالونيك ، وجاءت الأوامر من القسطنطينية بالقاء القبض عليه فورا ، ولكن نائب مدير البوليس فى المدينة ـ ويدعى جمال ـ كان عضوا فى جمعية الوطن بالعاصمة ، فأرسل اليه خفية بنبأ الأمر الصادر باعتقاله ، ونصح له بالفرار من المدينة خلال يومين على الأكثر ، لأنه لن يستطيع تأخير اعتقاله أكثر من هذه الفترة القصيرة !

وبادر مصطفى بالفرار عبر الحدود الى اليونان ، ومن هناك استقل السفينة عائدا الى يافا .. لكن أمر القبض عليه كان قد سبقه الى يافا ، وبدا أنه لن ينجو هذه المرة ، ولن يجد في السجن الأحمر رأفة ولا رحمة . ولن تتاح له فرصة ثانية للتوبة والتكفير ..!

وعهدت السلطات الى « أحمد بك » فى تنفيذ أمر القبض على مصطفى كمال ، فذهب اليه فى السفينة لدى وصولها، ولكن لا ليقبض عليه ، بل ليسلمه أوراقه الخاصة وسترته العسكرية ويعاونه على الفرار الى « غزة » ، حيث كانت منطقتها تعانى بعض الاضطرابات ، وكان صديقه الآخر « مفيد لطفى» يتولى قيادة الحامية التركية فيها !.. ثم كتب أحمد بك الى القسطنطينية يطلب مزيدا من الايضاح مؤكدا ان ثمة خطأ فى ذلك الأمر ، لان مصطفى كمال كان فى غزة

منذ شهور ، ولم يبرح سوريا منذ جاء اليها !٠٠ وأيد هذا مفيد لطفى أيضا !٠٠وهكذا أنقذه هذان الصديقان القديمان من شر الاعتقال الجديد وما كان ينتظره بعده من خطر كبير!

وقضى مصطفى كمال العام التالى متجنبا كل نشـــاط عدائى ، فقد أدرك أنه لو وقع فى قبضة السلطان هذه المرة فلن يرى نور النهار بعد ذلك٠٠ومن ثم ركز همه فى عمله، فكتب رؤساؤه تقارير يشيدون فيها بكفاءته واخلاصـــه لواجبه ٠٠ واعتقدت السلطات المختصـة فى القسطنطينية أن جواسيسها فى سالونيك أخطأوا فى مزاعمهم عن سفره الى البلقان ، لان الدلائل كلها تدل على أن هـــذا الضابط الشاب قد شفى من حماقته وثاب الى عقله !

لـكن مصطفى كان قد صح منــه العزم على العــودة لسالونيك ٠ اذ عز عليه أن يبقى فى ســوريا بعيـــدا من الأحداث الكبرى التى تجرى فى أرض الوطن !٠٠ وكان يعرف أعضاء جمعية « الوطن » المنبثين فى كل حاميـة أو فرقة ، وفى وزارة الحربية نفسها وما يتبعها من ادارات ٠٠ فاستغل كل فرصـة وضرب على كل وتر ، حتى ظفر بأمر نقله الى سالونيك آخر الأمر ، فهرع على عجـل الى مركز التمرد الذى تختمر فيه بوادر الثورة ، وكله تحفز !

فى جماعة « الاتحاد والترقى »

كان العمل الجديد لمصطفى كمال بسالونيك ، فى فرقة أركان حرب الجيش الثالث ، وهو عمل يقتضيه البقاء فترة من الوقت فى المدينة،ثم السفر للتفتيش فى المناطق الاخرى فترة أخرى ٠ وكان زوج أمه قد مات تاركا لها منزلا كبيرا وسط المدينة ٠ وقدرا كافيا من المال ، فأقام بهـــذا المنزل معها ومع أخته مقبولة

واتاح له عمله هـذا أن يجتمع بكثير من الضباط الذين زاملهم فى كلية أركان الحرب،فحاول أن يؤسس منهم فرعا لجمعية « الوطن » لكنه لم يوفق !

وكان يفاجئهم أحيانا وهم منهمكون فى الحديث فاذا بهم يسكتون مرتابين كأنما يحسبونه جاسوسا مدسوسا عليهم! وهكذا أيقن أنهم يدبرون أمرا لكنهم يحرصون على كتمانه عنه ٠ ثم باح له واحد منهم أخـيرا بأن منظمة ثورية كبيرة ألفت فى سالونيك وأطلق عليها اسم « الاتحاد والترقى »، وبأن اجتماعاتها تعقد فى بيـــوت بعض اليهــود المنتمين للجنسية الايطالية والجمعيات الماســونية الايطالية ، اذ أن جنسيتهم هذه تحميهم ــ بحكم المعاهدات والامتيازات الاجنبية ــ من الخضوع لأوامر القبض التى يصدرها السلطان،ومن تفتيش البوليس لمنازلهم،أو محاكمتهم أمام المحاكم التركية لان لهم محاكمهم القنصلية الخاصة ٠٠ ومن ثم دأب أعضاء « الاتحاد والترقى » على الاحتماء بحصـانة هؤلاء اليهود ، فكانوا يجتمعون فى بيوتهم آمنين من كل خطر !٠٠ وكان بعضهم ــ ومن بينهم « فتحى » المقدونى ، صديق مصطفى كمال القــديم ــ فقد انضـــموا الى جماعة « الماسون » ــ البنائين الأحرار ــ واستعانوا على تأليف جمعيتهم الثورية وتنظيمها باقتباس أساليب المنظمات الماسونية ٠ وصاروا يتلقون الاعانات المالية الوافرة من مختلف الجهات،ويتصلون اتصالا منتظما باللاجئين السياسيين البارزين الذين نفاهم السلطان الى خارج البلاد !

ومضت فترة طويلة راقبت جماعة « الاتحــاد والترقى » خلالها مصطفى كمال مراقبة خفية دقيقة ، ثم دعتـــه الى الانضمام لصفوفها بعد أن وثقت بأمانته وحسن نواياه !

وبدأ الاعضاء القدامى يدربونه على نظم جمعيتهم، ثم ألحق

باحدى الشعب التى تتالف منها الجمعية . لكنه وجد ـ فى جو غير ملائم له ، اذ كانت هذه الشعبة فرعا من منظمة «النيهيلست» الدولية التى تضم أشتاتا من الناس يتحدثون عن اضطهاد روسيا لليهود ، ويتغنون بفضائل النمســا ، وأتاحتها لهم فرصا لجمع المال !.. وكان أكثر الاعضاء من معتلى الصحــة ، الولوعين بالأسرار والتحــدث بالرموز الغامضة ، فادرك مصطفى أنه قد تورط فى الانضمام لمنظمة دولية سرية هدامة لا يدرى ما هدفها على التحقيق .. ولم يكن يعنيه فى شىء أمر الاهداف الدولية أو متاعب اليهود أو طقوس الماسونية .. وانما كان كل ما يعنيه أنه تركى فخور بتركيته ، حريص على انقاذ تركيا من طغيان السلطان وتجاوزه حدود سلطته ، ومن قبضة الاجانب الخانقة !

ولما كان حديث عهد بالجمعية ، لم يعهد اليه فى شىء أكثر من تنفيــذ أوامر الاعضاء القدماء المســتترين خلف نقاب الطقوس الماسونية المعقدة .. فى حين كانت طبيعته تميل الى أن يكون هو الآمر الناهى فى الجمعية ، أو لا يكون فيها على الاطلاق !

على أنه ـ أيا كانت مكانته بين الاعضــاء ـ كان أبعد ما يكون عن الطاعة العمياء لسواه ، بل كان دائم الانتقاد حاد اللسان . وكانت انتقاداته قاطعة بتــارة ، لا تقيم وزنا لمخلوق ، وانما يكفى أن يعارضه أحد حتى يغــدو شرسا متوحشا !

وكان يحنقه من جمعية « الاتحاد والترقى » أنها جمعية جعجعة لا طحن ، يكثر فيها القول ويقل الفعل ، فى حين كان هو يريد حقائق لا نظريات ، يريد أعمالا تدبر بعناية وتنفذ فى مزيج من الحزم والحذر .. ومن ثم لم يظهر أى احــترام

لزعماء الجمعية ، بل تشاجر معهم جميعا : مع « أنور » .. و « جمال » .. و « يافيد » اليهودى الأصل . و « نيازى » الالبانى المتوحش .. و « طلعت » الدب الكبير ، الذى كان موظفا صغيرا فى مصلحة البريد !

أولئك كانوا زعماء الجمعية ، وقد عاملهم مصطفى كمال جميعا فى تعال وخيلاء . كان يكلمهم كما لو كانوا فتية فى فصل دراسى وهو أستاذهم !.. وفى احدى المناســبات تحدث بعضهم فى مقهى « جنوجنو » عن « جمال » باعتبــار انه وطنى عظيم ، فقاطعهم مصطفى ســاخرا وألقى عليهم محاضرة طويلة عن العظمة الحقيقية . وفى الصباح التــالى التقى بجمال فى القطار أثناء ذهابهم جميعــا الى أعمالهم ، فصارحه برأيه فيه وكونه « طالب شهرة » لا أكثر ولا أقل .. ثم كرر على مسمعه محاضرته عن العظمة الحقيقية والعظمة الحافلة بالسخافات !

وحتى علاقاته بزملائه الضباط كان فيها معتدا بنفسه ، دائم السخرية مرير الانتقاد ، دون ما دعابة تخفف من مرارة كلماته !.. ولذلك كرهه اخوانه ، وأساء اليهود الظن به .. وحرص زعماء الجمعيــة على تركه خارج نطاق الدائرة السرية الضيقة التى تدير أعمال المنظمة

□

وكذلك كان شأنه فى البيت ، فلم يكن يقبل أية ملاحظة الا من أمه زبيدة . بل لقد كان معها أيضا كثيرا ما يعتصم بجموده وتحفظه اذا أخطأت مرة فخدشت كبرياءه .. ولم يكن يسمح لها بالتدخل فى شؤونه الخاصة ، وقد حــدث مرة أنه أحضر زملاءه المتآمرين معه الى المنزل . وفيما هم يتباحثون ســمع الخدم طرفا من الحــديث فنقلوه الى أمه ،

وتسللت هى الى باب الحجرة حيث أصغت الى ما يدور فى داخلها !· فلما انصرف القوم خلت اليه واشتدت فى معارضة ما يدبرون،ولم يستطع مصطفى اقناعها ، اذ كانت من الجيل القديم لا تؤمن بغير العقائد والمبادىء التى رسخت فى ذهنها · وهكذا حمى وطيس الجدل بينهما ، لكن زبيدة كانت من الحكمة بحيث قبلت أن تساعد ابنها فى مشروعاته فقد كان رب البيت ، ويعرف من أمور الدنيا التى لمسها فى حياته العملية أكثر مما تعرف ، وقد يكون الحق فى جانبه برغم ثقتها بغير ذلك · ثم انها كانت تخشى أن يترك البيت فاضطرت الى مساعدته راغمة ، وان لم تكف عن الشكوى والتذمر من تهوره ، وعن تحذيره فى كل مناسبة عاقبة التآمر ضد السلطان ورجال الدين !

ووقع ما خشيته زبيدة ·· فقد ضاق مصطفى بلجاجتها وبقيود الحياة البيتية ، وثرثرة النساء ·· فاستأجر لنفسه غرفة فى الخارج مؤثرا أنيظل سيد نفسه ، واكتفى بالتردد عليها بين الحين والآخر

وكان خلالالنهار يؤدى واجباتهالعسكرية بنشاط وهمة خارقين ·· ثم يقضى أكثر لياليه فى المقاهى ، حيث يأكل ويجتمع بزملائه المتآمرين ــ فى حجرة خلفية من مقهى « جنوجنو »··أو فى بيت أحد الاصدقاء ، بعد احكام اغلاق النوافذ والابواب فى وجه عيون البوليس وجواسيس السلطان !· وهناك ، بين كؤوس الطلا ودخان السجائر ، وعلى ضوء شمعة أو مصباح بترول،كان المتآمرون يسهرون حتى ساعة متأخرة من الليل ، يتناقشون ويدبرون أمر الثورة المقبلة !··

وحرص مصطفىكمال مع حضوره هذه الاجتماعات ، على عضويته فى جماعة « الاتحاد والترقى » · على أننصيبه من

العمل فيها أخذ يقل ويتضاءل ، ولاسيما أن زعماءها استمروا يذودونه عن دائرتهم الخاصة الضيقة ، ولم يكن هو بالذى يقبل أن يكون مرؤوسا خاضعا لأحد ·· فاما الصدارة واما الانزواء !

وهكذا كان يزداد ميلا الى العزلة والصمت كلما تقدمت به الأيام !

الثورة على السلطان

وأخيرا ، اندلعت الثورة التى كان القوم يحضرون لها · وكان ذلك فجأة بلا مقدمات ، فقد جمع «نيازى» حفنة قليلة من الرجال ، ثم شرع بتهوره المعروف ، ومن غير أى دراسة سابقة فى الزحف عبر جبال مقدونيا الجنوبية متحديا الحكومة · وفى الوقت نفسه أصدر « أنور » بيانا أعلن فيه الثورة وزحف هو الآخربفيلق من الجنود فىشرق مقدونيا!

لم يكن شىء معدا أو منظما،بل أن جمعية الاتحاد والترقى ذاتها لم يكن فيها أكثر من ثلاثمائة عضو عامل · وما كان أحد يعرف شعور الجنود أنفسهم وميولهم !·· أما مصطفى كمال فقد اعتصم بالهدوء واستمر يؤدى واجباته العسكرية · فهو لم يكن من الحمقبحيث يقامر بالاشتراك فى مغامرة جنونية مرتجلة كهذه ، كان يرى أن الاقدام على خطوة من هذا القبيل لابد أن تسبقه دراسة دقيقة حذرة ، وأن تعد العدة الكافية لكل احتمال

لكن « المغامرة الجنونية » نجحت خلافا لما كان يعتقده مصطفى كمال·وكان تاريخ الاشهر القليلة التى تلت شروع نيازى وأنور فيها أشبه بحلم عجيب غريب · فالثوار الذين اشتركوا فى الزحف لم يكن عددهم يزيد على بضع مئات ، وقد تفرقوا فى الجبال بلا أمل فى معونة أو مدد ، ولكن القوات التى أرسلت للقضاء عليهم سرعان ما انحازت الى

جانبهم فرقة بعد فرقة ، وكان الجنود قد أهملوا سنوات ، ولم تدفع اليهم مرتباتهم بانتظـــام ، وأعجب من ذلك أن القوات التى أرسلت بعد ذلك من داخل تركيا انضمت هى الاخرى الى الثوار . وهكذا وجد أعضاء الجمعية أنفسهم أمام نصر مبين جاوز كل ما كان فى حســـبانهم ، وبدأ جبروت السلطان يضمحل ويتبدد نفوذه كأوراق الشجر فى الخريف حين تذروها الرياح !

وسارع « ثعلب استانبول » الماكر العجوز ـ السلطان عبد الحميد ـ الى اتخاذ قرارات عاجلة لانقاذ الموقف ، فأعلن تأليف حكومة دستورية ، ولام مستشاريه على أخطاء الماضى ومظالمه ، ثم ألغى الجاسوسية ، وأعلن ترحيبه باســتقبال زعماء الثـــوار ، فعاد نيـــازى وأنور على رأس قواتهما الى سالونيك ، واستقبلتهم هناك جموع حاشدة متحمسة من اليونانيين والاتراك ، واطمأن الجميع الى أن عهد الارهاب قد زال !

وكان بين المستقبلين مصطفى كمال وغيره من أعضـــاء الجمعية الذين لم يضطلعوا بأى دور ايجابى فى الثـــورة . وأعلن «أنور» دستور الحكم الجديد من شرفة فندق «أوليمب بالاس » الواقع فى الميدان الرئيسى بسالونيك . وفى غمار الضباط الذين اصـــطفوا خلفه وقف مصطفى كمال يدير عينيه فى تلك الجموع ، ولا يكاد أحد يعرفه ســـوى أفراد قليلين يعتبرونه أحد الاعضاء الصغار الذين لا وزن لهم فى الجمعية !

وفى الايام التالية تدفقت على المدينة جموع من المنفيين السياسيين الذين أبعدهم « عبد الحميد » منذ عشرين سنة . وبينهم الأمراء ، ورؤساء الوزارات والوزراء الســـابقون ، وغيرهم ، وانضم أكثرهم الى الضباط الشبان الثـائرين ،

واشتركوا فى الاشراف على جمعية « الاتحاد والترقى » ثم هرعوا الى القسطنطينية ينشدون الظفر بنصيب من الغنيمة ويتآمرون للاستئثار بالحكم !

وفى أثناء ذلك عاد نيازى الى ألبانيا فما لبث قليلا حتى اغتيل هنـــاك ، وعين أنور ملحقا حربيا بسفارة تركيا فى برلين .. أما مصطفى كمال فأرســـل فى مهمة الى أفريقية الشمالية ليكتب تقريرا عن حامية طرابلس . وعم الاضطراب كل شىء ، واستغلت الدول الاجنبية الفرصـــة فاغتـــالت النمسا منطقة « البوسنة والهرسك » ، وضمت اليـــونان اليها جزيرة كريت .. وأعلنت بلغاريا استقلالها التـــام بمعاونة روسيا !... وقامت الثورات فى البانيـــا ، وفى بلاد العرب !

ووسط هذا الارتباك كله نشط أعوان السلطان للعمل ، فرشوا بالمال جنود القسطنطينية ، وأرسلوا الوعاظ ورجال الدين ليحذروا الناس من الحكام الجدد ويتهمونهم بالالحـــاد واعتناق المبادىء الباريسية الهدامة ، كما يتهمونهم بأنهم يهود وماسونيون. ، وليسوا أتراكا ولا مسلمين ، وكل ما يهدفون اليه هو القضاء على الاسلام والخلافة !

وكانت النتيجة أن تمرد جنـــود القسطنطينية فقتلوا ضباطهم أو ســـجنوهم ، وأعلنوا ولاءهم لدين الاســـلام وللسلطان ظل الله فى الارض وخليفة الرسول العظيم ، ثم استولوا على القسطنطينية وطردوا منها أعضاء « الاتحـــاد والترقى » أجمعين !

ولجأ أعضـــاء الجمعية الى الجيش المعسكر فى مقدونيـــا يلتمسون منه العون حتى لا يعود عبد الحميـــد وزبانيته الى استبدادهم وطغيانهم !

وكان القائد الأعلى لقوات مقدونيا عربيا من المقربين لدى

السلطان عبد الحميد ، وهو محمود شوكت باشا ، وكان طويل القامة نحيلها ، شاحب الوجه كالموتى ، فأخذته الحيرة برغم براعته فى فنه العسكرى ، ولم يدر ماذا يفعل ازاء هذه المشكلة !· وأخيرا عمل بمشورة بعض ضباط أركان حربه ومنهم مصطفى كمال الذى كان قد عاد مسرعا من طرابلس، فأصدر أمره بزحف جيشى مقدونيا الثانى والثالث نحو القسطنطينية ، وأسند الى مصطفى كمال قيادة أركان الحرب ، بينما تولى أنور قيادة احدى فرق الفرسان ، وكان قد عاد من برلين حين سمع بالاحداث الاخيرة !

وأخمد الجيش المهاجم تلك الثورة المضادة ، وخلع السلطان عبد الحميد وسجنه فى « فيللا » بمدينة سالونيك ، ثم عهد فى حراسته الى « فتحى » المقدونى وولى مكانه على العرش ابن عمه الكسيح، وأعاد مقاليد الحكم الى اللجنة العليا لجمعية الاتحاد والترقى ·· وكان أنور أبرز أعضاء الجمعية فبدا لأنظار الناس بطلا شعبيا ، وأعانه على الظهور ذكاؤه وحماسته وجرأته وحبه للاعلان والدعاية ·· فى حين كان مصطفى كمال لاذعا ساخرا متحفظا ، فبقى فى الظل ·· مجهولا من الجماهير ، غير محبوب من القادة · وكان رأى اللجنة فيه أنه ضابط كفؤ لكنه بغيض لا يكف عن انتقاد الجميع وعصيان الأوامر ·· ومن ثم دفعوه الى المؤخرة وأعادوه الى عمله العسكرى الذى أسند اليه من قبل !

بعد الثورة

عاد مصطفى كمال الى عمله العسكرى مشتعل النشاط اذ كان عسكريا بفطرته · وأخذ يبذل مجهودا شاقا فى تنظيم الطوابير والقاء المحاضرات ، ودرس التاريخ الحربى لحملات نابليون و « مولتكه » قائد الالمان ·· فلم يمض وقت طويل حتى أحرز ترقيات عدة متتالية أوصلته ــ وهو دون

الثلاثين الى منصب قائد أركان الحرب للجيش المقدونى الثالث!

وفى سنة ١٩١٠ عين ملحقا بقيادة الجنرال على رضا فى البعثة العسكرية التى أرسلت الى فرنسا · فمكث بضعة أيام فى باريس ، ثم توجه الى «بيكاردى» حيث كانت تجرى المناورات العسكرية السنوية ·· وكتب الجنرال على رضا تقريرا عنه قال فيه : « انه أظهر كفاءة ملحوظة وحسن تقدير للأمور ، وكان ضابطا مقداما بعيد النظر » ·· فلما عاد بعد ذلك الى سالونيك عين مشرفا على مدرسة الضباط بها ، فأعاد تنظيم المدرسة بما شهد له بالكفاية العظيمة ، لكنه لم يكن راضيا أو قانعا بهذا المنصب، لأنه برغم ميوله العسكرية كان دائم الحنين الى السياسة

لم تكن الثورة قد أصلحت من الأمور شيئا ، وقد تولى مقاليد الحكم فى البلاد زملاؤه القدامى الذين عرفهم فى سالونيك : أنور ، وطلعت ، وجمال ·· لكن مصطفى كان يحتقرهم جميعا ، ويعدهم تافهين لا يصلحون حكاما !··

وقد جاهر بآرائه هذه فى مدرسة الضباط ، وفى المجتمعات المختلفة ·· وصرح بأن الدول الكبرى تزداد شراهة وطمعا فى خيرات البلاد ، فألمانيا تضيق الخناق على تركيا، وماليوها يبتاعون كل يوم لأنفسهم حقوقا وامتيازات جديدة ، وقد ظفروا بامتياز السيطرة على سكة حديد بغداد، اذ باعه اليهم الوزير اليهودى الخائن « يافيد » ، عضو الاتحاد والترقى القديم الذى صار وزيرا لمالية تركيا ! ·· وهؤلاء هم كبار الدبلوماسيين الالمانيين ينشطون فى القسطنطينية لبث دعايتهم وتحقيق مصالحهم ·· أما فى الداخل فكل شىء ما زال على فساده الاول فى عهد عبد الحميد : والفقر آخذ بخناق الشعب ، والسخط شامل عام فى جميع الطبقات ولاسيما صفوف الجيش !·· ثم يختم

مصطفى كمال حديثه الصريح الجرىء مؤكداً ألا بد من تطهير عاجل شامل !

وهكذا أخذ اسـم مصطفى كمال وكفايته فى الذيوع والانتشار ، وكان بين الضباط عدد كبير من الساخطين المتأهبين لاحداث القلاقل ، فبدأوا يصغون الى أحاديثه هذه، وينظرون اليه فى اكبار ، ويلتفون حوله معجبين مؤملين !

وأمتعه أن صار مرموق المكان بارز الشخصية محترما من الجميع ، فتغير مسلكه وصار أكثر تلطفا مع الملتفين حوله وأكثر شعبية !٠٠ وبلغت أخباره مسامع محمود شوكت باشا ـ وكان قد أضحى وزيرا للحربية ـ فأدرك خطره على منطقة البلقان التى يمارس فيها نشاطه ، ونقله من مدرسة الضباط الى منصب قائد فرقة المشاة الثامنة والثلاثين فى سالونيك !٠٠ لكن ذلك لم يغير من الأمر شيئا ، فمارس مصطفى نشاطه فى بيئته الجديدة ، وكان فى الوقت نفسه يؤدى واجباته العسكرية على الوجه الأكمل ، فازداد عدد الضباط الملتفين حـوله ، وبدأ يدبر خطة أكثر وضـوحا وتحديدا ، للقيام بحركة مفاجئة لقلب نظام الحكم !٠ ومرة أخـرى عاد يقضى أمسـياته فى الاجتماعات السرية وراء الابواب المغلقة ٠٠ لكنه فى هذه المرة كان العقل المسيطر ، وكان خصومه هم رجال الثورة القـدامى الذين أصبحوا حكاما !٠٠

وكانت خطته ترمى الى تأليف حكومة وطنيـة صـالحة وابعاد كل نفوذ للاجانب ، وقد اتخذ لخطته الجديدة هـذه شعارا هو « تركيا للأتراك ! »

وأبلغ رجال الحكومة رؤساءهم أن مصطفى بات رجـلا خطرا !٠٠ فطالبت اللجنة بمعاقبته ٠ واذ ذاك دعاه محمود شوكت باشا ووجه اليه تهمة تحريض الجنود على الثـورة



« زبيدة » والدة مصطفى كمال

ضد الحكومة !٠٠لكنه لم يجد دليلاكافيا يبرر القبض عليه، فاكتفى باعفائه من منصبهوانتدبه للعمل فى ديوان الوزارة بالقسطنطينية !

وكان عسيرا أن يجد المسئولون وسيلة الى التخلص من خطر مصطفى كمال ؛ فالتحذير والتهديد لا يجديان شيئا معه لانه لا يعرف الخوف ٠ ولم تكنهناك تهمة محددة يمكن اثباتها عليه ، فقد كان حذرا شديد الحرص !٠٠ لكنه فى العاصمة سوف يكون بعيدا على الأقل من مركز القلاقل فى البلقان ، وبعيدا من أصدقائه وأتباعه ٠ كما تتيسر مراقبته فيها !

وفى تلك الفترة ـ اكتوبر سنة ١٩١١ ـ عمدت ايطاليا فجأة بلا انذار أو مقدمات ، الى انزال حملة من قواتها فى ميناء طرابلس بشمال أفريقيا ، فاستولت على المدينة ، وشطرا منالساحل٠٠وكانت طرابلس وقتئذ تابعة لتركيا!

وعند ذاك طرح مصطفى كمال السياسة جانبا ، فقد لاحت له مهمة تليق بالرجال أمثاله : انه ينبغى أنيهرع الى طرابلس ليقاتل الايطاليين ٠٠!

الفصل الثانى

فى طرابلس

لم يكن يصل بين تركيا وشمال افريقا غير الطريق البرى الطويل الذى يخترق سوريا ومصر ، فقد كان الايطاليون يسيطرون على البحر ويغلقون الدردنيل ٠ وكان الاسطول التركى مؤلفا منبارجتين وبضعة طراداتحربية٠ لكن مراجلها كانت صدئة وبحارتها قد اختفوا ، فتركت مهجورة راقدة فى الوحل فى خليج « القرن الذهبى » ٠٠ وهكذا كان مستحيلا ارسال قوات نظامية لنجدة طرابلس، وصار لزاما على الضباط الراغبين في التطوع للقتال دفاعا عنها أن يبحث كل منهم عن الوسيلة الكفيلة بوصوله الى الميدان،وكان أكثر الضباط الشبان راغبين فى ذلكالتطوع٠ وقد سارع « أنور » الى الذهاب الى هناك،ثم لحق به «فتحى» الذى كان قد عين ملحقا حربيا فى باريس ، مستقلا سفينة صيد فرنسية نقلته من مرسيليا الى تونس !

أما مصطفى كمال فقد سلك الطريق البرى ، يصحبه اثنان من أصدقائه ، فعبروا آسيا الصغرى الى سوريا ففلسطين فمصر ، اما بالقطار واما بالمركبات أو على ظهور

الجياد !٠ على أنهم ما كادوا يصلون الى الاسكندرية حتى وجدوا أن انجلترا قد أعلنت حياد مصر وأغلقت حدودها فى وجه المحاربين من الفريقين !

وثار مصطفى كمال واستبد به الغيظ ، فقد كان يعتبر مصر تابعة لتركيا ، فكيف يجرؤ الانجليز على اغلاق حدودها فى وجه الاتراك الذاهبين لمساعدة أتراك مثلهم فى أرض تركية ؟!٠ ولكن لم يكن هناك ما يمكن عمله ٠٠ فافترق الرفاق الثلاثة ، على أن يتخذ كل منهم الطريق الذى يختاره للوصول الى غايته !

وتنكر مصطفى كمال فى زى عربى ، واستقل القطار الحديدى المتجه الى الغرب٠ لكنه أوقف عند الحدود بين مصر وطرابلس ، ولم يكن يعرف من العربية الا ألفاظا قليلة ، كما أن زرقة عينيه ولون شعره كانا ينمان عن أصله التركى٠ وكان ضابط الحدود المصرى قد تلقى من القائد الانجليزى لمنطقة الاسكندرية أوصاف مصطفى كمال ، مشفوعة بأمر صريح باعادته مخفورا من حيث أتى ٠٠ لكن هذا الضابط كان يطوى قلبه على الكراهية للانجليز والايطاليين ، ويمالىء الاتراك بعواطفه ، فاعتقل مسافرا آخر ذا عينين زرقاوين ٠٠ وترك مصطفى كمال يواصل رحلته على بركة الله !

واتجه مصطفى رأسا الى القيادة التركية ، فى « عين المنصور » على بعد خمسة عشر ميلا من ميناء « درنة » ٠٠ فاستقبل بالترحيب ، ولاسيما أن القيادة هناك كانت تعانى نقصا فى الضباط وانه كان ذا خبرة بالاقليم وأهليه منذ طاف بالبلاد فى العام الأسبق ٠٠ وهكذا رقى من فوره الى رتبة بكباشى وأسندت اليه القيادة فى المنطقة المواجهة لدرنة وجعل مقر قيادته فى عين المنصور ، حيث يقيم « أنور » ، القائد العام للجبهة كلها !

وكان الايطاليون ـ بمعاونة أسطولهم ـ قد احتلوا جميع

البلاد الواقعة على طول الساحل ، لكنهم عجزوا عن التقدم فى الداخل ، حيث واجههم الأتراك ومن خلفهم شعوب شمال افريقيا كلها التى امتشقت السلاح وأعلنت « الجهاد» أو الحرب المقدسة ٠ وجعل الوعاظ يثيرون حمية الأهالى بالضرب على نغمة الدين ، فتدفقت القبائل من ليبيا ومن واحة الكفرة لنصرة الأتراك اخوانهم فى الدين ٠ وأعلن السيد السنوسى أن « أنور » ، ممثل عظمة السلطان خليفة المسلمين ، ومضى يزوده بالمحاربين ٠٠ فضلا عن المتطوعين الذين جاءوا من كل حدب وصوب !

وعرف أنور كيف يستخدم الجميع ، وأقام لنفسه خيمة عظيمة فرشت بالسجاد وبطنت جدرانها بالجوخ والاصواف المزركشة ، وفيها كان يستقبل المشايخ ورؤساء القبائل ويستمع الى آرائهم ٠٠ ونظم المحاربين تحت امرته الى جماعات تقيم كل جماعة منها فى أربعين خيمة ، خصصت لكل منها امرأة تسهر على راحة قاطنيها وتعد طعامهم ٠٠ ويشرف على كل جماعة ثلاثة من الضباط الأتراك ٠٠وكان يسخو فى دفع أجور المحاربين واطعامهم ، وارسال الهدايا والعطايا الى أرامل الذين يستشهدون منهم ٠٠ وهكذا مضى فى صبر ومثابرة ونشاط يلهب حماستهم للقتال ، حتى استطاع أن يرد الايطاليين الى الشاطىء !

وكان مصطفى كمال على صلة مستمرة بأنور، وكان يكبره بعام واحد فى السن ، وان عد مرؤوسا له ٠٠ ولم يستطع الاثنان أن يتفقا فى رأى ، بل كانا دائما على خلاف ٠ كان كلاهما أبيا سريع الغضب قوى الارادة بحكم ما يجرى فى عروقه من الدم الالبانى ٠ كما كان كل منهما لا يقبل نقدا أو معارضة ولا يعرف الخوف من الأخطار !

وبينما كان أنور يتحمس للمشروعات الضخمة والخطط الجبارة من غير أن يعبأ بالتفصيلات أو الحقائق والارقام ٠٠

كان مصطفى كمال على نقيضة ذلك شديد الحذر لا يجرى وراء الاحلام العريضة وانما يسعى الى أهدافه المحدودة بعد أن يمعن فيها النظر طويلا ويقلبها على شتى وجوهها ٠٠ولم يكن يميل الى استمالة العرب أو الأجانب بل كان معتدا بتركيته الى حد احتقار كل ما عداها !

والواقع أنه كره أنور منذ عرفه فى سالونيك ، لكنه الآن صار يكن له ازدراء شديدا ومقتا هائلا ، لم يحاول حتى أن يخفيهما • وكان يشوب ازدراءه شىء من الغيرة لاعتباره مرؤوسا له مع أنه يكبره سنا وخبرة ٠٠ ومن ثم صار ينفس على أنور سلطانه ومكانته العريضة ومظاهر أبهة منصبه التى تحيط به فى خيمته الفاخرة ٠٠ فأخذ يكثر من انتقاد كل خطة لأنور ، وتسفيه كل مشروع له بأسلوبه الساخر وتهكمه اللاذع !

وبمرور الايام ازداد سوء العلاقات بينهما•وصار القتال سلسلة مرهقة من الهجمات فى اقليم صخرى تتسلط عليه حرارة الشمس المحرقة التى تستنفد صبر أقوى الناس احتمالا وأعظمهم حلما ٠٠ فبات الغريمان يتشاجران علنا، وعبثا حاول « فتحى » أن يوفق بينهما • فانتهى الأمر بأن لاذ مصطفى بخيمته الصغيرة ، التى كان يعيش فيها معيشة بسيطة خشنة مثل معيشة جنوده ٠٠ وصار يأبى المشاركة فى ضروب اللهو والتسلية أو حضور المناسبات التى يبدو فيها فى صورة التابع المغمور وسط « حاشية » أنور !

وبعد انقضاء عام على بدء القتال ، كانت النتيجة لا تكاد تذكر،فقد أنزل الايطاليون نجدات كبيرة ، ودعموا مراكزهم على الساحل ، وان لم يستطيعوا التقدم الى الداخل !

وحدث بعد هذا أن أعلنت حكومة «الجبل الاسود» الحرب، فاذا بدول البلقان المسيحية تتحد كلها ، لأول مرة فى تاريخها ضد تركيا • واذا بالحكومة التركية تسارع الى

مهادنة ايطاليا كى توجه جهودها الى الحرب المتاخمة ٠٠ وارسلت تعليمات الى طرابلس تقضى بسحب قواتها الى مصر واعلان استقلال طرابلس ، وعودة الضباط الاتراك فورا الى وطنهم ٠٠ لأن العدو على الابواب يهدده بخطر الفناء !

استرداد « ادرنة »

هرع مصطفى كمال عائدا الى وطنه،عابرا البحر الابيض الى فرنسا ومنها الىالنمسا ورومانيا فالبحر الاسود فتركيا ٠٠ وفى كل دولة من هذه الدول كانت تعوقه بعض العقبات، بحيث لم يصل الى القسطنطينية الا فى الاسبوع الاول من ديسمبر • وهناك وجد كل شىء فى العاصمة مضطربا : فالجيوش التركية قد هزمت فى كل الجبهات ، وقوات الصرب ضربت ضربتها بدورها من الجنوب فاحتلت سالونيك وأسرت خمسة وعشرين ألفا من الاتراك ٠٠ والبلغار جعلوا وجهتهم القسطنطينية وراحوا يدقون الخطوط المحصنة فى «شطلجة» التى لا تبعد سوى خمسة عشر ميلا عن العاصمة ! ٠٠ وهكذا اكتسحت الجيوش المهاجمة تركيا الاوربية جميعها فلم يبق منها غير بضعة الأميال المحيطة بالعاصمة وقلعة « ادرنة » الكبيرة التى عزلت وحاصرها البلغار حصارا شديدا !

ووسط هذه الظلمة المدلهمة والدمار الشامل لم يلمع غير ضوء واحد باهر٠٠كان القائد البحرى الشاب «رؤوف» قد فر بالطراد القديم « الحميدية » فاخترق الحصار عند فم الدردنيل وراح يشن الغارات به فى بحر ايجة فيظهر فجأة ليدمر ميناء أو يغرق ناقلة ، حتى أمسى بطلا وطنيا ٠٠ لكن بطولته لم يكن لها أثر يذكر وسط الهزيمة العامة الشاملة التى حاقت بتركيا !

وازدحمت العاصمة بالجرحى ، فغصت بهم المستشفيات

والكنائس والجوامع والدور الخاصة ‥ وأصـــبح الاقليم المحيط بها حاشدا بمعســكرات اللاجئين ٠ وانهار نظام التموين ‥ ومات الألوف بالـكوليرا والتيفوس ، وألوف غيرهم من الجوع والبرد ‥ وفى ظل ذلك استمر الساسة يتنازعون من أجل السلطان والنفوذ ، بحيث لم توجـــد حكومة وطيدة الدعائم لتسيطر على الحالة ‥!

وراح مصطفى يتسقط فى انزعاج أنبـــاء أسرته ، بعد استيلاء الأعداء على ســـالونيك ، فقال له اللاجئون الذين قدموا منها ان المدينة قد أخذت غيلة وغدرا‥وان اليونانيين قتلوا كل المدنيين الاتراك الذين صادفوهم ، وساد المدينة السلب والنهب ‥!

على أن مصطفى كمال عثر أخيرا على أمه زبيدة واختـــه مقبولة فى أحد معسكرات اللاجئين،فنقلهما الى غرفة أعدها لذلك على الفور وكانت زبيدة قد جاوزت الستين ، وأثقلتها الســـنون وأظلم بصرها ، وقد عانت وابنتها ويلات الجوع والبرد خلال الفرار من سالونيك‥فلم تكد تلقى ابنها حتى استخفها المرح ولم تصدق عينيها ، لكنها حين اســتقر بها المقام صارت تتأوه وتندب أقرباءها الذين قتلهم اليونانيون فى ســـالونيك ، وبيتها الذى ضاع ، ومتاعها الذى فقد ، وبلدتها التى صارت موطئا لنعال الأعداء !

ولم يكد مصطفى يكفل الراحة لأمه وأخته حتى توجه الى الادارة الحربيـــة مقدما نفسه لها ‥ فعين على الفور قائدا لفرقة فى شـــبه جزيرة غاليبـولى كانت تدافع عن خط التحصينات الاخير ضد غزو البلغار للدردنيل وفتحهم الطريق الى تركيا الاسيوية لقطع كل اتصـال بالعاصمة !‥ وما وصل الى مقر قيادته حتى بدأ البلغار هجومهم العام، بقيادة الجنرال سافا سافوف‥وكانت تحصينات الاتراك لا تزيد على مخلفات خط دفاعى بنى قبـل خمسين عاما بواســـطة

المهندســـين الانجليز أثناء حرب القرم ، فكان المتـوقع ألا تصمد طويلا أمام هجوم البلغار المتواصـــل ، ولكن الفرقة التركية بقيادة مصطفى كمال استماتت فى القتال والدفاع عن هذا المعقل الاخير ٠ وفيما هى كذلك عقدت الهـدنة فى جميع الجبهات‥ثم تطورت الأحداث بسرعة فائقة ، فدعت الدول الكبرى الى مؤتمر صلح ، طالبت دول البلقان فيه بأن تسلم اليها فورا تركيا الاوربية كلها ـ عدا القسطنطينية ـ كى تقسمها فيما بينها ٠ وأصر البلغار على تسليم « أدرنة » بغير ابطاء !

وهنا انقسم الاتراك على أنفسهم ، واختلفت آراء قادتهم ‥ فرأى بعضهم وعلى رأسهم رئيس الوزارة أن تقبل تركيا الصلح بأى ثمن‥بينما أصر آخرون وفى مقدمتهم الضباط الشبان على مواصلة القتال ورفض التسليم بهذه الشروط المزرية !

واشتد الشد والجذب بين الفريقين ، وتعددت المؤامرات السياسية ، وعمت الفوضى ونشبت الثورات الصغيرة هنا وهناك !

وفى وسط هذا الاضطراب الشامل عاد أنور من طرابلس٠ ولم يشأ ان يضيع وقتا ، فدعا أعضاء «الاتحاد والترقى» الى الاجتماع ، وحشد الضباط الشبان حوله، ثم زحف واياهم نحو مقر « الباب العالى » واقتحم المكان أثناء انعقاد مجلس الوزراء ، فلما حاول «ناظم» وزير الحربية أن يعترض سبيله اطلق أنور عليه رصاصة من مسدسه فقتله‥ثم طرد بقية الوزراء من المكان وأخـــذ مكانهم ، ومعه زملاؤه : جمال ، وطلعت ، ومحمود شـــوكت باشا ، وولى الاخـير رئيسا للوزارة !

ولم يترك أنور لخصومه أية فرصة لاضعاف الحركة ،فلما عارضه بعض الساسة سارع الى شنقهم !‥ كما سارع الى

اخماد الثورات ، ورفض أن يقبل شروط الدول البلقانية لعقد الصلح !..

ولكن كان لابد من انقاذ أدرنة من البلغاريين الذين يحاصرونها ، فدبر أنور خطة واسعة النطاق لبلوغ هذه الغاية.وعقد اجتماعا حربيا على ظهر احدى البوارج للتشاور فى الأمر ، كان مصطفى كمال أحد الذين حضروه ، فانتقد الخطة انتقادا بتارا ، خلاصته أن الخطة فى ذاتها سليمة لكن تفصيلاتها لم تدرس دراسة كافية ولا يمكن تحقيقها !

وضايق النقد أنور ، وكان هو الرئيس صاحب النفوذ الأعلى والقول الفصل .. فطلب من مصطفى كمال أن ينفذ ما يكلف القيام به من أدوار الخطة دون مناقشة !..ونفذت الخطة فعلا كما رسمها أنور ، فقامت فرقتان بالهجوم على العدو فى فجر ٨ فبراير ، وكان مصطفى كمال بين قوادهما .. وتقدمت القوات التركية بضعة أميال،ثم أوقفها الضباب الكثيف .. فزحف البلغار حول الجناح الأيسر للاتراك وفتحوا أفواه النيران .. فانهزمت احدى الفرقتين وولت الأدبار ، بينما انسحبت الفرقة الاخرى ـ وهى التى كان يقودها مصطفى كمال ـ بعد أن بلغت خسائرها خمسين فى المائة أو يزيد .. أما الجيش العاشر الذى اقتضت الخطة أن ينزل الى البر فى احدى المناطق ، بعد نقله بالسفن ، فقد اضطره البلغار الى العودة من حيث أتى بعد أن تكبدخسارة بلغت ستة آلاف من جنوده وضباطه !

وهكذا فشلت خطة أنور فشلا كاملا .. ولم يمض شهر حتى سقطت أدرنة ، واضطرت حكومة أنور الى التوقيع على اتفاق الهدنة مع العدو بالشروط الأولى نفسها ، التى أحدث انقلابه وأسال الدماء وبطش بمعارضيه احتجاجا عليها !

أما مصطفى كمال فعاد للقسطنطينية ، وقد هزمت تركيا ورقدت جريحة تلعق جراحها .. بينما راح أعداؤها

يتنافسون فى اقتسام الغنائم والأسلاب التى انتزعتمنها وسرعان ما دب بينهم النزاع فهاجمت بلغاريا حليفتها اليونان والصرب ، لكنها هزمت وتراجعت الى حدودها .. وهكذا نسى المنتصرون عدوتهم تركيا وأمسك بعضهم برقاب بعض

وانتهز أنور الفرصة فعمد ـ فى جرأة منقطعة النظير ، ودون اعلان حرب ـ الى تسيير كل ما تيسر له من قوات نحو جبهة البلغار ، فاكتسح فلولهم التى أبقى عليها حلفاؤهم ، ومضى بجيوشه قدما نحو أدرنة ، فدخلها منتصرا على رأس فرسان الطليعة، تحف به الاعلام ، وتدق له الطبول،ويفسح له الاهالى الطريق التى فرشوها بأغصان الزيتون ..!

وعلى رأس أحد الطوابير الزاحفةكان مصطفى كمال يحرق الأرم غيظا وينفس على أنور هذه المظاهرة الظافرة المزهوة فى حين كان هو كالعهد به مغمورا مجهولا من الجميع !

نشوب الحرب العالمية

عاد مصطفى كمال الى العاصمة ليعيش فيها مع أمه وأخته معيشة الانزواء والاهمال ، وكان قد رقى بعد فتح أدرنة الى رتبة القائمقام ، ولكنه لم يجد العمل الملائم له ، ولم تكن أمامه أهداف محدودة ، فعاد يختلط بساسة الصف الثانى الذين يحتقرهم !

وكانت الحكومة القائمة قوية حازمة ، يسيرها ثالوث مؤلف من : طلعت وأنور وجمال ، بعد أن قتل محمود شوكت باشا رئيس الوزارة ، وانفرط عقد الجماعات والعصابات القديمة !

وازداد الساسة زهدا فى مصطفى كمال ، أكثر من أى وقت مضى .. لقد أمسى خارج المسرح تماما ، وتفوق عليه زملاء الأمس فخلفوه فى المؤخرة . صار جمال وطلعت

وزيرين ، وصار أنور شخصية « دولية » ـ فوق كونه وزيرا للحربية ـ وكان قد تزوج من أميرة وعاش معيشة أبهة ورفاهية فى قصر يطل على البوسفور !٠٠ وان له لخططا ومشروعات عظيمة : أن يوحد المسلمين جميعا تحت زعامة السلطان « الخليفة » ٠٠ وأن يوحد كل الشعوب الناطقة بالتركية حول تركيا « الأم » ٠ ومن ثم يعيد مجد الامبراطورية العثمانية !٠٠ هذا الى أن الالمان ينظرون اليه باعتباره حليفهم !

ولم يكن مصطفى كمال أكثر من ضابط شاب « أركان حرب » ، مكروه من زعماء الحكومة الثلاثية ، ومن جميع أعضاء « الاتحاد والترقى » ٠ فيما عدا صلته الودية مع جمال ، بحكم كراهيتهما المشتركة للألمان !

ورأى أنور لكى ينفذ مشروعاته العظيمة وجوب البدء بتنظيم الجيش ، ومن ثم دعا القائد الالمانى الجنرال « ليمان فون ساندرز » كى يضطلع بهذه المهمة ٠٠ فلم يكد النبأ يبلغ مصطفى كمال حتى ثارت ثائرته واحتدم غضبه،فراح يحرض رجال السياسة والضباط سرا وجهرا،على الانضمام اليه فى الاحتجاج ، قائلا : « انه لجنون منا أن نسمح لهؤلاء الألمان بالسيطرة على الجيش أساس قوتنا وعصب كياننا ٠٠بل انها لاهانة للاتراك جميعا أن نستعين بهذا البروسى!» ٠٠ ثم قابل جمال وناقشه فى الأمر٠٠وطلب مقابلة أنور، فلما رفض هذا أن يقابله كتب اليه مصطفى خطابا مرا ٠٠!

ووجد فيه زعماء الحكومة مشاغبا لا يكف عن مضايقتهم، ويحسن ابعاده عن العاصمة ، لا خوفا من تأثيره أو خطره ـ فما كان أحد ليصغى اليه أو ينحاز الى صفه ـ وانما تخلصا من شغبه ومتاعبه ٠٠ وكان فتحى صديقه قد عين وزيرا مفوضا فى صوفيا ، فعين ملحقا عسكريا له !

عد مصطفى كمال تعيينه فى منصبه الجديد بصوفيا بمثابة نفى له من تركيا ، فقد انقطعت كل صلة له بالحياة فى القسطنطينية ٠ ومنصب الملحق العسكرى لا ينطوى على عمل يلائم مواهب العسكرى المحترف ٠ ولكن حيثما وجد هذا العمل ، كان مصطفى يؤديه على خير وجه ٠٠ وارتبط بصداقة مع القائد العام البلغارى « كيتشيف » ومع أركان حربه ٠٠ وحضر المناورات والاجتماعات والاستعراضات وكتب تقارير بمشاهداته قدمها لصديقه فتحى الوزير المفوض

وكان أغرب ما فى الأمر أنه صار صديقا حميما للقائد البلغارى « سافا سافوف » ، الذى هزم فرقته فى الحرب وردها مدحورة محطمة !٠٠ وقد كان مصطفى يكره الضابط أو السياسى المنافس له،لكنه يحترم العدوالشجاع الباسل!٠

على أنه لم يكن ليستطيع أن يظل هكذا طويلا ، لا يعمل شيئا ، فطبيعته تفرض عليه أن يشغل نفسه على الدوام ، ان لم يكن بالعمل فباللهو ٠٠ فلما لم يجد عملا ركز همه فى اللهو ، وكفل له منصب الملحق الحربى كل امتيازات الدبلوماسى وحصانته ، كما كفل له زيه العسكرى فرص المجون والمتعة ٠٠ فاستغل ما توافر له من الناحيتين أكمل استغلال !٠٠ تعلم الرقص الكلاسيكى على مدرس خاص ، ومارسه حيثما وجد الى ممارسته سبيلا٠٠وغشى الصالونات والحفلات ، وحاول أن يكون نجما من نجوم المجتمع ، فغازل نساء صوفيا ٠٠ لكنهن لم يجدن فيه ما يحببه اليهن من الوسامة أو الجاذبية ، فضلا عن كراهيتهن التقليدية لكل الضباط الاتراك ، وهذا الى فظاظته وحدة لهجته ، وجهله التام بالاساليب العصرية للغزل الخفيف ٠٠ فقد كان همه الأول كلما تعرف الى امرأة أن يستطلع مدى استجابتها لرغبته الجنسية ، فان لم يجد لديها استعدادا لذلك كف عن

الالتفات اليها وسعى الى نيل غايته من أخرى ، بمثل ذلك الاسلوب الجاف المجرد من اللباقة !٠٠ وقد كاد يوما أن يتورط فى حب حسناء هى ابنة القائد البلغارى الجنرال كوفاتشيف ، لكنها لم تحفل به ، فعاد الى طبيعته ساخطا على الحب والمحبين !

وسرعان ما تبين نساء المدينة مدى الفارق بينه ـ فى طبعه الفظ الشبيه بطبع التتار المتوحشين ـ وبين طبع فتحى ، التركى المهذب الدمث الاخلاق ، فسخرن من رقص مصطفى ومن محاولاته تعلم آداب السلوك اللائقة برواد الصالونات ٠٠ وانتهى بهن الأمر الى الضيق به ثم الى تجاهله !٠٠ وهكذا ازداد انطواء على نفسه ، وازداد مقتا لنساء المجتمع وأساليبهن الناعمة التى تجعلهن يفضلن الثرثرة والغزلالبرىء على التمادى معه فىمغامراتهالغرامية حتى نهايتها المنشودة !

على أنه كان أقرب الى السجية فى صلاته بالرجال ، ثم بالنساء الماجنات اللواتى لا يحوجن الى فطنة أو الى لباقة٠٠ فكان مع هؤلاء وهؤلاء يشرب ويلهو كل ليلة حتى مطلع الفجر ، فى المقاهى وأوكار الغرام ٠ كما كان يقامر ويلعب النرد ساعات طويلة مع أى انسان يجلس اليه ٠٠ فمارس جميع الرذائل ، وجرب كل الموبقات وانغمس فيها حتى أذنيه ٠٠ ثم دفع الثمن مرضا جنسيا وصحة منهارة !٠٠ وانتهى به الأمر الى أن صار ينفر من جميع النساء !

ومرت الايام ، ثماندلعت شرارة الحرب العالمية،واشتبكت أكثر الدول العظمى فى القتال ، فانضمت تركيا الى ألمانيا، لكن بلغاريا ظلت على الحياد تترقب الأحداث !

وبقى مصطفى كمال فى صوفيا يشتعل صدره غيظا ، فقدكان يؤمن ـكثيرين منالاتراك ـ بأن الحكمةكانتتقتضى

تركيا أن تقف على الحياد حتى ترى أية كفة ترجح فتساومها على مؤازرتها !٠٠على أنه ـ وقد سبقالسيف العذلودخلت تركيا فى المعمعة ـ كان كأى ضابط نظامى يعتقد أنالحرب لن تطول أكثر من أسابيع معدودة ٠ فلما انقضت تلك الاسابيع والقتال ما زال دائرا من غير أن يشترك فيه ، استشاط غيظا وكمدا ، لأن الفرص التى أعد نفسه لها وانتظرها ملهوفا تفوته واحدة بعد الاخرى !٠٠وأخيرا أبرق الى أنور يسأله أن يسند اليه القيادة فى احدى الجبهات ٠٠ فتلقى منه ردا مؤدبا حازما فى الوقت نفسه ، اذ أمره فيه بأن يبقى حيث هو ٠٠ لان بلاده تحتاج الى خدماته هناك !

وأبرق اليه مرة أخرى ، ولكنه فى هذه المرة لم يتلق ردا !٠٠ فأخذ يكتب فى ذلك الى كثيرين من أصدقائه فى العاصمة التركية ، ويلح على صديقه فتحى لكى يسعى بدوره فى سبيل تحقيق أمنيته تلك ٠ ولكن هذا كله لم يفده شيئا !

ومرت الايام ، حتى أقبل فبراير سنة١٩١٥،وكانصبره قد نفد ، فآثر أن يغادر صوفيا بغير اذن ليتطوع للقتال٠٠ وفيما هو يحزم حقائبه وقد بيت أمره ودبر خطته ٠٠تلقى أمرا باستقدامه الى القسطنطينية !

مفتاح الدردنيل

كان أنور بعيدا عن العاصمة ، اذ مضى الى القوقاز ليقود جيشا ضد الروس وأناب عنه فى تصريف شؤون الدولة القائد الأعرج حقى باشا ٠٠ ولم يكن هذا ليحفل بميول أنور الخاصة وعواطفه الشخصية ، فأخذ يزود الجيش بحاجته من القواد الأكفاء ، ولا سيما بعد أن حاول الانجليز مرتين اقتحام الطريق الى الدردنيل ببوارج أسطولهم ، وكل الدلائل تدل على انهم يحشدون فى مصر جيشا عظيما

لمهاجمة غاليبولى ، بينما انهمك الجنرال الألمانى ليمان فون ساندرز فى اعداد جيش جديد على وجه السرعة لمواجهة هذا الهجوم !

وكان حقى باشا يعرف ماضى مصطفى كمال ، ويعرف كفاءته العسكرية الممتازة حين يبتعد عن السياسة ، فابرق اليه يستقدمه الى العاصمة على عجل ، وقدمه للجنرال فون ساندرز ، فأسند اليه هذا قيادة القطاع الجنوبى فى شبه جزيرة غاليبولى

كان فون ساندرز سىء الظن بكفاءة الضابط التركى العادى ، لكنى قدر مواهب مصطفى كمال غير العادية ، برغم ما لمس فيه من خشونة غير مألوفة فى مخاطبته وفى التعبير عن رأيه • ففى احدى المناسبات قال له مصطفى كمال : « ان بلغاريا قد أصابت بالوقوف على الحياد ، لأن انتصار ألمانيا آخر الأمر ، أمر غير موثوق منه ! »

وفى مناسبة أخرى قال له : « ان هيئة أركان حرب القيادة الالمانية العليا تبدى تراخيا اجراميا ! »

لكن مصطفى كمال كان برغم ذلك يؤدى واجبه العسكرى على خير وجه • وكان صافى الذهن حازما فى قراراته ، يستند فى تكوين آرائه الى الحقائق الثابتة •• وقد اختلف غير مرة مع فون ساندرز ، وبلغ الخلاف فى الرأى بينهما أشده ، اذ كان كلا الرجلين أبيا مزهوا بنفسه وكفايته •• لكن القائد الألمانى كان يقدر فى مصطفى كمال مواهبه الفذة وطبيعته التى تحاكى طبيعة الالمان ، فكان لذلك لايكف عن امتداحه ومنحه ثقته !

وكذلك كان مصطفى كمال ـ برغم كراهيته للاجانب عامة وللالمان الذين جلبهم أنور خاصة ـ حريصا على أن يحترم فون ساندرز ، ويقدر شجاعته وبراعته العسكرية

وجاءت الأنباء من كل مصدر فى القاهرة وأثينا تنبىء بتاهب الانجليز للهجوم ، بجيش قوامه ثمانون ألف مقاتل، هذا الأسطول الجرار الذى يتحفز للاشتراك فى القتال !

واجهت فون ساندرز مشكلة عسيرة ، اذ كان شاطىء شبه جزيرة غاليبولى لا يقل طوله عن اثنين وخمسين ميلا • وكان الاقليم جبليا ، وبعض جباله تشرف وتهيمن على الموقف كله • وعلى هذا ففى وسع الانجليز بفضل أسطولهم أن ينزلوا الى البر ذلك الجيش المكون من ثمانين ألف مقاتل فى أية نقطة من هذا الشاطىء المترامى ، ثم يقتحموا أحد الجبال ويفتحوا الطريق الى القسطنطينية !

ووزع فون ساندرز قواته وعددها ستون ألف جندى على ثلاث مجموعات تتألف كل مجموعة منها من عشرين الفا •• ولم يبق أمامه غير أن ينتظر ما يأتى به الغد ، فما كان فى استطاعة أحد أن يتكهن بموعد الهجوم البريطانى ، أو موضعه !

وعاد أنور من روسيا ، فأرسل الى فون ساندرز أمرا بتنحية مصطفى كمال عن قيادته واحلال آخر محله •• فاضطر القائد الالمانى الى اطاعة الأمر ، لكنه أعرب عن أسفه لذلك علانية وأسند الى مصطفى كمال قيادة الفرقة التاسعة عشرة الاحتياطية المعسكرة فى « مايدوس » • وفى الوقت ذاته أمره بالحذر فى استخدام قواته حتى تنجلى حالة التوتر والترقب ويعرف الموضع الذى سيركز الانجليز فيه هجماتهم

واذ أدرك مصطفى كمال مبلغ ثقة فون ساندرز به واعتماده عليه ، صار شخصا آخر •• انهمك فى عمله بهمة وحماسة أظهرتا مواهبه الحقيقية الكامنة، فلم تنقض أسابيع حتى أحال فرقته التى كان ثلثاها من الجنود العرب غير المدربين ، الى فرقة قوية من أحسن طراز •• وأردف ذلك

بدراسة الاقليم والتأهب لجميع الاحتمالات !

وفى يوم الاحد ٢٥ ابريل وقع الهجوم البريطانى المرتقب .. فبرزت من قلب الضباب المخيم على الشاطىء موجة هائلة من السفن المدرعة ، من بوارج ومدمرات وناقلات .. فهجم بعضها على القطاع الشمالى من شبه الجزيرة ، عند (بولير) .. وكانت هذه خدعة لكنها جازت على فـون ساندرز ـ وهجم بعضها الآخر على القطاع الجنوبى، بينما وقع الهجوم الرئيسى على القطاع الأوسط ..وكان الجيش المهاجم يتألف من استراليين .. وقد جعل هدفه أن ينـزل الى البر فى منطقة الأرض المنخفضة عند (جاباتيب) ثم يمضى قدما عبر وادى (مايدوس) ومن هناك يستدير ويستولى عـلى منطقة التلال المعروفة باسم (شونك بير) .. وكانت تقع لصق معسكر مصطفى كمال ، وتعد أحد « مفاتيح » الموقف كله !

لكن تيارا بحريا قويا جرف سفن الاستراليين الى أبعد من المنطقة التى حددت لنزولهم الى البر ، فهبطوا خطأ فى (أرى بورنو) ، واذ وجدوا أنفسهم عند حافة منطقة التلال اتجهوا رأسا نحو مرتفعات (شونك بير) ، ولم يعـرف مصطفى كمال شيئا من هذا ، لكنه كان قد أمر أقوى فرقه، وهى الفرقة السابعة والخمسون ، بالخروج الى العـراء فى الساعة الخامسة والنصف صباحا لاجراء مناوراتها العادية عند سفح أحد تلال (شونك بير) .. وفيما هو يتسـلق سفح التل ، رأى طابورا من الأتراك آتيا من قمة التل ، وعلم منهم أن الانجليز نزلوا الى البر عند (ارى بورنو) واضطروهم الى الانسحاب بينما كانوا يقومون بمهمـة الاستكشاف على الساحل ، وسرعان ما أصدر مصطفى كمال أمره الى قواته بالتحرك .. وبعد دقائق جاءه نبأ من الفرقة التاسعة المعسكرة فى اتجاه اليمين تؤيد نزول الانجليز !

البر وتطلب طابورا لتغطية جناحها الأيسر .. فقدح مصطفى زناد فكره بسرعة وانتهى الى ترجيح أن تكون (شونك بير) هى المنطقة التى يعتزم الاعداء مهاجمتها ، وسرعان ما قرر وجوب انقاذ هذه المنطقة دون ابطاء وبأى ثمن ، غير منتظر وصول اوامر القيادة العليا وتعليماتها

ان للدقائق قيمتها ووزنها فى هذه الظروف ، وقد كان مصطفى كمال كثيرا ما يردد فى هذا الصدد شعار نابليون المفضل : « السرعة ، السرعة ، والسرعة دائما ! » ... ومن ثم سارع الى اصدار أمره الى قواته بالتقدم فورا ، وبأقصى سرعة ، نحو (شونك بير) ..!

ولم تكن فى حوزته وقتئذ غير خريطة صغيرة، غير موضح عليها حتى موقع (أرى بورنو) الذى هبط فيه الانجليز ، فأمسك هذه الخريطة باحدى يديه وامسك « بوصلة » باليد الأخرى ، واصطحب دليلا يرشده الى الطريق ، ومائتين من جنوده سار فى مقدمتهم لاستكشاف مراكز العدو !

كان الطريق وعرا تعترضه الصخور والخنادق والعقبات، فعجز اكثر الجنود عن احتمال مشقة التقدم فيه ، بحيث لم يبق منهم مع قائدهم حين وصل الى قمة المرتفع غير نفـر قليلين . وهناك رأى طلائع الطوابير الاسترالية الزاحفـة للتقدم ، وقد بلغت منتصف السفح ، على مسافة لا تزيد على اربعمـائة متر !.. وهنـا صـاح بأقرب مرؤوسيه اليه : « هيا .. ارجع بأقصى سرعة واجمع كل من تستطيع جمعهم من قواتنا لمهاجمة العدو فورا ..! »

وبعد قليل وصلت وحدات الفرقة السابعة والخمسين وقد ارهقتها مشقة تسلق المرتفع وعواصـف الطريق ، فأعاد مصطفى كمال تنظيمها على عجل ، ودفع بجنودها الى الأمام .. ثم وصلت بطارية من المدفعية ، فساهم بيديه فى وضع

المدفع الأول فى المركز الملائم !٠٠ ومضى تحت النيران المنطلقة يوجه قواته هنا وهناك وكأنه شعلة متقدة من الحمية والنشاط !٠٠ ثم استدعى فرقته الثانية وألقى بها فى المعركة على مسئوليته الخاصة أيضا ، وقبل أن يتلقى أمرا بذلك من رؤسائه ٠٠ وحينما وجد ذلك كله غير كاف ، سارع الى استقدام الفرقة الثالثة والاخيرة وألقى بها هى الأخرى فى أتون القتال !

لقد تجاهل الأوامر الصادرة اليه بأن يكون حذرا ، وألقى بكل احتياطى الجيش من الجنود الى المعركة ، آخذا على عاتقه كل المسئولية عن هذا التصرف الخطير ، وذلك لاقتناعه بأنه يواجه الهجوم الرئيسى للعدو !

ولم يكن مصطفى كمال ليخفى عليه ما هنالك من خطر شديد أكيد على الجبهة كلها ان لم يصح تقديره ، وكان الهجوم الرئيسى فى موضع آخر ، وقد تبين بعد قليل ان تقديره صحيح ، واحتدم القتال طيلة ذلك النهار ، وكان الاستراليون قد قطعوا ثلثى السفح حين اشتبك الأتراك معهم ، فلم يستطيعوا بعد ذلك تقدما، وان أنزلوا بالمدافعين الشجعان خسائر جسيمة ، فأبيدت الفرقة التاسعة والخمسون ، وساد الارتباك جنود الفرقتين الأخريين من العرب !

والواقع ان الاستراليين كانوا أفدح خسائر ، مما جعل ميزان المعركة معلقا على وصول مدد الى أحد الفريقين فترجح كفته بلا شك ، وان لم يزد هذا المدد على خمسمائة جندى !

وهبط الظلام والتل ما يزال فى يد الأتراك ، بينما الاستراليون متشبثون بالسفح ٠٠ لكن مصطفى كمال لم ينتظر تطور الحوادث مكتوف اليدين ، بل اتخذ مركزا لقيادته مخبأ يقع خلف كومة من الأحجار على بعد أمتار من

القمة ، وظل طيلة تلك الليلة واليوم التالى كله يواصل العمل فى نشاط عجيب ، فينظم الهجوم تلو الهجوم لدفع الاستراليين الى الخلف نحو البحر قبل أن يوطدوا أقدامهم ٠٠ وكلما فشلت هجمة شن غيرها فورا فى غير يأس ولا كلال ، وكان يلهب حماسة جنوده بتنقله بينهم بنفسه عاملا على تدبير راحتهم وطعامهم ، وبذلك استطاع وقف تقدم الاستراليين وان عجز عن دفعهم من سفح التل الى البحر من حيث أتوا ٠٠!

والواقع أن مرتفع (شونك بير) كان مفتاح الطريق الى الدردنيل ، كماكان الدردنيل مفتاح الطريق الى القسطنطينية ٠٠ فلو ان مصطفى كمال لم ينجح فى صد الاستراليين عن هذا الموقع لعزلت تركيا عن حليفتها ألمانيا وأجبرت على عقد الصلح ، بل ربما انضمت اليونان ورومانيا وبلغاريا الى جانب الانجليز وتحالفوا جميعا ضد تركيا ، الأمر الذى يكون له أسوأ الأثر المعنوى فى مجرى السياسة الاوربية كلها ، بل يفتح الطريق الى روسيا ويمكنها من التزود بالسلاح والمؤن !

ومن هنا احتدم أوار المعركة بين الاستراليين المهاجمين لتحقيق هذه الأطماع الواسعة ، وبين مصطفى كمال الذى وقف فى وجوههم بوجهه الأغبر وعزيمته الجبارة ، ليذود عن المرتفع الضيق بقواته القليلة العدد والعدة ، معتمدا على كفاءته الممتازة وشخصيته المسيطرة الجبارة

أقوى من الموت !

عجز كل من العدوين المتقاتلين عن قهر الآخر ، فبدأ كلاهما يحفر الخنادق فى مكانه ويتحصن وراءها ٠٠ وقد استقر عزم الاستراليين على الثبات فى المركز الذى بلغوه الى أن تتاح لهم فرصة لمواصلة التقدم ، فى حين اعتزم

الأتراك بقيادة مصطفى كمال ألا يتركوهم يستقرون ، الا ٠٠ فى البحر ٠٠!

ومضت الاسابيع والفريقان يعانيان الارهاق الشديد من حرب الخنادق وما يكتنفها من متاعب وأخطار وأهوال وقلق مثير للاعصاب ، فانفجار القنابل وصفير الرصاص لا انقطاع لهما ، واصلاح الاسلاك المقطوعة فى الظلام فى الشقة الحرام بين الخطين يبعث الرعب القاتل فى الاوصال ، وهناك عدا هذا وذاك ساعات الانفعال المرير فى انتظار هجوم مروع مفاجىء من العدو بالسلاح الابيض والحراب الحادة !٠٠ وهناك الحشرجة الأليمة التى تنبعث من الجرحي فى الخنادق الضيقة تحت سطح الأرض ، والمذابح الوحشية التى تتناثر فيها أشلاء الأجسام الممزقة وتختلط فيها الدماء الحارة بشظايا القنابل المتفجرة !

ومع كل هذه الأهوال أقبل الصيف بما يلازمه من نقص فى الماء ، وزيادة فى تسلط الشمس الملتهبة على التلال الصخرية بحيث تكاد تصهرها ٠٠ وبين الخطوط كانت جثث القتلى تتعفن فيمتلىء الجو بأسراب الجوارح، كما تمتلىء الارض بالحشرات والهوام وجيوش القمل الناقل للأوبئة والحميات ، وهكذا بلغت قوة مقاومة كل من الفريقين وطاقته على الاحتمال حدا يهدد بالانفجار !

ولم يعط مصطفى كمال نفسه — مع هذا كله — فرصة للراحة أو الاستجمام ، لكنه بقى موفور النشاط ، سعيدا بأنه يمارس هوايته المفضلة ٠٠ هواية القتال !

لم يكن ينام الا قليلا ، لكنه لم يبد مفتقرا الى النوم ٠٠ وانما واصل استنهاضه لهمم جنوده فى غير ملل وفى حمية موفورة ! وظل هادئا بارد الاعصاب ، يرسم خططه ويصدر قراراته فى دقة بالغة وحزم صارم عجيب !

وأدهشت كفاءته الجنرال « كانينجيسر » الالمانى ، قائد

الفرقة التاسعة التى تقاتل فى ميمنته ، فقال عنه : « ان مصطفى كمال ضابط نشط صافى الذهن ، يقرر كل شيء معتمدا على ذاته ، ويعرف بالضبط ماذا يريد ! » ٠٠ وكان مصطفى دائم الطواف بخط القتال، يدرس الارض ويستطلع الأنباء ، ويعرض نفسه للاخطار التى تهدد المراكز الامامية برغم ما جرى به العرف من الا يستهدف لها القواد !..

وفى خلال هدنة قصيرة فى شهر مايو ، تنكر مصطفى كمال فى زى جاويش واشترك فى أعمال احدى الفرق المخصصة لدفن الموتى ، وذلك ليتمكن من التجسس بنفسه على خنادق الأعداء !٠٠ وكان لا يكف عن تنظيم الهجمات المحلية المتواصلة لارهاق قوى العدو ، وكان يقود الهجوم بشخصه أحيانا ليضاعف من حماسة جنوده ، ولم يسترح يوما واحدا أو يترك قوى رجاله المعنوية تضعف أو تخور !

وكم من مرة استهدف للنيران !٠٠ فالواقع أنه لم يكن يجنب نفسه خطرا محدقا ، بل كان يشارك جنوده كل المخاطر ٠٠ ومع ذلك ، وبينما كان من حوله يتساقطون قتلى من كل جانب ، لم يصب هو يوما بأذى !

وكثيرا ما أقدم على تصرفات جاوزت حد الاستهتار بالموت ، فألهب بذلك همم رجاله وحماستهم !.. وحدث مرة انه كان جالسا خارج خندق جديد ، ففتحت « بطارية » انجليزية مدافعها على الخندق ، وأخذت القنابل تتساقط من حوله بحيث أيقن رفاقه ألا بد من اصابته ، فألحوا عليه فى أن يلجأ الى مخبأ آمن ، لكنه أبى قائلا : « كلا !٠٠ لست أحب أن أكون مثلا سيئا لجنودى ! » ٠ ثم أشعل سيجارة ومضى يتكلم فى ثبات وعدم مبالاة بالخطر ، بينما كان الجنود من قلب الخندق ينظرون اليه متعجبين !٠٠ وبقى كذلك حتى تحولت مدفعية العدو الى هدف آخر غير الخندق الذى يجلس

خارجه ، فلم يصبه من أذاها غير غبار البارود الذى أثار انفجار قنابلها !

وفى مرة أخرى كان عائدا الى غاليبولى ، فتساقطت حول عربته قذائف زورق حربى سريع الطلقات، وأصابت ما أمام العربة وما خلفها ، بل ان قذيفة سقطت على مقدمة العربة فقتلت السائق ·· ومع ذلك لم يصب مصطفى بأى سوء

وأحيانا كان يتناول بندقيته ، ثم يخرج رأسه من الخندق ليصوب النار الى هدف معين فى خنادق الاســتراليين غير عابىء بالخطر !·· وفى المناطق المكشوفة كان يبطىء فى سيره عامدا ، لكى يشجع جنوده ويقوى عزائمهم !·· وقد فشل قناصة العدو غير مرة فى أن يصيبوه برغم قربه منهم! وكان يؤكد لمن حوله أنه موقن كل اليقين بأن قذيفة ما لن تصيبه ، وأنه لذلك لا يعد تعرضه لقذائف العــدو جرأة تستحق الذكر ، فكان جنوده اذ يسمعون ذلك يزدادون حماسة واستهانة بالاخطار !

وفى شهر يونيه ، اكتشف مصطفى كمال مركزا ضعيفا فى خطوط العدو ، وسرعان مادبر خطة محكمة للهجوم على ذلك المركز ، لاشاعة الاضطراب فى خنادق الاســتراليين واضطرارهم الى الانسحاب ، وحدد لذلك الهجوم يوم ٢٨ يونيه ، وأعد للقيام به طابورا كان قد وصل حديثــا هو الطابور الثامن عشر ، على أن تقوم الفرقة بأكملها بشــد أزره !

وقبيل موعد الهجوم بيومين زار « أنور » جبهة القتــال فى غاليبولى ، وكان قد أصبح وزيرا للحربية وقائدا عاما بالنيابة فلما علم بأمر هذا الهجوم سفهه وعارضه قائلا : « ان مصطفى كمال ينبغى أن يستشير السلطات العليــا ، قبل أن يبدد الأرواح فى هجوم خاسر ! » ·· وكان مصطفى

قد أعلن استيلاءه على مدفعين رشاشين ، فأبدى أنور أنه غير مصدق له ، وطلب أن يرى المدفعين بنفسه ليستوثق من صحة النبأ !·· واذ ذاك ثارت ثائرة مصطفى كمال ، ولم يطق صبرا على هذه الطعنة التى أصابت كرامته ، فقــدم استقالته !

لقد كان يرى أن أنور ليس سوى شاب تافه مغرور وصل الى قمة السلطان عن طريق السياسة الملتوية الرخيصة ، ولهذا يأبى الا أن يتدخل فى كل شىء ، ويفسد كل شىء !

ولكن استقالة مصطفى كمال ما كادت تصل الى القــائد الالمانى «ليمان فون ساندرز» حتى سارع الى اقناعه بسحبها، اذ عز عليه أن يفقد أكفأ معاونيه ، وكان يشارك مصطفى كمال احتقاره لأنور واستياءه من تدخله فيما لا يعنيه !·· وازاء هذا لم يسع أنور الا أن يعدل عن معارضته ذلك الهجوم المرسوم ، فتم فى موعده وفقا للخطة التى رسمها مصطفى كمال ·· لكنه أسفر عن فشل تام ، وأبيد الطابور الذى قام به ، بسبب اهمال المختصين فى اتخاذ بعض الاستعدادات وسوء تصرف هيئة أركان الحرب !·· فاستغل أنور فرصة هذا الفشل للنيل من مصطفى كمال ، وزار الفرقة التاسعة مرة حيث أعرب لمصطفى كمــال عن لومه اياه على تلك النتيجة · وازاء ذلك قدم مصطفى كمال استقالته للمــرة الثانية ، وعبثا حاول «فونساندرز» أن يقنعه باستردادها، اذ وجد منه تصميما وعنادا · فعهد الى أركان حربه «كاظم» فى محاولة التفاهم معه لعله يفلح فى اقناعه !

واتصل كاظم بمصطفى بالتليفون ، وسأله : « كيف ترى الموقف ؟·· وماذا تطلب فى شأنه ؟ »

فقال له مصطفى : « لقد صارحتك من قبل بحقيقــة الموقف وبما ينبغى ان يتخــذ فى شأنه .. والآن لم يعــد

هناك غير حل واحد ... وهو أن تضع جميع القوات التى فى حوزتك رهن تصرفى ! »

وعندئذ أجابه كاظم متهكما : « أهذا كل ما تريده ؟ وهل تكفى هذه القوات لتنفيذ ما لديك من خطط جديدة ؟ ! »

وما كان جواب مصطفى كمال الا أن وضع السماعة فى عنف !

على أن عودة أنور للعاصمة على أثر ذلك هيأت الفرصة لاصلاح ما أفسده بموقفه من مصطفى كمال ، فأفلح « فون ساندرز » فى اقناع هذا بالعدول عن استقالته الجديدة !

معركة الانقاذ

بدا واضحا فى أواخر شهر يوليه أن الانجليز يدبرون خطة للقيام بهجوم كبير !.. فقد شوهدت فى مياه مصر وجزر اليونان ناقلات تحمل فرقا جديدة وامدادات كبيرة . وعلى هذا سارع الاتراك الى تعزيز جيشهم فى شبه الجزيرة!

ووقع الهجوم المنتظر ليلة ١٦ أغسطس ، وكانت هدفه قمة جبل يعرف باسم « حاجى شيمين » يقع الى الشمال من منطقة « شونك بار » ويتصل بها بوساطة معبر جبلى يقع خلف الجناح الأيمن لخط القتال الذى يشرف عليه مصطفى كمال !

وكان الانجليز يأملون منوراء الاستيلاء على القمةالجديدة أن يلتفوا حول منطقة (شونك بار) وبذلك يطوقون القوات التركية جميعها ويسيطرون على شبه الجزيرة !

ودبر الانجليز أن يخرج طابور واحد من يسار خط الاستراليين متجها الى « حاجى شيمين » رأسا ، فى حين ينزل طابور آخر أكبر قوامه خمسة وعشرون ألفا من الجنو على بعد خمسة أميال من ساحل خليج « سوفلا » ثم يزحف

الى الداخل حتى ينضم الى الطابور الاول ويهجمان معا للاستيلاء على « عنق » شبه الجزيرة ، وبذلك يفتح أمامهم الطريق الى الدردنيل ومنه الى القسطنطينية !

وقبيل وقوع الهجوم بأسبوع ، أخذ الانجليز ينزلون الى البر كل ليلة ــ فى تكتم شديد ــ قوات جديدة على الساحل الواقع أسفل خط الاستراليين المواجه لمصطفى كمال ،

وكانت ليلة السادس من أغسطس شديدة العتمة ، فانتهز الانجليز هذه الفرصة وبعثوا من خلف خطوط الاستراليين بطابور مؤلف من ستة عشر ألف مقاتل ، ساروا فى محاذاة الساحل حوالى ميل ، ثم توغل الى الداخل متجها رأسا الى حاجى شيمين » لكى يبلغ قمة التل هناك عند الفجر !

وما كادت هذه الأنباء تصل الى « فون ساندرز » حتى أصدر أمره الى « كاننجايسر » بأن يقود الفرقة التاسعة المعسكرة عند ميمنة فرقة مصطفى كمال ، ليصد الهجوم الجديد ·· فهرع كاننجايسر عبر الاقليم الوعر قاصدا قمة « حاجى شيمين » ، فبلغها فى الساعة الرابعة والنصف قبيل الفجر ·· وهناك على ضوء السحر الباهت رأى على بعد ثلاثمائة ياردة طليعة طابور العدو الذى بدأ يصعد التل فى بطء ومشقة ·· ولم يكن معه على القمة اذ ذاك سوى عشرين جنديا فقط ، لكنه لم يشأ أن يضيع الوقت فى انتظار وصول بقية جنوده فأمر من معه باطلاق النار على طليعة العدو الزاحفة !

وخيل الى الانجليز أنهم بازاء مقدمات مقاومه منظمة ، توقفوا حيث هم ، وبدأوا يحفرون الخنادق استعدادا لقتال طويل !·· وكان قناصة الاتراك قد قاوموهم لدى نزولهم الى البر مقاومة عنيفة أنهكت قواهم واضطرتهم الى تلمس النجاة فى الظلام عبر المجارى المائية المليئة بالصخور الحادة

المدببة ، يضاف الى هذا أن الليلة كانت حارة ، وأن الماء كان شحيحا ، فكان طبيعيا أن يرحب الانجليز بالتوقف التماسا للراحة من كل ذلك العناء !

واستراح الانجليز طيلة النهار ، بينما انهمك الاتراك فى جلب الامدادات واقامة التحصينات وكان قائدهم الجرىء قد أصيب بجرح بليغ خلال مناوشة الفجر ، وفى الوقت نفسه أمدهم مصطفى كمال بكل من استطاع الاستغناء عنه من رجاله !

على أن الخطر الاكبر على الاتراك كان يتمثـــل فى ذلك الطابور الانجليزى الآخر المؤلف من خمسة وعشرين ألف جندى،فقد استطاع النزول الى البر فى خليج « سفلا » دون أن يلقى مقاومة تذكر ، ثم حط رحاله فى أقرب موضـــع ليأخذ أفراده قسطا من الراحة !

ولم يخف هذا الخطر على « ليمان فون ساندرز » فسارع الى الاستعداد لمواجهته بأن جلب من « مايدوس » على عجل فرقتيه الاحتياطيتين ،كما استقدم من « بولير » ومن تركيا الاسيوية كل الجنود الذين فى متناوله ، على أن عدد قواته حتى تلك الساعة لم يكن يزيد على ألف وخمسمائة،فكيف تستطيع الصمود فى وجه ذلك الهجوم الخطير ؟!

وبقى الانجليز طيلة اليوم السابع من أغسطس مخلدين الى الراحة أمام خليج « سفلا » ، فى حين كان فى مقدورهم أن يتقدموا بسهولة ويســحقوا تلك القوات الضئيلة من الأتراك فيربحوا المعركة كلها !

وفى فجر اليوم التالى هجم الانجليز فى جبهـة « حاجى شـيمين » ، موجهين قلب هجومهم نحو القمة ، وجناحهم الأيمن نحو « حاجى شيمين» وجناحهم الأيسر نحو خنادق مصطفى كمال فى شونك بير •• واحتدم القتـال بشدة

ووحشية ، واستطاع جنـود نيوزيلندة أن يثبتوا أقدامهم فوق قمة شونك بير ، فكر عليهم مصطفى كمال وجنوده فى هجوم مضاد لكنهم اسـتطاعوا رده على أعقابه ، وسـاد الارتباك هيئة أركان حربه وتوقعوا الهزيمة والانسحاب من ذلك الموقع الحربى الهام !

لكن مصطفى كمال ظل بارد الاعصاب ثابت الجنان،ومضى يتنقل بين جنـوده تحت النيران ، يبث فى نفوسهم الثقة والأمل بشجاعته ورباطة جأشه ، ويشجعهم على الصمود لهجمات العدو !• وهكذا لم يستطع الانجليز التقدم خطوة أخرى نحو القمة الوسـطى ، أو نحو « حاجى شيمين » • لكنهم ظلوا متشبثين بالمركز الذى بلغوه فى « شونك بير »

وفى ساعة متأخرة من ذلك المساء،أرسل «فون ساندرز» فى طلب مصطفى كمال ، وصارحه فى سـورة من الغضب والسخط بيأسه من الموقف لأن المدد الذى طلبه من «بولير» لم يصل بعد ، ولان القائد « فوزى » أثبت نقصا فى الكفاءة استحق من أجله أن يفصله ، بينما جبهة « سـفلا » التى زارها فى الصباح ليس فيها غير فرقة واحدة ضعيفة ممزقة وإذن •• ليس ثمة ما يمنع الانجليز من التقدم وفصل شبه الجزيرة عن بقية تركيا !

والواقع أن القائد الالمانى كان على حق ، فقد قضى طيلة النهار فى طلب الامداد بكل الوسائل•• بالبرق والتليفون ، والرسائل الى كل الجبهات المختصة مؤكدا تأهب الانجليز للهجوم فى جبهة « سفلا » خلال الساعات القليلة المقبلة ، وأن الموقف غاية فى الحرج !• لكنه لم يتلق أى مدد ، من أية جهة !••وقد ختم كلامه مع مصطفى كمال قائلا : «اننى قررت أن أجمع كل القوات المشتتة فى الميـدان فى جيش واحد •• وأريد أن تتولى أنت قيادته ! »

ولم يتردد مصطفى كمال ، ولم يستفسر عن أى شىء ، فقدكانت المسئولياتالجسام والمهام الضخمة تستثير حميته وكفاءته الكامنة ٠٠ وعلى هذا قبل العبء الخطير الذى ألقى على عاتقه فى هدوء ، ثم أعد خططه بملء حريته ، ومضى لتنفيذها بنشاط خارق ٠٠٠ وكان الحظ حليفه فوصلت قوات « بولير » بعد قليل قاطعة حوالى ثلاثين ميلا فى فترة وجيزة ، فاستقبلها مصطفى كمال مغتبطا ومنحها فترة قصيرة للراحة ثم أعدها للهجوم المضاد ، الذى هو الأمل الوحيد الباقى لصد الانجليز ، اذ لم يكن فى الوقت متسع لاعداد مراكز للدفاع !

وفى تلك الليلة نفسها ، كان الانجليز بدورهم يعدون عدتهم لحسم الموقف فى أقصر وقت ممكن ، وقد وصل « هاملتون » القائد الأعلى لقواتهم ، وأصدر أمره بمواصلة التقدم فورا ، وحدد له فجر اليوم التاسع من أغسطس ٠ وهكذا وقع الهجومان فى وقت واحد ، واستمر القتال سجالا بين الفريقين ، فثبت الاتراك فى مواقعهم ، ولم يستطع الانجليز — برغم ما بذلوه من جهود وتضحيات — الا الاستيلاء على قمة « شونك بير » و « حاجى شيمين » ٠ وكان الاتراك قد أجبروا الانجليز على التراجع قليلا الى أسفل السفح فى « حاجى شيمين » ، ثم اندفع طابور من الهنود والانجليز الى القمة حيث هاجموا الاتراك بالحراب وطردوهم الى أسفل السفح ، وكادوا يبيدونهم لولا أن مدافع الاسطول البريطانى فتحت فوهاتها خطأ مصوبة قذائفها الى مواقع الانجليزأنفسهم بدلا منالاتراك فأصابتهم بخسائر فادحة واضطرتهم الى الانسحاب !

وكان النيوزيلنديون قد تمكنوا من الاستيلاء على موقع فى (شونك بير) جعل فىمتناولهم اصلاء الخطوط التركية بنيرانهم الحامية ، وفشلت جميع الهجمات المضادة فى

زحزحتهم عن ذلك الموقع ٠٠ وهكذا يئس قواد الفرقة التركية التاسعة عشرة من الحالة ، فاتصلوا بمصطفى كمال بالتليفون ، وأبلغوه أن التعب والوهن أعجزا رجالهم عن مواصلة الهجوم ، وأن مدفعية العدو الرهيبة تواصلالفتك بهم وقد تفشى الذعر بين صفوفهم

وكان جواب مصطفى كمال أن قال لمحدثه فى صوت هادىء : « لا تنزعجوا٠٠اثبتوا فى مواقعكم أربعا وعشرين ساعة أخرى حتى أدبر الموقف هنا فى جبهتى وعندئذ ألحق بكم واضع كل شىء فى نصابه ! »

وفى الساعة الثامنة مساء كان مصطفى كمال قد عاد الى شونك بير) فخرج بنفسه للاستطلاع ، وكاد القناصة يصيبونه مرتين ٠٠ فرجاه رجاله أن يأخذ حذره ، لكنه اقترب من خطوط الأعداء كى يدرس طبيعة الارض بعناية، ثم عاد علىقدميه دون أنيغطى موقعه بأى وسيلة منوسائل الحماية !٠٠ وانتهى من جولته الاستطلاعية هذه الى أنه ما لم يجبر النيوزيلنديين على التخلى عن قمة (شونك بير) فلا مفر من الهزيمة المحققة !٠٠ وعلى هذا أمضى تلك الليلة كلهايفكر ويدبر الخطط٠٠وكان (فون ساندرز) قد أرسل لنجدته الفرقة الثامنة من تركيا الاسيوية ، بينما عزز هو الفرقة التاسعة عشرة بما يعادل ثلاثة فيالق ٠ وحشد الجنود فى الخنادق بقدر ما استطاع ، واستثار شجاعتهم بأن سار بينهم بنفسه يضاحكهم ويقوى عزائمهم قائلا لهم: « لا تتعجلوا المعركة يا أبنائى ، فسوف نختار لها اللحظة المناسبة بالضبط ، وعندئذ سأخرج أنا فى مقدمتكم٠وحين ترونى أرفع يدى،فأعدوا حرابكم فى أيديكم واتبعونى ! »

وبهذه الوسائل وغيرها « حقن » الجنود الاتراك البسطاء بقوة معنوية هائلة ، فتأهب الجميع لأن يتبعوه ولو الى الجحيم !

اما فى الجبهة المقابلة فقد أخذ مكان النيوزيلنديين المنهوكى القوى فيلقان جديدان كاملا العدة ٠٠!

وقبل الفجر أطلقت المدافع التركية نيرانها على مواقع الأعداء ، ورد عليها هؤلاء بالمثل ، بينما خرج مصطفى كمال من الخنادق فى جرأة منقطعة النظير ، ومن خلفه الجنود الاتراك الشجعان ٠ وأصابت احدى الرصاصات ساعته ، لكنه لم يصب بأى سوء ٠ ولو جرح ساعتئذ لأبى الجنود التحرك ، وألغى الهجوم من أساسه !٠٠ وحينما توقفت نيران المدفعية بعد قليل وقف مصطفى كمال فى العراء وقفة القائد المسيطر الواثق من النصر، ثم رفع يده صائحا بجنوده « الى الأمام ! » ٠ وسرعان ما اندفع مشاة الاتراك من خنادقهم وراءه ٠٠ موجة بعد موجة وكأنهم الوحوش المزمجرة ٠٠ وبأيديهم الحراب مشرعة ٠٠ ثم هجموا على الفرقتين الانجليزيتين فأبادوهما ، وواصلوا التقدم نحو السفح المواجه للبحر ٠٠ وعندئذ أطلق الاسطول البريطانى نيرانه عليهم فأحدث فى جموعهم الزاخرة ثغرات كبيرة اضطرتهم الى التراجع وحفر الخنادق للاحتماء فيها ٠٠ لكنهم كانوا قد طهروا قمة (شونك بير) من الأعداء، وأنقذوا الموقف بتلك المعجزة التى صنعها مصطفى كمال الذى منح رتبة الباشوية على أثر ذلك تقديرا لبراعته وشجاعته ولما أحرز من فوز عظيم !

وفى خلال الاشهر الثلاثة التالية استمر مصطفى كمال يشرف على الجبهة كلها ٠ وكان القتال قد اقتصر على حرب الخنادق ! وقد هجم الانجليز من « سفلا » مرتين ، فاحتدم القتال فى كل مرة وكانت الخسائر جسيمة للفريقين، واضطر مصطفى كمال الى أن يلقى بكل قواته الاحتياطية فى المعركة! واستطاع بشخصيته الباهرة وجرأته النادرة أن ينقذ شبه

الجزيرة ، وأن ينقذ العاصمة نفسها تبعا لذلك من خطر لا شك فيه !

وفى ديسمبر سنة ١٩١٥ يئس الانجليز من الانتصار ، فكفوا عن النضال وانسحبوا من البلاد ٠٠ فخفضت الجيوش التركية الى قوة رمزية صغيرة عهد اليها فى أعمال « الداوريات » ٠٠ وعاد مصطفى كمال ـ باشا ـ الى القسطنطينية مع العائدين اليها من ميادين القتال !

فى جبهة القوقاز

عاد مصطفى كمال الى القسطنطينية مفعم النفس شعور بمكانته ٠ لقد صار الآن شخصا مرموقا يحسب حسابه ٠٠ واطلقت عليه الصحف لقب « منقذ الدردنيل والعاصمة » ٠ وامسى يتمتع بشهرة عسكرية كبيرة ، ولم يعد فى امكان احد تجاهله كما كان الشأن فى الماضى ٠ فقرر أن يرغم الساسة على الاصغاء اليه ، وأن يفرض آراءه على أولئك « الجرذان » كما كان يسميهم ليساهم فى حكم البلاد !

لقد كان ـ كالعهد به من قبل ـ يحتقر أولئك الساسة الاتراك الجامدين ، ولكن السياسة كانت تجذبه اليها !٠٠ وطالما جاهر فى كل مناسبة بأن الاتراك يجب أن يستقلوا بشؤون بلادهم ، واذا لم يكن بد من استخدام الالمان فيجب الا يكونوا أكثر من موظفين مرؤوسين لا يقومون بغير ما يأمرهم به رؤساؤهم الاتراك

كذلك كان مصطفى كمال لا يفتأ يندد بغرور أنور ونقص كفاءته ، ويصفه بأنه «خطر قومى» يجب ابعاده حتى لايدمر البلاد ويلقى بها الى التهلكة !

وكان الرأى العام ينحاز الى آرائه ، فقد أخذ التحمس للحرب تخمد جذوته ، وشعر الالمان بتضاؤل ميل الاتراك

اليهم • وتكررت حوادث الشجار بين الأفراد من هؤلاء وهؤلاء نتيجة لنفور الاتراك من أن يكونوا أداة لا غير فى أيدى الالمان ، ولما ساد من الاعتقاد فى كل أنحاء تركيا بأنها هى الخاسرة على أى حال أيا كان المنتصر فى الحرب العالمية !•• وبلغ من تفاقم الشعور العدائى نحو الالمان أن وضع بعض الاتراك خطة جهنمية لاختطاف جميع الضباط الالمان وابعادهم من البلاد !

وكان أنور ـ بمساعدة الالمان ـ قد جعل من نفسه دكتاتورا ، فغدا مكروها من الرأى العام ، بل مكروها من أنصاره أنفسهم وفى مقدمتهم أعضاء اللجنة العليا لجماعة « الاتحاد والترقى » •• فدبرت ضده عدة مؤامرات،وصار دائم الخوف من الاغتيال ، فلا يخرج الا فى حراسة قوية ، منطلقا بسيارته فى سرعة جنونية ••!

ولم يحاول مصطفى كمال اخفاء آرائه • ولما كان صديقه جمال غائبا وقتئذ فى سوريا فقد رأى أن يذهب الى مقابلة طلعت باشا رئيس الوزارة • فاستقبله هذا مرحبا،وأصغى اليه بانتباه وهو يشرح له مؤهلاته لتقلد منصب وزير الحربية ، ثم تظاهر بموافقته على طول الخط،وما كاد يخرج من عنده حتى ضحك ساخرا منه متهما اياه بالغرور !•• ونقل أحدهم الى مصطفى كمال أن طلعت كان يسخر منه ، فجرح ذلك كبرياءه وأغضبه الى حد أنه لم يصفح عن طلعت بعد ذلك قط !

ورأى مصطفى كمال أن يجرب حظه مرة أخرى فتوجه الى وزارة الخارجية حيث استطاع صديقه خليل وكيلها الذى كان معه فى صوفيا أن يهيىء له مقابلة مع وزير الخارجية « نسيم باشا » • وكان هذا معروفا بكراهيته للالمان مثله• لكنه كان مشغولا ببعض المهام حين وصل مصطفى الى دار

الوزارة ، فتركه ينتظر بعض الوقت فى الحجرة الخارجية•• فلما أرسل فى استدعائه كان مصطفى فى حالة غضب وانفعال ، فقال للوزير فى فظاظة : « ان التقارير المتفائلة التى وضعتها قيادة أركان الحرب ليست صحيحة،فالاحوال سيئة جدا ، ولا شك فى أن أنور سياسى عاجز مجرد من الكفاية ، ولاشك أيضا فى أنك تعرف هذه الحقائق ، وعلى هذا تعتبر مشتركا فى المسئولية عن الصدام المقبل الذى يبحث تركيا به عن حتفها بظلفها ! »

وساءت الوزير لهجة مصطفى كمال ، فأجابه بمثلها قائلا: « لقد أخطأت المرجع المختص بهذه الأمور اذ جئت الى هنا للتحدث فى شأنها ، وكان ينبغى أن تتوجه بهذه الآراء الى وزارة الحربية ! »

فقال له مصطفى كمال : « ان الالتجاء الى وزارة الحربية معناه الالتجاء الى الالمان ، فهم يسيطرون على كل شىء،وقد حاولوا أن يتخلصوا منى ! »•ثم غادر مصطفى مكتب الوزير حانقا لا يلوى على شىء !

وهكذا وجد نفسه ، كما كان فى الماضى ، غير مرغوب فيه من الساسة والمسئولين • والواقع أن تعدد مواهبه جعله يبدو غير صالح لمنصب معين بذاته •• وكان الى ذلك شامخا متعاليا ، لا يريد أن يختلط بأحد بل ينتظر من الجميع أن يأتوا اليه ويوافقوه فى الرأى ويطيعوه طاعة مطلقة !•• ولم يكن يرى أن يلتقى بأحد فى منتصف الطريق ••!

واذ بلغ به الغيظ والسخط غايتهما،صار يجاهر بآرائه هذه فى كل مناسبة • وكانت العاصمة تعج وقتئذ بالمؤامرات التى يدبرها صغار القوم ، فبدأ اسم مصطفى كمال يقترن بأسمائهم ، باعتباره خصما لأنور وللالمان ،

ولو أنه كان فى الواقع أكثر حذرا وذكاء من أن يشترك في تلك المؤامرات ٠٠!

وكادت احدى هـــذه المؤامرات تبلغ غايتها ، فقد دبر ثرثار حقود يدعى « يعقوب جمال » خطة لقتل أنور،انتقاما لثأر شخصى ، وتحدث عن تنصيب مصطفى كمال مكانه !٠٠ وكانت مؤامرة « رخيصـــة » متهورة ، نسج خيوطها نفر من ضباط الصف الثانى ، فلما وصل خبرها الى أنور تأنى وتريث حتى حصـــل على الأدلة الكافية لادانة المتآمرين ، وعندئذ شنق يعقوب وزملاءه انذارا وعبرة للآخرين ،وعلى الأخص لمصـــطفى كمال ٠٠ وما كان ليحجم عن شـــنق مصطفى كمال بدوره لو استطاع سبيلا الى ذلك ، ولكن لم يكن هناك أى دليل على اشتراكه فى المؤامرة ٠٠!

على أن أنور خرج من الحادث وفى ذهنه أن مصطفى كمال مشاغب يحسن ابعاده عن العاصمة ٠٠ ومن ثم أسند اليه قيادة الجيش السادس عشر المرابط فى القوقاز ٠٠ ثم نقله الى قيادة الجيش الثانى فى « ديار بكر » ٠٠ مبالغة فى ذلك الابعاد المطلوب !

كان يمتد من العاصمة خط حديدى مفرد ينتهى عنـــد ملتقى الخطوط فى « أنقرة » ، على بعـــد ثلاثمائة كيلومتر منها ٠٠ ومن هناك ركب مصطفى كمال جوادا ، ثم عربة ، فسيارة ، قطع بها جميعا مسافة الكيلومترات الســـتمائة الباقية التى تفصله عن جبهة القوقاز

وكانت الرحلة طويلة شاقة ، والطرقات غير ممهدة ، لم تتناولها يد الاصلاح منذ سنوات !٠٠ ولم تكن أنقرة ذاتها الا بلدة ريفية صغيرة تقع فى بقعة مرتفعة داخل البلاد ٠٠ ووراءها الى الشرق اقليم جبلى صخرى كبير ، موحش قاحل كئيب ، يكاد يكون غير مأهول بالسكان الا فى بضعة أودية

خصيبة تتخلله ، طقسها شديد القيظ فى الصيف ، قارس البرد فى الشتاء !

وقد وجد مصطفى كمال القوات التركية فى القوقاز فى حالة فوضى تامة ٠ فان أنور كان قد أعد فى العام السابق خطة ـ من خططه الضخمة ـ أراد بها أن يلتف بجيشه حول جناح الجيوش الروســـية ، وهنـــاك يضرب خط تراجعهم ويضطرهم الى العودة من حيث أتوا عبر القوقاز٠ وكان قد حشد لهذا الغرض جيشا جرارا وجاء بنفسه خصيصا من العاصمة كى يتولى قيادته !٠٠ والواقع أن خطته كانت من الناحية النظرية رائعة ، لكنه كان قد تجـاهل التفصيلات العملية العديدة مثل عاملى المسافة والطقس ، فكانت النتيجة أن دهمت القوات التركية ، فى الممرات الجبلية ، أعاصـــير يناير الرهيبـــة ٠٠ فلم يعد من المائة ألف مقاتل الذين ذهبوا الى هناك سوى اثنى عشر ألفا من الاتراك تجمدوا من البرد بعد أن التصقوا ببعضهم بعضا التماســا للدفء ! ٠ وهؤلاء هم جنود فرق الأناضول ، زهرة الجيش التركى !

ومنذ ذلك اليوم أهملت جبهة القوقاز ، نظرا الى شـــدة احتياج جبهة الدردنيل الى كل رجل وكل سلاح ٠٠ فتقدم الروس ببطء ولكن بانتظام ، وأقاموا أثناء تقدمهم القناطر وأنشأوا الطرق ومدوا الخطوط الحديدية ، موطدين أقدامهم فى كل منطقة يظفرون بهـــا ٠٠ وكانوا قد ظفروا بمدن : فان ، وبطليس ، و موش ، ثم قلعة أرضروم الشهيرة ٠ على أن مجهـــودهم الرئيسى كان مركزا مع ذلك فى جبهتهم الالمانية ٠٠ وكانوا حين وصل مصطفى كمال يعدون هجوما هائلا للتوغل فى قلب تركيـــا ٠٠ وقد جاء قائدهم العـــام « الغراندوق نيقولا » ليتفقد بنفسه الحالة العامة فى الجبهة!

ولمس مصطفى كمال ضعف قوة المقـــاومة عنـــد قواته

التركية ، اذ كان ينقصها كل شىء من الطعــــام والذخائر والأسلحة ، وكانت ثياب الجنود قد غدت أسمالا مهلهلة ، كما كانت كل مواد تموينهم تختلس وتنهب . فمتعهــــدو الجيش يرشـــــون الضباط الذين بيـــدهم الأمر والنهى ويشاركونهم أرباح الصفقات ، فأثرى الفريقان من هـــذه السرقات على حساب تموين الجيش !. وكذلك كانت الخدمات الطبية على أسوأ حال .. فالجنـــود يموتون بالالوف تأثرا بالدوسنطاريا والتيفوس وغيرها من الامراض فضـــلا عن موت الكثيرين منهم تأثرا بالبرد والجوع !

كل ذلك كان فى نظر مصطفى كمال دليلا جـديدا آخر على العجز الخطير فى كفاية أنور منافسه الدعى الأخرق . وقد زاد فى حنقه عليه أنه ألقى عليه عبء تطهير هذه التركة المثقلة ، لكنه عكف من فوره على أداء مهمته الجديدة بهمته ونشاطه الخارقين ، اذ لم يكن هنـــاك متسع من الوقت ، وقدر ، بعد دراسة الاحوال والاحتمالات، أن الروس سوف يهجمون فى أواخر ربيع ســـنة ١٩١٧ ، وانه ما لم ينقذ ما يمكن انقاذه فورا ويبادر الى اتخاذ اجراءات حاسمة فانهم سوف يخترقون الخطوط التركية دون صعوبة !

ومن ثم أبرق فى الحال الى وزارة الحرب فى العاصـــمة يصف الحالة العامة ويبين خطر الاستمرار فى سياسة اهمال هـذه الجبهة ، ثم أردف ذلك بطلب الاسراع فى نجـــدته بالامدادات اللازمة والذخيرة والدواء والرجال ... فلما لم يتلق ردا أرسل الى أنور رأســا فى وزارة الحرب برقيـــة تنطوى صيغتها على التحـــدى والفظاظة .. لكنه لم يتلق ردا هذه المرة أيضا !..

لقد كانت جبهة القوقاز بعيدة عن أنظار القوم فى العاصمة وكان أنور ورجال هيئة أركان الحرب مشـــغولين بخططهم وتدابيرهم فى شأن أمور أخرى !

وازداد مصطفى كمال حنقا وسـخطا على أنور ومعاونيه من الالمان ، لكنه برغم ذلك استمر فى العمل جهد طاقتـه لتنظيم قواته واستخدام القليل من العتـاد والادوات التى تحت يده أحسن استخدام .. وبدأ بحملة تطهير شـملت اللصوص من الضـــباط والموردين ، فأنزل بهم عقوبات صارمة ليس فيها شىء من الرحمة أو اللين ، وحينما جرؤ بعضهم ـ ممن أخطأوا فهم أخلاقه ـ على عرض الرشوة عليه بأن يشاركهم أعمال السلب والنهب كان جوابه أن شنقهم وأمر بجلد كل من تثبت عليه تهمة مخلة بالنزاهة..كما كان صارما فى معاملته للكسالى والعاجزين .. وهكذا نجح الى حد يثير الاعجـاب فى اعادة تنظيم فرق الجيش التى تحت قيادته ، وادارات التموين والخدمات الطبية ، وعمـل بغير توقف على بث روح جديدة فى صفوف المحاربين !

وكان يعاونه ضـابط ذكى نشط هو الاميرالاى عصمت رئيس أركان حربه ، وينوب عنه فى القيادة عند الاقتضاء قائد يدعى الجنرال كاظم قره بكير .. وكان عصمت ضابطا كفؤا مجربا ، صغير الجسم شاحب اللون لكنه قوى البنية أنيق المظهر ، ذو رأس صـــغير وأنف كبير مقوس ، وكان هادئا صـــموتا ، به شىء من الصمم فى ســـمعه ، متزن الشخصية ، صبورا مثابرا الى أقصى حد ، خبيرا بالاعمال المكتبية وتصريف الأمور اليومية «الروتين» وتنفيذ الأوامر الى ذلك بما جعله موضع تقدير مصطفى كمال

اما كاظم قره بكير فكان ضخم الجســم ، بطىء العقل ، لكنه كان مخلصا مجتهدا كفؤا محبوبا من مرؤوسيه.وكان مثل عصمت نزيها أمينا الى حد التزمت ، وقد قبل كلاهما مصطفى كمال رئيسا له وتعاونا معه تعاونا رائعا .. غير الا برغم جميع الجهود والمحاولات التى بذلها هو ومعاونوه

ما لبث ان ادرك عند حلول الربيع أن هجوم الروس المنتظر لن يجد أمامه مقاومة مجدية !

ومرة أخرى أسعف الحظ مصطفى كمال ٠٠ فقد تغيرت الاحوال ، فاختمرت الثورة فى روسيا ، وأفسد التمرد والتذمر قواتها الحربية ، فساء النظام فيها واضطربت الأمور ٠٠ فبدأ الجنود يفرون من ثكناتهم وشاعت بينهم روح الهزيمة ، فاستدعى الغراندوق نيقولا الى موسكو وأجل هجوم الربيع الى أجل غير مسمى !

وفى خلال أشهر الربيع والصيف ـ من عام ١٩١٧ ـ فعل الانحلال فعله فى الجيوش الروسية ، فانهارت وتداعت وصارت كهشيم تذروه الرياح ٠ وهنا انتهز مصطفى كمال الفرصة فهجم بقواته ، لكنه لم يستطع التقدم الا فى بطء ، نظرا الى ما كانت عليه هذه القوات من ضعف وافتقار الى العتاد٠٠فضلا عما أبدته قوات ارمينيا وجورجيا المحلية التى نظمها الروس من مقاومة شديدة للدفاع عن أرضها الخاصة ، وأخيرا ٠٠ تم له احتلال : « فان »٠٠و «بيطليس» ٠٠ و « موش » ٠٠ ثم واصل تقدمه نحو باطوم !

٠ وزال خطر الروس فى تلك الجبهة ، فقد تبددت جيوشهم واكتسحت ٠٠ ولكن الجبهة الجنوبية برز فيها خطر جديد ، فقد راح الانجليز يعدون العدة لشن هجوم من طريق سوريا، وجاءت الأوامر العاجلة من العاصمة ـ القسطنطينية ـ بندب مصطفى كمال لتولى القيادة فى الجبهة السورية ، وبارسال كل جندى وكل سلاح يمكن الاستغناء عنه الى تلك الجبهة ٠٠ فعهد مصطفى كمال الى نائبه كاظم فى أن يخلفه فى اتمام تطهير جبهة القوقاز ، وهرع هو الى العاصمة ومنها الى سوريا

فى سوريا والمانيا

كان الانجليز قد غزوا ـ بجيش من الهند ـ بغداد عاصمة العراق ، واستأنفوا زحفهم نحو الموصل. وفى الوقت نفسه اخذوا يعدون جيشا آخر فى مصر كى يهاجموا به فلسطين وسوريا .. فكان لا بد من وقف تقدمهم واسترداد بغداد من ايديهم !

وارسل الألمان ـ بناء على طلب عاجل من انور ـ الجنرال (فون فالكنهاين) لينظم قوات جديدة أطلقوا عليها فيما بعد اسم (الصاعقة) . وجعلوا مقر قيادتها العليا بلدة (حلب) ، على ان تدعم بعدد كبير من الضباط والجنود الألمان

وارسل مصطفى كمال الى حيث تولى قيادة الجيش السابع ، ولكنه لم يقنع بذلك المنصب واحتج بقوة على السيطرة الألمانية !

لقد عرف من قبل كيف يتعاون مع رئيسه الألمانى السابق (ليمان فون ساندرز) ، ولكنه لم يستطع أن يهضم رئيسه الجديد (فالكنهاين) ، كما عجز هذا عن فهم شخصية مصطفى كمال القائد الكفء العنيد المعتد برأيه ، فلما فشل فى استمالته اليه اقدم على كبرى حماقاته فأرسل الى مصطفى كمال « هدية » هى صندوق من العملة الذهبية .. فأرسل اليه مصطفى كمال ، ردا على ذلك ، ايصالا يثبت تسلمه الذهب ، ثم اعاد اليه ذهبه فيما بعد واسترد ايصاله ..!

وفى اول اجتماع لهيئة القيادة العليا فى « حلب » التقى انور وجمال ـ وكانا يتوليان قيادة الجيش الرابع ـ بمصطفى كمال وفالكنهاين وعدد من كبار القواد الألمان .. وانتقد مصطفى كمال بشدة كل خطط فالكنهاين ، وبخاصة خطته التى كان معتزا بها وهدف بها الى مهاجمة بغداد برا ومهاجمة قناة السويس جوا .. فقد كان مصطفى كمال

مقتنعا بأن مصير الهجوم الى الفشل الذريع .. لكن الالمان لم يلقوا بالا الى اعتراضاته وانتقاداته ولم يظاهره على رايه هذا سوى جمال ، الذى كان يحاكيه فى نفوره من الألمان !

ثم توالت اسباب الخلاف بين الفريقين وازدادت حدة ، حتى لم يجد مصطفى كمال بدا من تقديم استقالتــه من القيادة الموكولة اليه .. وحاول انور وفالـكنهاين اقنــاعه بسحب استقالته ، لكنه رفض بل ذهب الى ابعد من ذلك فعين خلفه واصدر امرا بذلك الى الجيش !

واراد فالكنهاين ان يحقق معه بتهمة العصيان والتمرد ، لكن أنور حال دون ذلك وامر بعودته الى مقر قيادته القديمة فى ديار بكر . فلما رفض مصطفى هذا الحل راى انور ــ لكى يحافظ على كرامته وعلى النظام ــ منحه اجازة مرضية الى أجل غير مسمى !

ونفدت نقود مصطفى ، فأعطاه جمال مبلغا من المال فى مقابل ارتهان جياده ، واذ ذاك استقل مصطفى كمال القطار الى القسطنطينية ، وقد اقترب الخلاف بينه وبين أنور من مرحلته الحاسمــة ، اذ ادرك هو أن موقفه سليم من كل شائبــة ، بينمــا انور لم يكن واثقا من قوة مركزه ، وكان الشعور العام ضد الألمان وضده يزداد . وفى الوقت نفسه كان مصطفى كمال قد صار ضابطا كبيرا ذا شأن وصيت ذائع ، بحيث لو اتخذ انور اى اجراء لاتهامه بالعصيان بسبب رفضه الخدمة تحت سيطرة الألمان لأثار عمله هــذا عاصفة شعبية وخلق من مصطفى كمال بطلا وطنيا ..!

وعاش مصطفى كمال فى العاصمة مع امه واخته فى المنزل رقم ٧٦ بشارع « اكارتلر » فى ضاحية « باش قطاش » ، القائمة فوق التلال الواقعة خلف المدينة ، لكنه ــ كعادته ــ وجد الحياة العائلية ثقيلة لا تحتمل . كما كانت القيود التى

لا بد منها تثيره وتسخطه ، فهو يكره ان يرى النساء ملتفات حوله دائما ، يثرثرن وينصحن وينتقدن ، بل ويعنين بأمره ويتدخلن فى شؤونه .. وانما كان يريد النساء فقط من اجل المتعة العابرة ، لا الرفيقة الدائمة .. ففى جميع الشؤون ، حتى فى ادق دقائق حياته وتفصيلاتها ، كان يبغى ان يكون حرا من كل قيد !

ومن ثم استأجر لنفسه حجرة فى فندق « بيرا بالاس » المطل على القرن الذهبى واستامبول .. وهناك عاش منفردا ساخطا منطويا على نفسه .. .. وان لم يدع فرصة تمر دون ان يجاهر برايه فى وجوب مهاجمة انور والســيطرة الألمانية !

وبدا بعض الضباط والساسة الذين كانوا يعارضون انور يلتفون حول مصطفى كمال .. حتى غدا من الخطر ابقاء هذا القائد الثائر فى العاصمة عاطلا عن العمل !.. فلما تم الاتفاق فى ربيع سنة ١٩١٨ على ان يقوم الامير وحيد الدين ولى العهد بزيارة رسمية لألمانيا .. الحق انور مصطفى كمــال بحاشية الامير المرافقة له فى هذه الزيارة . وذلك للتخلص مؤقتا من وجوده فى العاصمة .. فضلا عن اتاحة الفرصة له كى يرى آلة الحرب الالمانية وهى تعمل لعله يقتنع بقوة المانيا وانتصارها فى الحرب ..!

وقبل مصطفى كمال المهمة التى أسندت اليه كى ينجو من التعطل الذى عاناه طيلة ثلاثة اشهر ، وكان بقاؤه بلا عمل اقل الوان العذاب على نفسه ولا سيما انه لم ير فى الأفق بوادر « تغيير » قريب برغم امتلاء العاصمة ــ كالعادة ــ بالمؤامرات والدسائس .. ذلك ان القائمين بها نكرات ضئيلو النفوذ والشخصية ، ومن رجال الطبقة الثانية ، ومن ثم حرص على أن ينأى بنفسه عنهم .. وكان أنور بفضــل

سيطرة آلة الحرب ، مستوليا على مقاليـد الامور بقوة وحزم !

ومن جهة اخرى راق لمصطفى كمال ان يرى الجبهة الألمانية ويلتقى بكبار ضباط القيادة العليا هناك . وقد ندم فى البداية على قبوله السفر .. وقبيل حلول موعده بيومين توجه الى قصر ولى العهد لتقديمه له رسميا ، وهناك جلس فى انتظار الاذن فى المقابلة على مقعد غير مريح فى حجرة مزركشة الجدران بأفخر انواع السجاد ، بينما وقف رجال القصر حوله فى أرديتهم الرسمية يتهامسون !

ودخل وحيد الدين .. وكان رجلا هزيلا كثيف شعر الجسم ، ذا رقبة طويلة ووجه يبدو عليه الضعف ، يرتدى مجموعة من ثياب الصباح لا تلائم جسمه .. وجلس على اريكة مزدحمة بالوسائد والرياش ، وبعد ان تقبل تحيات رجال حاشيته اغمض عينيه ثم فتحهما مرتين بعد مجهود ، وابدى ملاحظتين تافهتين ، ثم عاد يغالب النعاس .. فأدرك مصطفى كمال أنه ابله !

وفى موعد السفر وصل الامير الى المحطة فى ثيابه المدنية ومر يستعرض قره قول الشرف وهو يرفع يديه الى جبهته بالتحية على الطريقة الشرقية ، فلم تهضم عقلية مصطفى كمال العسكرية هذه الحركة واحتج عليها لدى مدير ادارة المراسم « البروتوكول » فأسكته هذا طالبا منه الا يتدخل فيما لا يعنيه !.. ثم تبين أن رتبته العسكرية ومرتبه قد خفضا ، وأن المكان الذى خصص له يقع فى العربة الاخيرة من القطار ، مع أمتعة ومهمات بقية الركاب ، فلما شكا من ذلك لم يأبه لشكواه احد !.. وعومل كضابط صغير ، وأثار غضبه أن يحف به كل هؤلاء القوم من حثالة موظفى القصر ، بمسلكهم المنافى للياقة وتملقهم لمن هم اكبر منهم وفظاظتهم

مع من يصغرونهم فى المقام !.. وحين وقف يرقب الامير ، بوجهه النحيل وعينيه الغبيتين ، مطلا من احدى النوافذ يتقبل فى اعياء هتافات الجماهير عنـد بدء تحرك القطار ، أدركه الندم على حماقته التى جعلته يقبل مثل هذه المهمة ... فقد آلمه — وهو التركى الفخور بتركيته — أن يرى بلاده تمثل فى أوربا بواسطة بعثة يرأسها مثل هـذا الامير العاجز الأبله ..!

على ان القطار لم يكد يعبر الحدود التركيـة حتى جاءه ساع يحمل اليه أمرا بأن يذهب ليقابل ولى العهد فى عربته ! فمضى مصطفى كمال عبر الممر الطويل ثائر النفس منفعلا ، وحين دخل العربة السلطانية أذهله ان يجد الأبله الغبى الذى رآه فى القصر قد اختفى ، وحل مكانه رجـل يقظ موفور الانتباه ينظر اليه بعينين ذكيتين ثاقبتين !

كان وحيد الدين قد عاش ستين عاما فى القصر تحت حكم السلطان عبد الحميد ، الذى كان قد أعجب به ودربه احسن تدريب ، لكنه لم يكف عن مراقبتـه طيلة الوقت بواسطة عيونه وأرصاده ، فعاش الامير كل ذلك الزمن فى خطر دائم . كان يكفى أن تفلت منه هفوة واحدة أو اشارة تنم عن طموحه أو اهتمامه بالسياسة أو العالم الخارجى ، فسرعان ما يختفى من الوجود ، أو يزج به فى غياهب السجون !.. ومن ثم عمد الى اتخاذ ذلك المظهر التنكرى الخادع ، مظهر الأبله الواقع تحت تأثير مخدر أو منوم !.. بينما كان فى الواقع يخفى وراء هذا المظهر فكرا ثاقبا وعقلا ذكيا ..!

وكان مطمعه وهدفه ان يصير سلطانا .. بينما أراد انور وطلعت وبقية اعضاء اللجنة العليا ان يتجاوزوه الى ابن أخيـه عبد المجيد ، وعلم هو بذلك فكان من الحذر والمكر معهما ومع الجواسيس الذين أحاطوه بهما مثلمـا كان مع

السلطان !.. ومن ثم حرص فى العاصمة على ان يعامل مصطفى كمال بالاهمال والازدراء اللذين يقتضيهما الحذر.. اما الآن فها هو ذا يحييه فى حرارة ويعتذر اليـه بانه لم يستطع التبسط معه فى الفرصة السابقة .. ثم هنأه على نجاحه وانتصاراته كقائد حربى ، وبهذا الاطراء المستحب ارضى غرور مصطفى بحيث أزال استياءه واثلج صدره من فوره ..!

وسرعان ما صار الاثنان صديقين حميمين ، وغدا مصطفى خدن الأمير وامين سره . وكان كلاهما يكره أنور وطلعت ، فانفقا فترة الرحلة كلها فى احاديث تسودها روح الثقـة والتفاهم المتبادل !

ورأى مصطفى كمال فى ذلك فرصـــته المرتقبـــة .. فالسلطان الحالى رجل مريض ولا يمكن ان يعيش طويلا .. ووحيد الدين ضعيف هزيل لن يعمر .. وهكذا يستطيع هو ان يرقى العرش بعد زمن وجيز ، فيغدو سلطانا وقائدا عاما فى الوقت ذاته !.. واذن فيجب ان يوطد نفوذه وتأثيره على وحيد الدين ، كى يصبح القوة المحركة لصاحب العرش المقبل ، ومن هذا الطريق يرتقى الى القمة ويستأثر بالسلطة التى يريدها !.. واول شىء ينبغى ان يفعله هو ان يقنع وحيد الدين بأن المانيا لا تستطيع ان تكسب الحرب ، وان التحالف معها حماقة جنونية ، وان انور ومن يظـاهره من الالمان يجب ان ينحوا عن الحكم !

وبقى خلال رحلته فى ركاب ولى العهد بالمانيا لا يكف عن ابداء انتقاده لكل ما لم يعجبه فى حرية تامة .. واستقبلهما الفيلد مارشال « هندنبرج » فى مقر القيادة الالمانية العليا ، وعرض امامهما فى لهجة المتفائل تفصيلات الموقف فى جميع الجبهات ــ ومن بينها الجبهة السورية ــ فلما خرجا من عنده صارح مصطفى كمال ولى العهد بأن اكثر ما قاله القـائد

الالمانى وهم وخداع ، وبانه هو نفسه يعرف من حقائق الموقف فى الجبهة السورية ما ينقض كلام هندنبرج !

ولم يستطع مصطفى اخفاء كراهيته للألمان ، وزهوه البالغ بتركيته ، وايمانه بتركيا والأتراك .

وكلما اقتربت الجولة من نهايتها ازداد مصطفى كمال سعيا الى هدفه .. واخيرا سأل الامير ذات يوم ــ وكانا فى فندق « ادلون » ببرلين ــ ان يسمح له بأن يكون صريحا معه .. فلما اذن له فى ذلك اردف قائلا : « اريد ان اقترح شيئا من شأنه ــ اذا وافقت عليه ــ ان يربط حياتى الى حياتك »

وعندئذ اومأ اليه ولى العهد كى يستطرد ، فقال : « ارى ان تطلب من الالمان ان يعهدوا اليك فى قيادة جيش من جيوش تركيا .. ان جميع الأمراء الألمان يقودون جيوشا فكيف لا يقود ولى عهد تركيا جيشا من جيوشها ؟ وانها لاهانة كبرى ان انور لم يقترح ذلك من قبل .. ومتى تم ذلك فانه يسعدنى ان تجعلنى سموك نائبا عنك فى القيادة ! »

فسأله وحيد الدين : « واى جيش تقترحه ؟ »

واذ ذاك اجابه مصطفى كمال : « الجيش الخامس » وكان يعلم ان هذا الجيش يقرر مصير العاصمة والمنطقة المحيطـة بها ، وسوف يكون العامل الحاسم فى اية ازمة سياسية !

فقال الأمير : « ولكنهم سيرفضون طلبى ! »

فقال له : « لا بأس !.. اظهر لهم انهم بازاء شخصـية يحسب حسابها ، وانهم لا يستطيعون تجاهل سموك ! »

فقال الأمير : « حسنا .. سـوف نتدبر الأمر ، عقب عودتنا الى العاصمة ! »

السلطان الجديد

بدأ مصطفى كمال خلال العودة من ألمانيا يرسم خطط
المستقبل ، وأصغى اليه الأمير وحيد الدين فى اهتمام .
لكنهما لم يكادا يبلغان العاصمة حتى سقط مصطفى فريسة
لمرض شديد ، فقد كان أثناء مقامه بصوفيا ، أصيب بمرض
خطير أهمل علاجه فلم يشف منه تماما ، ثم أرهق جسمه
وعقله فى خدماته العسكرية ، كما كان فى حياته الخاصة
يفرط فى الشراب ويمعن فى المجون ، فكانت النتيجة أن
أثر الداء فى كليتيه ، واضطر الى ملازمة الفراش شهرا
كاملا كان خلاله فريسة لآلام مروعة ، ثم أشار عليه الاطباء
بالاستشفاء فى فيينا وكارلسباد !

وكانت تصحب الداء نوبات انقباض وكآبة انحدرت به
الى مهاوى اليأس وأفقدته النشاط والمبالاة بأى شىء ، ومن
هنا تلقى فى كثير من الفتور نبأ موت السلطان فى شهر
يوليو وتولى وحيد الدين عرش تركيا والخلافة بعده . ولم
يغره هذا النبأ بالمسارعة الى البلاد لاستئناف عمله فى العهد
الجديد !

وتلقى من العاصمة رسائل عدة نصح له فيها كاتبوها
بأن يعجل بالعودة ، وذكروا أن السلطان قد اتخذ عزت
باشا عدو جماعة «الاتحاد والترقى» مستشارا له ، وانتزع
من أنور لقب « نائب الجنرال » . كما بدأ يكشر عن أنيابه
لكل زعماء الاصلاح . على أن مصطفى كمال — برغم كل
هذا — لم يجد فى نفسه أية رغبة فى اتخاذ خطوة ايجابية،
واكتفى بأن أرسل الى السلطان الجديد كتاب تهنئة !

لكن رسائل أصدقائه توالت عليه ، كما تلقى خطابا من
عزت باشا ناشده فيه أن يعود للعاصمة التركية . وازاء
ذلك لم يسعه الا أن يتحامل على نفسه ويعود للقسطنطينية

برغم مرضه الشديد ، فوصل اليها محطما مهدود القوى ،
اذ أصيب فى الطريق بأنفلونزا حادة ، وكانت الانفلونزا
فى ذلك الوقت أشبه بطاعون مخيف يكتسح أوربا ويقتل
الآف الضحايا كل يوم !

على أن مصطفى كمال كان بطبعه قوى الاعصاب الى أقصى
حد ، بل كان نشاطه العصبى هو القوة الكبرى المحركة له،
فلما وجد نفسه مرة أخرى فى القسطنطينية ، بين أعدائه
وأصدقائه ، أمدته أعصابه بقوة أفادت صحته العامة ،
وجددت آماله القديمة ، فقرر الشروع فى تنفيذ الخطط التى
رسمها بالاتفاق مع السلطان الجديد الحاكم بأمره منذ كان
معه فى ألمانيا وهو بعد ولى للعهد !

واستقبله السلطان الجديد بكل مظاهر الود والترحيب
.. بل ذهب وحيد الدين الى حد أن أشعل له سيجارته
بيده ، وهى عادة لها فى التقاليد التركية دلالة الاكرام
والتبجيل ، الأمر الذى شجع مصطفى كمال على أن يصارحه
بآرائه فى حرية تامة .. فشرح له خطته القديمة مؤكدا أن
الدمار الذى يهدد البلاد قد صار قاب قوسين أو أدنى ،
واذن ينبغى أن يتولى السلطان بنفسه السيطرة التامة على
الجيش ، وأن يجرد أنور والقواد الالمان من كل سلطة، ليكون
الأمر له حقا ولا يكون سلطانا بالاسم فقط كما يريدون .
ثم عاد مصطفى كمال فأكد استعداده لأن يضطلع بأعباء
القيادة العامة ، وبذلك ينقذ تركيا من الهاوية التى ستتردى
فيها .. نعم عليه أن يتحرر من التحالف الالمانى ويعقد
صلحا منفردا على الفور ، قبل أن تفوت الفرصة الملائمة..!

وسأله وحيد الدين : « هل هناك ضباط آخرون
يشاطرونك هذا الرأى ؟ » ، فأجابه مصطفى : « هناك
كثيرون يا مولاى ! »

لكن وحيد الدين لم يعد بأى شىء ..وفى المقابلة التالية

لم يتقدم مصطفى كمال نحو غايته خطوة تذكر ، لكنه فى المقابلة الثالثة عاد الى شرح وجهة نظره .. وكان يتكلم بلهجةالتوكيد ، فقد رأىأحلامه القديمة العريضة فىمتناول يده ، وليس ينقصه الا أن يفلح فى التأثير على السلطان فيقفز الى القمة فورا ويستأثر بالسلطة التى طالما تحلب لعابه عليها .. ويطرد أنور ـ منافسه اللعين ـ وكل عصبته ..!

واحتد مصطفى فى كلامه ، محاولا اقناع مولاه ، واذ بدا السلطان يجيبه تناسى مصطفى آداب اللياقة واستمر فى كلامه حتى طغى صوته على صوت السلطان .. فلما فرغ منقوله انبرى له وحيد الدين قائلا فىلهجة الحزموالتوكيد: « لقد نظمت كل أمورى بالاشتراك مع صاحبى السعادة أنور باشا وطلعت باشا » . ثم صرفه منحضرته على الفور!

والواقع أن أنور كان قد هدد السلطان ، فاستشار وحيد الدين صهره وصفيه فريد باشا ، وأقنعه هذا بأنه ليس من القوة بحيث يتصدى لمحاربة أنور وجمعية الاتحاد والترقى ، وبأن مصطفى كمال ليس له أتباع يذكرون .. ومن ثم فالحيطة تقتضيه أن يحذر فلا يخاطر بعرشه ..!

وهكذا أهمل السلطان الجديد مصطفى كمال أيضا،فزاده ذلك غضبا وحنقا على أنور ، وبدا أن قد فشلت جميعخطط القائد المغامر وتبددت كل أحلامه .. ولم يكن فى وسعهأن يفعل شيئا عاجلا لمقاومة تيار القوى المناوئة له ، فانطوى على نفسه وقرر أن ينتظر ما تأتى به الايام ..!

أما أنور فقرر من جانبه أن يتجنب كل خطر جديد من جهة مصطفى كمال ، فقرر ابعاده عن العاصمة بأسرع ما يمكن .. ولم يمض أسبوعان حتى دعا السلطان اليه مصطفى كمال ، ووجده هذا بين أفراد حاشيته وبعض

القواد الالمان !.. وبعد أن استقبله محتفيا مرحبا،خاطبهم قائلا : « هذا هو مصطفى كمال باشا ، وهو من أكفأ الضباط الذين أثق فيهم ! » .. ثم استدار الى مصطفى وقال له : «لقد عينتك ياصاحبالسعادة قائدا لجبهةسوريا، وهى ذات أهمية قصوى .. وأنا أريدك أن تذهب اليها فى الحال ، وألا تدعها تقع فى أيدى العدو !. وأنا أعلم أنك ستؤدى المهمة التى أعهد فيها اليك على خير الوجوه وأقربها الى الكمال ! » . ثم صرفه من حضرته على أثر ذلك من غير أن يترك له أية فرصة للكلام !

وفيما كان مصطفى كمال يعبر الحجرة المجاورة لمكتب السلطان التقى وجها لوجه بغريمه أنور !.. فأدرك أنه المحرك الذى أغرى السلطان باتخاذ هذا القرار ، وبعد أن لبث برهة واقفا ينظر اليه .. قال له : « مرحى يا أنور مرحى !. انى أهنئك ، لقد انتصرت !.. ان المعلومات التى عندى تقرر أن جيش سوريا لا يوجد الا على الورق ، فبارسالك اياى الى هناك قد انتقمت لنفسك أعظم انتقام!»

ووقف الخصمان متواجهين : أنور بجسمه الضئيل النشط ، المغطى بالاوسمةوالنياشين ووجهه الصبيانى الضاحك المرح ، وشخصيته الظريفة الشجاعة ..ومصطفى كمال بقوامه الطويل ووجهه الاغبر الداكن ، وشخصيته المشاكسة النكدة ، وحاجبيه المقوسين فوق عينيه المليئتين بالغضب !

وفى تلك اللحظة قال قائد ألمانى كان فى ركن الحجرة بصوت مسموع : « لم يعد فى الوسع عمل شىء للجيوش التركية .. انها قطيع ماشية لا تعرف غير الهرب..ولست أحسد أى شخص يتولى قيادتهم ! »

واذ ذاك اندفع مصطفى غاضبا نحو القائد الالمانى وقال له وقد اشتعلت عيناه غضبا وانتفض جسمه كله : « أنا

أيضا جندى ، وقد توليت القيادة فى هـــذا الجيش • ان الجندى التركى لا يهرب أبدا ، وهو لا يعرف معنى التراجع •• فاذا كنت قد رأيت ظهور الجنــود الاتراك يا ســـيدى الجنرال فلابد أنك رأيتها أثناء فرارك أنت ذاتك •• كيف تجرؤ أن توبخ الجندى التركى من أجل جبنك أنت ؟! »

وجلجل صوته فىأركان الحجرة وسط الصمت المطبق •• وما لبث أن عبر الحجرة ، مارا بأنور ، الى خارج القصر !

هزيمة تركيا

وصل مصطفى كمال الى مقر قيادته فى الجبهة السورية فى أواخر أغسطس ، فقدم نفسه الى القائد العـــام الالمانى « ليمان فون ساندرز » ـ وكان فالكنهاين قد عاد الى ألمانيا فى الربيع ـ فأبدى فون ساندرز سروره بالتعاون من جديد مع مصطفى كمال ، وقام معه بجولة فى أنحاء الجبهة كلها ، حيث كان الاتراك قد حفروا خنادقهم على طول الجبهـــة من الغرب الى الشرق عبر فلسطين ، ابتداء من نقطة تقع عـــلى عشرة أميال الى الشمال من يافا ، ثم بمحاذاة الشاطىء على طول السهل الفسيح ، فتلال « اليهودية » ، فنهر الاردن ، الى سكة حديد الحجاز ، فالصحراء !

وتسلم مصطفى كمال قيـادة الجيش « الســـابع » من الجنرال فوزى ، الذى نقل الى القسطنطينية رئيســـا لهيئة أركان الحرب •• وكان الجيش الســابع يسيطر على القطاع الأوســـط من خط الدفاع التركى ، ويتألف من فرقتين تعسكران فى الخنادق ، يرأس احداهما الاميرالاى عصـــمت والثانية الاميرالاى على فؤاد • والى اليمين كان الجيش الثامن والفرقة الثانية والعشرون بقيادة الاميرالاى رفعت يدافعان عن الخط الممتد الى شاطىء البحر •• والى اليسار كان الجيش الرابع يحمى سكة حديد الحجاز !

ووجد مصطفى كمال حالة القوات التركيـــة فى الجبهة أسوأ كثيرا من حالها فى القوقاز !•• كان الجنـــود مهلهلى الثياب ، تعيث فى أجسادهم الحشرات والهوام ، وينقصهم الطعام بل ينقصهم الماء فى كثير من الاحيان••كانوا يموتون بالالوف من الدوسنطاريا والجوع تحت شمس الصـــحراء المحرقة المروعة !• وكانت روحهم المعنوية قد انهارت تماما، لم تعد تبقيهم فى خنادقهم غير القوة ، ممثلة فى داوريات من حملة المدافع الرشاشة يطوفون بأنحاء الجبهة فى سيارات نقل كبيرة ولديهم أوامر باطلاق النار على كل من يجـدونه خارج الخنادق • ومع ذلك كان عدد الفارين يزيد على عـــدد الباقين !

وكان الانجليز قد اتخذوا لأنفسهم خطا للقتال يقع فى مواجهة خط الاتراك •• وكان واضحا أنهم يعدون العـــدة للقيام بهجوم كبير ، وأنهم متفوقون تفوقا كبيرا فى العدد والعدة ، وفى الحماسة ، والروح المعنوية ، وهذا عدا تفوقهم فى التنظيم والتموين والخدمات الطبية •• وبما لديهم من المخازن الواسعة المملوءة بالذخيرة ، والمدفعيـــة الوافرة ، والطائرات العديدة ، والمواصـــلات الميكانيكية المنظمة ••• بينما لم يكن عند الاتراك ســـوى ثمانى طائرات ومدفعين مضادين للطائرات !

وكان العرب بزعامة الأميرفيصل بن الحسين ملك الحجاز، قد انضموا الى الانجليز •• وأقبلوا يشنون الغارات المتوالية فى الصحراء ـ بقيادة صديقهم الانجليزى « ت•ا•لورنس » ـ فيقطعون السكك الحديدية وخطوط التليفون والتلغراف وينسفون الكبارى ويأسرون القوافل ويهددون المواصلات ، ويخلقون بين قوات الاتراك شعورا بعدم الأمان ••ويثيرون الاهالى الوطنيـــين فى ســـوريا كى يرفعوا راية التمرد والعصيان ••!

ومرة أخرى انهمك مصطفى كمال فى عمله بحماسته المعهودة ، باذلا أقصى جهده فى سبيل تحويل الفوضى والاضطراب الى شيء من النظام ٠٠ لكن مرض كليتيه لم يلبث أن عاوده بشدة فألجأه الى أن يلازم فراشه فى مركز قيادته فى « نابلس » ، بلا حول ولا طول ، فى الوقت الذى أجمعت فيه كل التقارير السرية التى وردت عليه فى ذينك الاسبوعين الاولين من سبتمبر سنة ١٩١٨ على أن الانجليز يتأهبون لشن هجومهم الحاسم !

وفى ١٧ سبتمبر أقبل على خطوط الجيش الثانى والعشرين أمباشى هندى هارب من الجيش الانجليزى ، وأبلغ المسئولين أن الهجوم الكبير الذى يتأهب له الانجليز سوف يحدث فى يوم ١٩ ٠٠ فنقل رفعت النبأ الى مصطفى كمال ، وأكد صحته القائدان عصمت وعلى فؤاد ٠ وكان رفعت قد قضى ثلاثة أعوام فى محاربة الانجليز فى هذه الجبهة فعرف أساليبهم ، ثم أرسلت هذه المعلومات الى القائد الالمانى « ليمان فون ساندرز » بوصفه القائد العام، لكنه لم يوافقهم فى الرأى ، ورجح أن الأمباشى الهندى الذى جاء بالنبأ ليس الا جاسوسا عليهم ، وأما الهجوم فسوف يأتى بمحاذاة السكة الحديدية الى الشرق ٠ ومن ثم نقل أحسن قواته الى ذلك الاتجاه ٠٠ !

وبقى مصطفى كمال عند ترجيحه صدق رواية الهندى ، وعلى هذا لم يجد بدا من أن يتحامل على نفسه ، ويترك الفراش برغم الحمى التى كان مصابا بها ، وبرغم القيظ القاتل فى تلك الآونة ٠٠ ثم استعان بعزيمته لمواجهة الموقف ، واتصل بجميع مرؤوسيه ليكونوا على استعداد !

وفى منتصف ليلة ١٩ سبتمبر اتصل عصمت بزملائه بالتليفون ، وأخبرهم أن العدو بدأ يمهد للهجوم بحملة قوية من القنابل الثقيلة ٠ ثم بدأ الهجوم العام عند الفجر، فركز

الانجليز جهودهم فى جبهة الجيش الثامن ، واخترقوا الجناح الايمن لخط دفاع الاتراك ٠٠ ثم تقدموا نحو الساحل ، واكتسحوا الجيش الثانى والعشرين ، والجيش الثامن بأكمله، حتى كادوا يأسرون القائد العام الالمانى « ليمان فون ساندرز » ، ٠٠ ثم التفوا حول مؤخرة الاتراك وقطعوا الخط الرئيسى لتقهقرهم نحو الشمال ٠٠ !

وانسحب مصطفى كمال بجيشه جاعلا ظهره الى نهر الاردن بينما استمر فى القتال برغم أن جنوده كانوا قد ساد الذعر فى صفوفهم ٠٠ وكان الفضل لسيطرته الشخصية على من بقى منهم ، وفى اليوم الخامس تأهب لعبور النهر وبقى يشرف بنفسه على جميع التفصيلات والدقائق حتى عبرته كل قواته ثم تبعها الى الضفة الاخرى ٠ ولكن لم تمض دقائق حتى كرت عليهم فرقة الفرسان الانجليزية الحادية عشرة فقطعت الاتصال بينهم وبينه ، ونجا هو فى آخر لحظة !

وكان الجيش التركى الرابع ينسحب بمحاذاة السكة الحديدية ، فجمع مصطفى كمال فلول قوته ومضى بها نحو الصحراء !٠ لكن العدو هاجمه من الخلف والجناحين ، فحصدت مدافعه الرشاشة مؤخرة قواته مرتين ، وهاجمته طائرات الانجليز من أعلى فحصدت من حصدت ودمرت مواصلاته ومدفعيته بالقنابل والمدافع الرشاشة ٠٠ فامتلأت ساحة القتال بجماعات من الرجال المذعورين الذين ينشدون الفرار بأنفسهم تاركين أسلحتهم وذخائرهم وعرباتهم وماشيتهم فى اضطراب لاحد له ٠ وفى الوقت نفسه انقض عليهم العرب الذين يعملون مع « لورنس » فأعملوا فيهم الرصاص والسيوف !

وخلال ذلك كله ، ظل مصطفى كمال مسيطرا على طابوره الصغير الذى بقى له بفضل شخصيته الجبارة، وراح يستحث

المحيطين به على القتال ، مزودا اياهم بالشجاعة والحماسة حتى انسحب واياهم بمحاذاة الخط الحديدى الى دمشق فى سرعة أفقدت الانجليز كل اتصال به !

وفى دمشق تمهل قليلا ، وأمره « فون ساندرز » بأن ينشىء خطا دفاعيا جديدا فى «الرياق» ، فترك عصمت هناك ومضى لانجاز هذه المهمة ومعه على فؤاد حيث عكفا معه على العمل الشاق،ولكن فى تلك الآونة جاءت الانباء بأن الاهالى فى مدن الساحل استسلموا للانجليز وأعلنوا ترحيبهم بهم، وبأن بيروت سقطت فى أيديهم ، فأصبح أى خط ينشأ فى « الرياق » مهددا بتطويق الجناحين من الأعداء !

وأخذ مصطفى كمال يفكر فى الأمر فرأى أن الانحلال المعنوى قد شمل جميع القوات ، حتى الضباط الذين من رتب عالية باتوا ينشدون الفرار ، وقد باءت بالفشل كل محاولاته فى سبيل وضع حد لحالة الذعر السائدة . وحدث أن لمح قائد الجيش الرابع أثناء فراره فأوقفه وقال له : « أنت تستحق أن تشنق ، لكنى سأمنحك فرصة أخرى ، فهيا ضع نفسك تحت تصرف على فؤاد فى (الرياق)..وكفر عن فرارك ! » .. فحياه القائد وانصرف ، وفى الصباح التالى كان قد فر من جديد فلم يقف له أحد على أثر !

وازاء هذه الحالة التى سادت صفوف ضباط القيادة العليا أنفسهم ، وجد مصطفى كمال ألا فائدة من أن يأمر باعدام الجنود أو صغار الضباط الفارين !.. وأدرك أن تنظيم الصفوف يحتاج الى متسع من الوقت ، ولما كان الانجليز ما يزالون بعيدين ، ففى استطاعة الاتراك أن ينسحبوا فورا مسافة مائة ميل الى «حلب» متخلين عن سوريا كلها ، ثم يعيدوا التحصن وراء خط دفاع جديد فى الشمال ، فيسدوا الطريق الى تركيا ذاتها فى وجه الاعداء الزاحفين !

وتوجه من فوره الى « ليمان فون ساندرز » حين عرض عليه هذا الرأى ، فقال له القائد الالمانى : «ان خطتك وجيهة، لكنى لا أستطيع اصدار الأمر بتنفيذها ، لأنى لا أريد أن أتحمل مسئولية ترك قطعة كبيرة من الامبراطورية العثمانية لقمة سائغة للأعداء دون أن أضرب ضربة أخيرة !.. انها مشكلة عليكم أنتم الاتراك أصحاب البلاد أن تقرروا ما ترونه فى شأنها ! »

فأجابه مصطفى كمال : « أنا أتحمل المسئولية الكاملة!». ثم أصدر أمره بالكف فورا عن كل صدام مع العدو وبالتأهب للانسحاب العام الى حلب . وذهب بنفسه فى المقدمة وأعد خطا دفاعيا جديدا على بعد عشرة أميال شمالى (حلب) كى يحمى الطريق الوحيد الذى يخترق جبال طوروس الجبارة الى تركيا نفسها . وكان جناحا الخط الجديد محميين ، لا يستطيع العدو أو الفارون من الخدمة أن ينفذوا منهما دون أن يصطدموا بالمدافعين عنهما .. ولئن ضاعت سوريا وفلسطين وبلاد العرب ـ التى كان الاتراك يحتلونها كغزاة وحكام لا غير ـ فقد صار فى وسع مصطفى كمال الآن بفضل هذا الخط الدفاعى الجديد أن يجعل جنوده يقاتلون وظهورهم الى الحائط دفاعا عن وطنهم ذاته !

ولم تكد الفيالق المهزومة تصل حتى أعاد مصطفى تنظيمها وأعد منها فرقا جديدة قذف بأفرادها الى خط القتال بعد أن نفخ فيهم من روحه الحماسية القوية !.. ثم أبرق الى السلطان يطالبه باقصاء أنور وعصابته وتأليف حكومة جديدة يسند اليه هو فيها منصب وزير الحربية !

ولم يتلق أى رد على برقيته هذه . لكن الانباء جاءت على أثر ذلك بأن كلا من أنور وطلعت وجمال قد ولوا الأدبار عبر البحر الاسود، وبأن حكومة جديدة قد ألفت من الكابتن رؤوف والجنرال فوزى وآخرين !

واقترح زعماء العرب ، بتحريض من صديقهم الانجليزى « لورنس » أن يستخدم مصطفى كمال نفوذه ليقنع الحكومة التركية بفتح باب المفاوضة فى عقد صلح منفرد مع الحلفاء .. لكن مصطفى كمال رفض الفكرة مفضلا الاستمرار فى القتال ، فهو ليس جبانا ليهرب كالآخرين أمام تهديد الأعداء له..ومن ثم راح يواصل الكفاح ليل نهار كى يقوى تحصيناته !

وفى البداية ظل سكان «حلب» متذرعين بالهدوء ، ولكن لم تكد طوابير الانجليز المتقدمة تقترب منهم حتى انقلبوا معادين مشاغبين .. وكان مصطفى كمال يعيش فى فندق « بارون » الواقع فى وسط المدينة ، فحدث وهو عائد اليه من مكتبه فى سيارته وليس معه سوى السائق أن أحاط به بعض المتجمهرين الذين راحوا يتصايحون ضده كالكلاب النابحة ، فذادهم عن نفسه بسوط كان فى يده ، وحين تبعوه الى الفندق رشاهم بوعده بامدادهم بالمال والسلاح !

وفى الصباح التالى سمع ضجة فخرج الى شرفة غرفته ، واذا الشوارع المحيطة بالفندق تعج بالجماهير الصاخبة المهددة ، وعلم أن العرب أغاروا قادمين من الشرق عبر الصحراء وامتلأت بهم المدينة !

ولم يكن أمامه فى الوقت متسع ، فأخلى المدينة فورا ونقل مركز قيادته الى « كيتما » وراء الخط الجديد ، واستعد لملاقاة الهجوم القادم .. وفى ٢٦ أكتوبر ظهرت طلائع القوات الانجليزية الزاحفة،وهاجمت خط الاتراك عند قرية « هارى تان » فرقتان من فرق الفرسان الهنود .. فتوجه مصطفى كمال من فوره الى القرية وتولى ادارة الدفاع بنفسه، وكان الاتراك قد استردوا روحهم المعنوية فقاتلوا قتالا عنيفا ، ومنى الهنود بخسارة فادحة اضطرتهم الى التراجع بغير انتظام والمسارعة الى طلب النجدات .. بينما تراجع

الاتراك الى مراكز أعدت لهم من قبل على بعد عشرة أميال الى الشمال !

وفيما كان الفريقان ينتظران وصول النجدات لاستئناف القتال جاءت الانباء من العاصمة بأن الحكومة وقعت على اتفاق للهدنة فى « مدروس » . وجاءت الأوامر الى الالمان ليعودوا جميعا الى ألمانيا فورا !

وهناك فى حانة بمدينة « أضنة » تسلم مصطفى كمال من « فون ساندرز » قيادة جميع قوات تركيا الجنوبية ، وواجه كلا الرجلين الآخر عبر منضدة صغيرة من مناضد المقهى ، وقد صار مصطفى كمال المضيف وفون ساندرز ضيفه — لا رئيسه !.. وفى ساعة الهزيمة هذه لم يكن عند الرجلين كلام كثير يتبادلانه .. كان كلاهما شجاعا قوى الشكيمة، وعسكريا مجربا مزهوا بنفسه ، يحترم الآخر دون أن يظهر له شعوره !.. فلما حانت ساعة الوداع قال فون ساندرز لخلفه وهو يصافحه : « لقد عرفتك منذ توليت القيادة فى (انافارتا) .. وانى لأغبط نفسى على كونى قد اكتشفت مقدرتك منذ البداية . لقد اختلفنا فى كثير من الأحيان ، لكننا صرنا صديقين .. وعزائى الوحيد اليوم انى أترك القيادة فى يديك القديرتين ! »

لقد هزمت تركيا ، لكن مصطفى كمال — وقد انفرد بالأمر والنهى فى هذه الجبهة ، أبى وهو المحارب الباسل أن يستسلم استسلاما رخيصا ، فناقش كل تفصيل يتصل بشروط الهدنة التى يعرضها العدو ، وانتهز كل فرصة !. وحين أراد الانجليز أن يحتلوا « اسكندرونة » أنكر عليهم هذا الحق وأمر حاميتها بالمقاومة بل هدد باستئناف القتال!. وحين أبرق اليه « عزت » — رئيس الوزراء — آمرا ، ثم راجيا منه أن يستسلم .. أجابه قائلا : « ينبغى ألا نقبل

المذلة ، والا أباد الأعداء كياننا ابادة تامة ! »

واستمر يقوى خطوطه ، وأرسل ضباطا الى الجبال الواقعة خلفه بعد أن زودهم بالسلاح والذخيرة كى يجمعوا رجالا ويؤلفوا منهم عصابات قوية غير نظامية .. انه سوف يوقف تغلغل العدو فى تركيا بوسيلة أو بأخرى .. سوف يتأهب لأسوأ الاحتمالات ، ولو لحرب عصابات يشنها فى الجبال اذا اقتضى الأمر ..!

وتألفت حكومة جديدة فى العاصمة تضم فتحي والكابتن رؤوف والجنرال فوزى .. واستدعى عصمت ليكون وكيلا للوزارة لشئون الحرب.أما مصطفى كمال فقد ترك وأهمل، الأمر الذى أحنقه وأثار ثائرته ، ولكن دون جدوى !

وفجأة أرسل اليه « عزت » رسالة مستعجلة : لقد اختلف مع السلطان واعتزم أن يستقيل من رياسة الوزارة. وكان مقررا أن يخلفه فى منصبه «توفيق باشا» ذلك الشيخ المسن صديق الانجليز !.. لكن عزت رغب الى مصطفى كمال فى أن يعود فورا ، فانه فى حاجة الى معونته ..

وازاء تطور الأمور على هذا النحو سلم مصطفى كمال مقاليد قيادته الى الضابط الذى يليه ، ثم غادر مقره قاصدا الى القسطنطينية !

الفصل الثالث

بعد الهدنة

وصل مصطفى كمال الى القسطنطينية وقد انقضى شهر على بدء الهدنة . وكان العدو قد سيطر على كل شيء : استولت البوارج الانجليزية على البوسفور .. واحتلت الجيوش الانجليزية العاصمة وكل قلاع الدردنيل والمواضع الحربية الهامة فى أنحاء تركيا ! بينما احتلت الجيوش الفرنسية استانبول ، وملأ جنودها السنغاليون شوارع « غلطة » .. واحتلت الجيوش الايطالية « بيرا » وخطوط السكك الحديدية .. وأشرف ضباط الحلفاء على شؤون البوليس والحرس الوطنى . وعلى الميناء ، وعلى تجريد القلاع من أسلحتها وتسريح الجيش !

لقد تحطمت الامبراطورية العثمانية وتفككت الى أجزاء صغيرة .. وانسلخت عنها : مصر ، وسوريا ، وفلسطين ، وبلاد العرب .. وباتت تركيا ذاتها عزلاء لا حول لها ولا طول ، خاضعة لسيطرة العدو المنتصر وقبضته الحديدية.. وانهارت الأداة الحكومية انهيارا تاما !

وكانت جمعية « الاتحاد والترقى » قد انحلت وتفرقت:

ففر أنور وطلعت وجمال الى الخارج ·· واختفى « يافيد » اليهودى وبقية الاعضاء فى أماكن مجهولة··وتألفت حكومة هزيلة برياسة توفيق باشا،أحد رجال عبد الحميدالمعروفين بصداقتهم للانجليز لتنفذ أوامر الأعداء !

عـلى أن مظاهر قوة الأعداء وبطشهم لم ترهب مصطفى كمال ، بل ظل مستعدا لأن يقاوم ، وراح يناقش ويساوم معهم بعناد على كل صغيرة وكبيرة ·· لكنه لم يتلق عونا من أحد !

كان الاتراك من جميـــع الطبقات ، ممزقين مهزومين ، لا يقوون علىمقاومة أو قتال ، وكانوا ينتظرون ـ مسحوقى الاجسام والنفوس ـ أن يقرر الحلفاء المنتصرون مصيرهم ، ويتوسلون اليهم فى خضوع ومذلة أن يمنوا عليهم بالبقاء!

وتوجه مصـــطفى كمال الى « عزت » ـ رئيس الوزارة السابق ـ فوجده غاضبا حزينا ، وعلم منه أنه عاون أنور وطلعت على الفرار ـ قبل وصول الاعداء ـ على ظهر سفينة عبر البحر الاسود ، ولكن الســلطان أنبه ولامه على عدم القـــائه القبض عليهما وتسليمهما للانجليز ، قائلا : « ان تركيا ينبغى أنتكون على صلةطيبة مع الانجليزالمنتصرين»· فأجابه عزت بقوله : « ان أنور وطلعت قد يكونان نذلين ، لكنهما تركيان قبل كل شىء ، وما كنت لأشترك فىتسليم أحد من المواطنين الى أية دولة أجنبية ، ولو تنفيـذا لأمر السلطان ! » ·· وعلى أثر ذلك استقال من منصبه ، وخلفه توفيق باشا

ولم يجد مصطفى كمال بدا من أن يناشد عزت أن يعود الى الحكم ، فهو وان اتفق معه فى عواطفه الوطنية لا يتفق معه فى البقاء بمعزل عن الأمور والسماح لتوفيق وحكومته وللسلطان بقبول الهزيمة على هذه الصورة المزرية المنطوية على الجبن ، فذلك يعنى نهـاية تركيا !·· نعم ان الأمر لم

يعد أمر احياء الامبراطورية أو اســترداد شىء من ولاياتها المفقودة ، ولكنالأمر الآن انقاذ تركيا ذاتها !· فيجب أن تؤلف حـــكومة قوية ، تطيح بحكومة توفيق وتحـل عزت مكانه ، على أن يعين مصطفى كمال وزيرا للحربية،كىيواجه الاثنان العدو بصلابة وينقذا ما تبقى من تركيا !

وعكف مصطفى كمال على تأليف حزب جديد ، باشتراك عزت ومعاونته،ومرة أخرى عاد يندمج فى أوساطالساسة، فوجد عشرات الجماعات التى تألفت كل منها بزعامة كل من هب ودب من الطامعين فى السلطة والنفوذ : فهـــذا حزب ينادى بتأييد الانتدابالانجليزى ، وآخر يسعى الىالانتداب الأمريكى ·· وهذه جماعة من أصدقاء انجلترا ، وأخرى من أصدقاء فرنسا ، وثالثة من أصدقاء ايطاليا · وكل منها مؤلفة علىأساس انه لم يبق ما يمكن عمله من غير معونة من الدول الاجنبية !

أما مصطفى كمال فلم يكن يؤمن بفكرة المعونة الخارجية، الا خلال الفترة القصيرة التى راودته فيها فكرة التعاون مع أمريكا · وفيما عـــدا تلك الفترة كان مـن رأيه دائما أن الاتراك ينبغى أن ينقذوا أنفسهم بأنفسهم أو يهلكوا ··!

وأصغى اليه الساسة ، فقد صـار فى مركز فريد · لم يعد له منافس بعد أن فر أنور · وكان معروفا بأنه وحـده القائد الموفق فى تركيا كلها ، فقد رد الانجليز عن غاليبولى مدحورين ، وأبى أن يمكنهم من الاستيلاء على «اسكندرونة» ·· ثم هو الى ذلك معروف بأنه صديق للسلطان ·· وقد وقف موقف المعارضـــة العنيدة للالمان ولجمعية الاتحـــاد والترقى · وفوق هذا وذاك فهو لم يفر ـ مثل أنور وطلعت وجمال ـ لينجو بنفسه !

وراح مصطفى يسعى ـ يوما بعد يوم ـكى يقنعالساسة بآرائه ·· كان ينفق الساعات الطويلة فى دار البرلمان فى

نقاش وجدل معهم · وبدا على كثيرين منهم أنهم اقتنعوا بما
يقول ·· ودبر بعضهم أن يقترعوا على الثقة بتوفيق باشا
وحكومته · وقبل أن يحل موعد طرح الثقة خطب مصطفى
كمال فى جمع من النواب يستحثهم على الصمود فى وجه
توفيق باشا وخلع حكومته ثم تأليف حكومة قوية رشيدة ·
وأيقن من النجاح ، ومن تقلده منصب وزير الحربية فى
الحكومة الجديدة ، وبذلك يستطيع أن يقتنص السلطة فى
يده !

وفى ساعة الاقتراع مضى مصطفى الى « قاعة الغرباء » فى
دار البرلمان لينصت الى مناقشة الاستجواب ، وفى النهاية
فاز توفيق بأغلبية ساحقة ·· فقد خشى النواب مصطفى
كمال وآراءه وشدة بأسه ، وارتابوا فى مطامعه · فعدوا
اعتزامه المقاومة حماقة كبرى !

وشحب وجه مصطفى كمال غضبا من النتيجة ، ولعن
الساسة الذين خذلوه !· ثم مضى الى أقرب تليفون وطلب
الاذن له فى مقابلة السلطان ـ وكان منذ عودته قد حرص
على الابتعاد عن القصر ·· فقيل له : ان فى الوسع تدبير
لقاء بينه وبين السلطان ، لكنه ترك ينتظر أسبوعا كاملا !

وأخيرا استقبله السلطان وحيد الدين ، مبديا ابتهاجه
بلقائه ، لكنه لم يكن مرحبا به فى قرارة نفسه ·· على أن
ذلك لم يثن مصطفى كمال ،الذى مضى الى غايته فورا فطالب
السلطان بأن يؤلف حكومة قوية لتواجه الأعداء وتعاملهم
معاملة الند للند وتوقف الحركة التى يرمى منها بعض
المتطيرين الى قبول الهزيمة الكاملة ، وقال له : « ان كلمة
واحدة من جلالتك كفيلة بتقوية الحماسة الوطنية ، فاجعلنى
وزيرا للحربية فى حكومة قوية ، وأنا كفيل بانقاذ تركيا ·
لكن هذا البرلمان يجب أن يحل ·· فان نصف النواب خونة
·· أعضاء فى جمعية الاتحاد والترقى وأصدقاء لأنور ··

ونصفهم الآخر من الجبناء · وليس بينهم رجل واحد صلب
العود ! »

وهنا قال له وحيد الدين ـ وكان قد ازداد بدانة فى
الجسم واعتدادا بالنفس منذ تولى الحكم ـ : أنت ذو نفوذ
عظيم فى أوساط الجيش ، فهل تعتقد أن الجيش مخلص لى؟»

فأجابه مصطفى كمال وقد أخذ بالسؤال المفاجىء : «انى
لم أعد الى العاصمة الا منذ فترة قصيرة يا مولاى ··ولست
فى الواقع أدرى ! » · وكان وحيد الدين جالسا مغمض
العينين كالنائم ، على الطريقة التى اعتاد أن يصنعها ، كلما
أراد أن يخفى أفكاره الحقيقية عن عبد الحميد !·· فسأله
مصطفى كمال :

ـ هل لدى جلالتكم أى برهان على عدم الولاء ؟

فلم يجب بل سأله بدوره : « هل الجيش يدين لى بالولاء،
وهل يستمر كذلك فى المستقبل ؟ »

فقال مصطفى كمال : « ليس عندى ما يحملنى على
الارتياب فى ولاء الجيش ، ولا فى استمرار هذا الولاء ! »

فقال السلطان : « اذن أستطيع أن أعتمد على استخدام
نفوذك فى هذا السبيل ! »

وكان السلطان قد كون لنفسه ـ منذ زمن ـ فكرة واضحة
عن مصطفى كمال : انه رجل طموح أشبه بالعاصفة ، وهو
رجل خطر لا تمكن السيطرة عليه اذا أعطى النفوذ ، لكنه
قد يكون ذا نفع أحيانا ، ففى الماضى أمكن استخدامه ضد
أنور ، والآن يمكن استخدامه لكسب ولاء الجيش !

ومن تحت أجفانه الثقيلة، وبعينين حذرتين ، راح السلطان
يرقب القائد النحيل ذا الوجه الاغبر الماثل أمامه ، مفكرا
فى مدى استطاعته الاعتماد على اخلاصه ومعونته !

وفى اليوم التالى حل وحيد الدين البرلمان، وأسند رياسة الوزارة الى صفيه ومستشاره الأول « فريد » ، وبذلك استولى هو على السلطة والنفوذ كاملين !٠٠ لكن فعلته أثارت عاصفة شديدة من النقد ، فصار الناس يلعنونه علانية ٠ ونشرت احدى الصحف فقرات من خطاباته الى عبد الحميد ، وكانت قد وجدت فى القصر فى حوزة عبد الحميد، وهى تظهر كيف كان وحيد الدين يشتغل بالتجسس لحساب السلطان الأحمر !

ولم يسند الى مصطفى كمال أى منصب فى الوزارة الجديدة ، لكن الجميع اعتبروه مسئولا عن تصرفات السلطان وأخطائه ، فقد كان معروفا لكل انسان انه حاول التوصل الى حل البرلمان من طريق الاقتراع على الثقة بتوفيق باشا، وانه خلا الى وحيد الدين ساعة كاملة تحدثا خلالها حديثا لم يقف أحد على كنهه !٠٠ لكن رأى الأكثرية اتفق على أنه يعمل لحسابه الخاص ، فنفر منه كثيرون من الذين كانوا يتطلعون الى زعامته ٠٠ وارتاب الناس فى أمره !

ثم ان حكومة وحيد الدين لم يكن فيها مكان له ٠٠ فان السلطان بما طبع عليه من ضعف وجبن وعناد ، كان تفكيره يدور وينحصر فى فكرة واحدة راسخة فى ذهنه : هى أن العرش وتركيا شىء واحد !٠٠ وانه ينبغى أن يدعم سلامة العرش وسلامته الشخصية ، وبذلك ينقذ تركيا !٠٠ ولكى يصل الى هذا لابد له من أن يتحالف مع الأعداء ويجلب رضاهم من طريق الطاعة لأوامرهم !٠٠ وكان الانجليز هم المسيطرين على بقية الحلفاء ، أعداء تركيا ٠٠ ومن ثم رأى أن ينحاز الى جانبهم ، وكان لديهم هم من الاسباب ما يحملهم على أن يعتزوا به ـ وهو خليفة المسلمين ـ كحليف لهم ٠ واقتنع هو بأن كل تفكير فى تأليف حكومة قوية أو ابداء مقاومة من أى لون يعنى دمارا عاجلا ويجب الانصراف عنه

٠٠ وكان يؤيد السلطان فى هذه السياسة ـ على طول الخط ـ صهره ومستشاره الاول ورئيس حكومته الجديدة ٠٠ فريد !

منظمات سرية

لم يعد لمصطفى كمال مكان فى السياسة الجديدة ، فقد تنكر له الجميع ، وكان من سعة الأفق وتعدد الزوايا بحيث لم يصلح للاندماج فى أية جماعة اندماجا كاملا يقنع به ويستكين ٠ وقد استأجر منزلا صغيرا فى « شيشلى » ـ احدى ضواحى القسطنطينية ـ وهناك عاش معيشة هادئة، غير مشترك فى السياسة أو الشؤون العامة ، على أنه كان يتردد بين الحين والآخر على أمه وشقيقته ، بعد أن أبى السكنى معهما فى بيت واحد ، مؤثرا العزلة والانطواء على نفسه

وكان له أصدقاء قليلون ، منهم صديق واحد حميم يدعى الاميرالاى « عارف » ٠ وهو ضابط مشهود له بالكفاءة والمقدرة ، قضى سنوات تدريبه فى ألمانيا ٠ وكان يصغر مصطفى كمال فى السن ، وقد تعارفا منذ زمالتهما فى سالونيك وموناستر وسوريا والبلقان وغاليبولى ٠ وبعد عقد الهدنة ربطت بينهما صداقة متينة ٠ وكانت لهما ميول مشتركة وطباع متوافقة ، فان كليهما كان مستغرقا فى المسائل العسكرية ، ولوعا بالاحاديث الخليعة والافراط فى الشراب ، والمغامرات الماجنة والليالى الحمراء فى رفقة النساء ٠٠ وقد كان عارف هو الشخص الوحيد الذى أظهر له مصطفى ودا صريحا ، وكان يضع ذراعه على كتفه ويطلق عليه أسماء تنطوى على التدليل حتى اعتقد كثيرون أنهما قريبان ، ولاسيما للتشابه العجيب بين ملامحهما وجسميهما وشغفهما معا بكل ما هو عسكرى ، والميل الى التهكم اللاذع

.. على أن عارف لم يكن على شيء من قوة ارادة مصطفى ، وكان ينظر اليه بمثل احترام الكلب لسيده واخلاصه له !..

وفتح مصطفى قلبه لعارف .. فقد آلمه وأثاره أن يرى تركيا تنحدر الى المصير الذى صارت اليه ، وأن يختال الانجليز والفرنسيون فى شوارعها بغير حسيب ، ويهينوا نساءها المحصنات .. لكنه مع ذلك كان عاجزا مسلوب القوة ، يبغى أن يفعل شيئا دون أن يدرى ماهيته بالضبط .. ثم فوق ذلك كان مراقبا وللانجليز جواسيسهم فى كل مكان ، وعملاؤهم يعتقلون كل من يبدى ميلا الى القتال !

وهكذا اقتنع مصطفى كمال بأنه يجب أن يخفى مشاعره ويخمد نيران الكراهية التى تتأجج بين جوانحه نحوهم ، والا كان مصيره الاعتقال !

ومضت الاسابيع متتابعة ، حتى حلت الاشهر الاولى من سنة ١٩١٩ ، وعندئذ تبدلت الاحوال .. فقد بدأت قبضة العدو على البلاد تتراخى ، فسرحت جيوشه وانسحبت ، ونشبت فى كل من ايطاليا وفرنسا وانجلترا متاعب داخلية جدية .. وفى جميع الدول المنتصرة بدت نذر رد الفعل المحتوم بعد الضغط المتوالى على الاعصاب طيلة سنوات الحرب .. وفى باريس استغرق ساسة الحلفاء فى وضع سياسة للتفاهم مع ألمانيا ، ولم يكن لديهم وقت للتفكير فى شأن تركيا . ولم تكن الخطوط الرئيسية لشروط الصلح قد حددت بعد ..!

وقال الناصحون للويد جورج : « دعوا تركيا وشأنها ، فسوف تنهار من تلقاء ذاتها وسنتولى اقتسام أجزائها فيما بعد ! » .. وفى القسطنطينية كان ممثلو الحلفاء فى شجار دائم صريح : كل منهم يدبر خطة للحصول على نصيب الأسد من المراكز الاستراتيجية والامتيازات الاقتصادية

فى البلاد ، وينافس حلفاءه – أو غرماءه – فى ابتكار الحيل التى تمكنه من أن يخدع الاتراك !

وهنا وهناك ، بدأت تلوح فى الأفق بوادر أمل جديد ضئيل ، مبعثه الاعتقاد بامكان تنظيم حركة مقاومة جدية تنقذ تركيا من الهاوية !.. لكن المقاومة كانت عسيرة التصديق فى العاصمة ذاتها ، حيث كانت قبضة الانجليز والسلطان الجديد حليفهم قوية صارمة .. ولكن كان فى الامكان فعل شىء فى المناطق الجبلية الداخلية .. فى الأناضول !

وتألفت فى العاصمة أكثر من عشر جمعيات سرية هدفها سرقة الاسلحة والذخائر والمستودعات الخاضعة لاشراف العدو ، ثم ارسالها الى أنصارها فى الداخل .. وتكوين المراكز التى يجمع فيها الرجال وترسم الخطط !

وتلقت الحركة معونة من بعض الرسميين ذوى المراكز الكبيرة . كان عصمت بمثابة وكيل وزارة لشؤون الحرب ، وفوزى رئيسا لهيئة أركان الحرب،وفتحى وزيرا للداخلية ، ورؤوف – قائد البارجة « حميدية » المشهور فى الحرب البلقانية – وزيرا للبحرية...وكان الجميع أصدقاء لمصطفى كمال ويسعون سرا الى الغاية ذاتها !

وفى عشرات المواضع – فى الداخل – تألفت جمعيات مهمتها تدبير المقاومة السرية . وانتعشت المنظمات التى كان مصطفى كمال قد وضع بذورها فى الجنوب ، قبل أن يعود الى العاصمة . وفى كل مكان عادت الفروع المحلية القديمة لجمعية « الاتحاد والترقى » الى سابق نشاطها واجتماعاتها .. وفى جبهة القوقاز ، على الحدود الشرقية النائية ، بدأ « كاظم قره بكير » والفرق الست التى لم تهزم ، يعصون أوامر الحلفاء بشأن تسريح الجيش ويقيمون العراقيل

والعقبات فى وجوه ضباط المراقبة المتحالفة ..

لكن هذه كلها لم تكن غير النذر الاولى الحذرة والمحاولات التجريبية التى بذلت فى ظل ادراك أصحابها للمآل المحتوم الذى لابد ستنتهى اليه حين يكتشف الانجليز أمرها ويعصفون بها على الفور !

وتسربت أنباء هذه المنظمات الى الانجليز ، فألقوا القبض على عدد من الرجال اعتبروهم « خطرين » وزجوا بهم فى سجن « بكير أغا » .. ثم أحبطوا محاولة دبرها هؤلاء وأعوانهم فى الخارج لتهريبهم من سجنهم !..

وكانت لمصطفى كمال يد فى هذه المؤامرة ، لكنه لم يظهر فيها للعيان ... كان على اتصال بجميع المنظمات السرية الحديثة ، لكنه كان اتصالا حذرا مكتوما ، لم يتورط فيه تورطا يؤخذ عليه ، وذلك لأنه لم يكن واثقا من نجاح الحركة ، فلم يشأ تعريض نفسه لمخاطر لا فائدة من ورائها. وهكذا بدا وكأنه قبل الهزيمة وأيد سياسة السلطان وصهره فريد !.. على أن الانجليز ـ برغم ذلك كله ـ كانوا يرتابون فى أمره ، فوضع اسمه فى قائمة الرجال الخطرين الذين ينبغى اعتقالهم وارسالهم الى مالطة . وكان قد ترك منزله فى حى شيشلى وعاد الى غرفته القديمة فى فندق « بيرا بالاس » ، المطلة على القرن الذهبى ، بينما عاوده مرضه القديم وصار فى أسوأ حال من الانقباض والأسى والافتقار الملح الى النقود .. بل لقد بليت ثيابه وساء مظهره . ولم يعد له صديق غير « عارف » .. أضف الى هذا انه كا مراقبا من الاتراك أيضا ، فأخذ يقضى أيامه ولياليه في العاصمة متجولا على غير هدى أو قصد معين فى الشوار والطرقات ، أو جالسا فى مقهى من المقاهى مكتئبا جام الاعصاب بغير أمل أو خطة للمستقبل !

رجل التطهير

عاد الحظ فجأة فأسلم زمامه لمصطفى كمال .. لقد كان كما قال « ليمان فون ساندرز » يملك تلك الصفة الرئيسية من صفات القائد العظيم .. صفة الحظ !. كما كان يملك الصفة التالية لها وهى القدرة على أن يغتنم فرصة الحظ ويستخدمها فى حينها !..

وكان الانجليز والسلطان قد رأوا أن الخطوات الأولى للمقاومة فى الاناضول يجب أن تقمع فورا .. وأن ينتدب السلطان شخصا يمثله كى يتدبر الموقف ويجبر المتمردين على تسليم أسلحتهم وتسريح جنودهم ووقف اجتماعات اللجان المحلية لجمعية الاتحاد والترقى ، فرغب السلطان فى أن ينتدب مصطفى كمال ليقوم بهذه المهمة ، لكن السلطات العسكرية الانجليزية عارضت ذلك بحجة أنه رجل خطر قدير ، لم ينس بعد مسلكه فى اسكندرونة

وهنا تطوع فريد ـ رئيس الوزارة ـ للدفاع عنه، قائلا : « ان جميع الاضطرابات الناشبة فى داخل البلاد لا ترجع الى أية عاطفة شعبية بقدر ما ترجع الى تصرفات جمعية (الاتحاد والترقى) الملعونة ، وعصابة الأشرار الذين يتزعمهم أنور .. أما الاتراك أنفسهم فهم يريدون السلام. ولئن كان مصطفى كمال عضوا ـ اسميا ـ فى جمعية الاتحاد والترقى ، الا أنه فى الواقع من ألد خصومها ومعارضى سياستها . علاوة على أن له شهرة ذائعة فى البلاد . ثم هو الى ذلك « جنتلمان » يمكن الثقة به ، ومن ثم فهو خير من يصلح لأن يضطلع بالمهمة الكبيرة »

وظل القرار معلقا بضعة أيام ، ومصير مصطفى كمال يتأرجح بين أن يعتقل وينفى الى مالطة ، وبين أن يرسل الى الاناضول مبعوثا رسميا للسلطان !.. وأخيرا افلح

رئيس الوزارة فى اقناع الانجليز بوجهة نظره ، فرفعاسم مصطفى كمال من قائمة المرشحين للاعتقال وعين مفتشــا عاما للمنطقة الشمالية وحاكما للولايات الشرقية !

ومع أنه لم يكن على علم بتفصيل الاخطار التى تتهــدده من جانب الانجليز ، لم يكد يعلم بنبأ اختيــار السلطان له ليشغل هذا المنصب حتىأدرك أنفرصته قد حانت،فتبددت كآبته وانقباضه وعاودته فورا حيويته وصحته • ثم بدأ على الفور يدبر خططه التى لم يطلع عليها غير صفيه عارف ، وأعلن موافقته الحارة على التعليمات التى رسمها له رئيس الوزارة !

انه كمبعوث للسلطان سوف يحظى باحترام وتقـــدير كبيرين من جانب أتراك الاناضول • ومن ثم فانه سيتظاهر بأنه قد أرسل لينقذهم من الانجليز ، وبهـــذه الوسـيلة يستطيع أن ينظم المقاومة الكفيلة بانقاذ تركيا !

وكان أول ما فعله أن اتخذ لنفسه « شــفرة » سرية فى مراسلاته مع عصمت وفوزى فى وزارة الحربية• وبعد ذلك لم يضيع وقتا ، بل هرع الى بيت أمه وشقيقته فى شارع « أكارتلر » كى يودعهما • وكانت أمه قد أوشكت أن تفقد بصرها تماما،فتحسست وجهه بأصابعها المرتجفة المعروقة، ثم قبلته وهى تبكى،كما اعتادت أن تفعل كلما جاء ليودعها، وأطلقته مزودا ببركتها • وفى هــذه المرة لم يكاشف حتى أمه بخططه وآرائه !

وفى الليلة ذاتها استقل سفينةأبحرت به عبر البوسفور الى شاطىء البحر الاسود •• يصحبه « عارف » والاميرالاى رفعت ، الذى عين قائدا للجيش الثالث فى « سيواس » •• وأقبل « رؤوف » لتوديعهم حاملا معه نبأ بأن مؤتمر الحلفاء فى باريس قد أرسلالقوات اليونانية لتحتل مدينة ازمير!•

كان واضحا أن الأعداء قد حكموا على تركيا بالموت ، وأن مقاومة العدو ــ لا ممالأته ــ هى الأمل الوحيدالباقى لانقاذ لبلاد !

وفى منتصف الليلة نفسها طلبرئيس الوزارة أن يقابل ممثلا للمندوب السامى البريطانى فى الحال •• وأوضح له أن السلطان قد عدل عنرأيه ، فقد جاءته الانباء بأنمصطفى كمال يعتزم اثارة القلاقل فى الاقاليم الداخلية ، ومن هنا ينبغى وقفه أثناء رحلته ، بأى ثمن !

وصدرت الأوامر باعتراض سبيله واعادته الى العاصمة لكن ادارة قوات الاحتلال كانت على جانب كبير من تعقيد الاجراءات ، ومن تفشى الغيرة الدولية والاغراض الخاصــة بين القائمين علىأمرها من الانجليز والفرنسيينوالايطاليين، الذين كانت لهم جميعا يد فى تفتيش أو وقف سفنالركاب فاضطرب الأمر بين اختصاص سلطات الجيش والاسطول بتنفيذ هـــذه الأوامر ، وظلت معلقة حائرة بين جهـــات الاختصاص المتضاربة بضع ساعات ، تمكن خلالها مصطفى كمال من الوصول الى غايته !

كان مصطفىكمال أثناء الرحلة قد ترك نفسهعلىالسجية، فراح يتكلم بلا انقطاع ، شارحا أفكاره ومطامعه وخططه•• بينما كان رفعت يصغى صامتا • وكان رفعت على النقيض من ذلك تماما••فقد كان ضابطا فى سلاح الفرسان فخورا بنفسه ، شهما مرحا طيب المعشر ، مشهورا بشجاعته•وقد تولى قيادة قوات مقدونيا فى ثورة ســالونيك ، ودافع عن « غزة » فى حصار طويل الأمد ضد الانجليز•وكان ضئيل الجسم أنيق الملبس والمظهر ، يتكلم فى حماســة الصبى المنفعل وهو يحرك رأســه بلا انقطاع ، ويشـــير بيديه ، ويضحك بعينيه !

أما فى هذه المرة فقد جلس صامتا يصغى • أدرك مدى

كفاءة مصطفى كمال،ومؤهلاته كقائد أو زعيم لثورة يائسة. وكان يؤيده فى اعتزامه تنظيم حركة مقاومة للعدو ..لكنه وهو ينصت اليه أحس أن وراءكل ذلك تكمن أنانيةمصطفى كمال الطاغية وتصميمه على اغتصاب السلطة بأى ثمن .. فقرر أن يقف فى صفه ، على أن يراقبه من طرف خفى !

وبعد رحلة قاسية رست السفينة يوم ١٩ مايو سنة ١٩١٩ فى ميناء « سامسون » على البحر الاسود ، بينما كانت تزأر فى الجو عاصفة شديدة،وكانت القوات الانجليزية تحتل المدينة ، فدس ضابط قلم مخابراتهم أنفه فى كل حركات مصطفى كمال وسكناته .. ووشى عملاؤهم اليونانيون والأرمن بكل تنقلاته وأحاديثه ، بل حتى بمكالماته التليفونية .. أما الاتراك فقد خشوا حتى أن يكلموه !

وانتحل حجة نقل بها مركز قيادته من المدينة الى «كافسا» ثم الى « أماصيا » وهى بلدة بعيدة فى داخل البلاد ، تقع على الطريق الرئيسى الذى يصل بين شرق تركيا وغربها .. وهنا أتيح له أن يتحرر أخيرا من الانجليز الملاعين ، فتنفس الصعداء .. ومد يديه فى حركة من يوشك أن يأخذ عدوه فى قبضته !.. لقد عاش فى العاصمة ستة أشهر يغلى غيظا وحنقا ، مجبرا على أن يبقى مسلوب القوة مكظوم المشاعر ، بينما المدينة تئن تحت أقدام الحلفاء المنتصرين!.. ستة أشهر أجبر خلالها على أن يرقب الساسة والرسميين، وفى مقدمتهم السلطان ورئيس الوزارة ، يحنون هاماتهم صاغرين ويلعقون مواطىء أقدام الانجليز . الأمر الذى طعن كبرياءه الوطنى - كتركى - فى الصميم .. فصر على أسنانه كمدا وراح يجتر كراهيته الهائلة للأعداء الظافرين، وهو جالس بلا حراك ، ولا حول أو طول !

لكنه الآن فى وسعه أن يتحرك .. وبعد الاشهر الطوال

ن السكون والدعة انقلبه ، برد فعل عجيب ، الى كتلة من النشاط الخارق ، هدفها مقاومة العدو !.. انه ينبغى أن ينظم حركة المقاومة . وأول خطوة عليه أن يتخذها هى أن يدعم سلطته على الجيش ، ومن ثم أرسل - من أماصيا - يطلب بالتليفون والبرق تقارير عن الحالة فى شتى أنحاء لاقليم ..!

كان الموقف غاية فى البساطة : ان تركيا ترقد مثخنة بجراح الهزيمة ، وليس فى طوقها أن تبذل مقاومةعسكرية ايجابية . كان كل ما بقى لها أربعة جيوش فى الاناضول ، وجيش فى أوربا ، فى الجهة الاخرى من العاصمة . وكانت أربعة من هذه الجيوش الخمسة مجرد هياكل اسمية ، بقيت لها قيادتها العليا فقط ، أما جنودها فقد سرحوا وجمعت أسلحتهم فى المخازن والمستودعات ثم سلمت الى الانجليز.

والجيش الباقى بقوته هو جيش « كاظم قره بكير » المعسكر فى ديار بكر ، فى أقصى الشرق..ثم بضع عصابات كمنت فىالجبال المواجهة لأزمير وقد أقسمت أن تقاوم قوات الغزو اليونانية التى أرسلها الحلفاء بقرار من مؤتمر باريس !..

وكان رؤوف قد استقال من منصب وزير البحرية وأخذ على عاتقه أمر تنظيم حرب هذه العصابات !

وأدرك مصطفى كمال انه فى حاجة الى معاونة قوادالجيوش المتفرقة ، فاستدعى رفعت من سيواس ، ودعا على فؤاد - قائد الجيش العشرين المعسكر فى أنقره - كى يقابله فى أماصيا .. فحضر على فؤاد وفى صحبته رؤوف !

وكان الاجتماع سريا ، تولى فيه عارف مهمة تسجيل أحاديث المجتمعين .. فأدلى مصطفى كمال بوجهة نظره وبسط آراءه ، فوافقه الجميع على أن المقاومة هى الأمل الوحيد الباقى . ومن ثم رسموا خطة لتنفيذها تتلخص

فى أن يضاعفوا وينظموا العصابات غير النظامية التى تواجه أزمير ، كى تعرقل وتعوق تقدم القوات اليونانية . ووراء ستار هذه المناوشات يعيدون تكوين جيش وطنى واحد ، نظامى وقوى ، على أنقاض الجيوش « الاسمية » المتفرقة !

نعم ، عليهم أن ينشئوا فى أنحاء البـــلاد مراكز محلية لقيد الجنود وجمع الاسلحة ، على أن يتصرفوا بحذر بالغ ، والا سحق الانجليز حركتهم فى مهدها !.وهم يدركون أنهم لن يتلقوا عونا ما من السلطان أو الحـكومة المركزية ، وأن الشعب فى كل مكان منهك القوى ولن يستيقظ أو يثـور بسهولة .. لكنهم سيبذلون أقصى ما فى وسعهم !

وكان لابد أن توحد مراكز المقـاومة العديدة تحت ادارة واحدة : فاستقر الرأى على أن يتولى « على فؤاد » قيادة جميع القوات فى الغرب .. وكاظم قره بكير قيادة قوات الشرق .. ومصطفى كمال قوات القطاع الاوسط ..!

ثم استطرد مصطفى كمال قائلا :

ـ ان الحكومة المركزية والسلطان واقعان تحت سيطرة الأعداء ، فينبغى أن نقيم حكومة وقتية هنا فى الاناضول !

ولكن .. لم يكد مصطفى كمال يدس أنفه فى السياسة حتى تردد الذين حوله وبدأت الشكوك تساورهم فى نيته، فقد كانوا جميعا يعرفون نزعته الثورية ويخشون بأسها. وهكذا بدأ رؤوف فأبدى معارضته فى اتخاذ أية خطوة من شأنها اغضاب السلطان « الخليفة » أو حكومته المركزية.. أما على فؤاد فكان حذرا متهيبا وغير متأهب لقبول مصطفى كمال رئيسا له !.. وكان رفعت أيضا يرتاب فى مصطفى كمال وقد استعاد الى ذاكرته ما سـمعه من آرائه على ظهر السفينة ، وهى كلها تنطق بمطامعه وأفكاره الثورية وعدم احترامه لجميع ما درج الناس والتقاليد على الولاء له !

وحاول مصطفى كمال بكل ما أوتى من قوة تأثير أن يقنعهم باقتراحه ويكسبهم الى صفه ، فقد كان فى أمس الحاجة الى معاونتهم .. وأخـــيرا وافقه رؤوف وعلى فؤاد ، أما رفعت فقد ظل مترددا . لم ير أى فائدة من انشاء حكومة مستقلة فى الاناضول .. لكنه أمام الحاح مصطفى وحرج الموقف ، اضطر الى الموافقة !

وقرر الأربعة أن يوجهوا ـ فى أسرع وقت ـ الدعوة الى عقد مؤتمر فى « سيواس » يضم من يمثلون شـتى أقاليم تركيا .. وسرعان ما تلقى مصطفى كمال تأييد كاظم قره بكير ـ قائد جيش ديار بكر ـ لقراراته .. وتلاه تأييـــد مماثل من « جعفر طيار » ـ من أدرنة ـ ومن القائد العـام لمنطقة « قونية » .. وبذلك ربح مصطفى كمال الجولة الاولى من الصراع : ضم الى صفه كبار قواد الجيش !

وعلى أثر ذلك عكف على وضع خطته لاثارة الشعب نفسه، فطاف بالقرى ، وخطب فى الموظفين ، وجمع حوله الضباط المسرحين المتعطلين . وفى كل مكان وكل مناســبة نادى بمقاومة الانجليز الغاصبين :

« لقد قرر العدو أن يدمر تركيا ، وطننا ، ويمزقها شر ممزق..ويقيم ولاية يونانية حول سامسون ، وقد امتلأت جميع قرى الاقليم بوكلاء بطريرك اليونان..وبات السلطان ـ خليفتكم ـ مسلوب الحول والقوة،أسيرا فى أيدى الانجليز .. لذلك أرسلنى اليكم كى أنقذكم ، لكنكم يجب أن تنقذوا أنفسكم بأنفسكم .. ولا جدوى فى بقائكم مكتوفى الأيدى فى انتظار عون من الخارج .. وانما السبيل الوحيـد الى انقاذ وطنكم من الهلاك المحتوم وحماية زوجاتكم وبيـوتكم من العار والمذلة هو أن تتطوعوا فى صفوف الجيش الوطنى الجديد وتقاوموا العدو بقوة السلاح ! »

هكذا كان مصطفى كمال يقول فى بياناته ، وقد أرسل الى كل قرية مندوبين مهمتهم أن يؤلفوا لجنة محلية للمقاومة ! . وكانت الخطة جبارة عسيرة التنفيذ ، فقد كان الشعب ممزقا، منسحق النفوس والاجسام ، فقد كل أمل فى المستقبل ، وتبخر من رؤوس أفراده كل تفكير فى المقاومة ، أو حتى الاحتجاج ! .. لقد غرق في لجة اليأس والاستكانة بعد سنوات من الحروب الطاحنة والهزائم المتتالية .. ولم يعد ينشد غير السلام ، واتاحة الفرصة له كى يعيش حياة هادئة ويحصد محاصيل حقوله !

لكن الأهلين وهم يستمعون الى خطب مصطفى كمال الثورية بدأوا يستيقظون شيئا فشيئا .. وكانت الانباء تترى من أزمير حاملة تفصيلات ما يقدم عليه اليونانيون من حرق القرى وذبح الاتراك .. فجعل مصطفى كمال ينفخ فى رماد الغضب والحمية المتخلفين في النفوس ليعيدهما الى الاشتعال من جديد .. وسرت فى قرى الاناضول ريح البغضاء للانجليز ، فأثارت فى الجماهير نشاطا جديدا .. وأقبل الضباط ينضوون تحت لوآء مصطفى كمال ، فنفخ فيهم من روحه ، وأرسلهم الى القرى الاخرى ليشعلوا فيها نار الحماسة !

مؤتمر التحرير

طارت انباء هذا النشاط الى العاصمة ، فهدد الانجليز باخذ الثأر .. واستشاط السلطان غضبا ، فقد كان من رايه ان المقاومة التى تدبر ضرب من الجنون ، وانها عقيمة لن تؤدى الى نتيجة غير استفزاز الحلفاء كى يسحقوا تركيا سحقا كاملا ! .. وقد أرسل مصطفى كمال الى اقاليم البلاد الداخلية كى يوقف كل مقاومة ، لكن هذا ما لبث ان استخدم اسم السلطان كى يشجع المقاومة !

وازاء ذلك أمر السلطان باستدعاء مصطفى كمال كى يقدم إليه تقريرا عن اعماله .. فلم يكد مصطفى يتلقى الأمر حتى اتجه الى مكتب البرق وارسل الى السلطان برقية شخصية مطولة عاجلة ناشده فيها باعتباره الخليفة والسلطان والقائد لشعبه ، أن يذهب الى هناك كى يقود ثورتهم ضد العدو الاجنبى !

وطيلة تلك الليلة لبث مصطفى فى مكتب التلغراف ينتظر الرد .. وعند الفجر تلقى ردا مقتضبا يأمره السلطان فيه بالعودة فورا ، فابرق اليه بدوره يقول : « سوف ابقى فى الأناضول حتى ينال الشعب استقلاله ! » .. فما كان من السلطان الا انه عزله من قيادته واخطر جميع السلطات المدنية والعسكرية بوجوب عصيان اوامره .. فاستقال مصطفى كمال من الجيش ، واستدعى جميع مناصريه وقواد الجيش وخاطبهم بقوله :

ـ نحن الآن فى مفترق الطرق ، فاذا مضينا الى الأمام فنحن انما نفعل ذلك اعتمادا على انفسنا فقط ، فان الحكومة المركزية سوف تكون ضدنا ، وقد يعنى ذلك نشوب حرب اهلية. وسيكون علينا أن نواجه مخاطر كبيرة ونبذل تضحيات جسيمة .. ومتى بدانا السير فى طريقنا فينبغى الا يفكر أحد فى الفرار او الندم أو النظر الى الخلف ! .. فعليكم ان تقرروا امركم . عليكم أن تختاروا لكم زعيما . وهناك شرط واحد جوهرى للنجاح : ان يكون لكم رجل واحد فى المقدمة ، رجل واحد يقود هذه الحركة ، ورجل واحد فقط ! .. فاذا اخترتمونى فسوف يتعين عليكم ان تشاطرونى مصيرى. لست الآن سوى مواطن مدنى ، وسوف أعتبر حتما بمثابة ثائر على النظام والحكومة . ولست اطالبكم بغير شرط واحد : أن تنفذ اوامرى وتطاع دون مناقشة كما لو كنت لا زلت قائدكم العسكرى !

واختاروا جميعا ان يستمروا فى طريقهم .. وانتخبوا مصطفى كمال زعيما لهم وقائدا ، وقبلوا الشرط الذى فرضه عليهم ، وفى مقابل ذلك اشترطوا عليه هم بدورهم الا يفعل شيئا من شأنه ان يسبب اذى للسلطان ، فى شخصه .. فقبل الشرط قائلا : « ان السلطان خاضع لقبضة العدو ولتوجيه ناصحيه الحمقى ، فينبغى ان نقاوم حاشيته كما نقاوم الاجنبى الغاصب »

كانت الوعود دائما – فى نظر مصطفى كمال – وسيلة الى غاية وسلما الى هدف ..! وهذا هو الآن قد القى القفاز فى وجه العدو الأجنبى المحتل ... وفى وجه السلطان !

وبادر مصطفى كمال بتوجيه الدعوة الى عقد « المؤتمر » الموعود ، من طريق برقيات ارسلها الى جميع المناطق هذا نصها :

– ان الوطن مهدد ، والحكومة المركزية لم تعد قادرة على القيام بوظيفتها وتأدية واجبها .. واستقلال بلادنا لن يتيسر الاحتفاظ به الا بارادة الشعب ومجهوده . لذلك تقرر عقد مؤتمر وطنى عام فى « سيواس » للمناقشة فى الوسائل والأساليب الكفيلة ببلوغ هذه الغاية .. وفى وسع كل اقليم أن يرسل عنه ثلاثة من المندوبين .. وليحرصوا على السرية التامة !

وكان مركزه الشخصى غير محدد . لم تكن له قبل انعقاد المؤتمر المذكور اية صفة رسمية . كان مواطنا عاديا مجردا من كل سلطة . بل تحاربه الحكومة الشرعية والتقاليد . وفى كثير من المدن رفضت السلطات المدنية ان تقبل اوامره !.. ولكنه من الجهة الاخرى كان يعضده قواد الجيش واكثر ضباطه وجميع اللجان الجديدة التى تنظم حركة المقاومة ويزداد نشاطها يوما بعد يوم !

لكنه كان فى حاجة الى شىء من الدعامة الرسمية !. وبعد

مشاورات مع (كاظم قره بكير) دعا القواد العسكريين ومندوبى الأقاليم المجاورة الى مؤتمر فى أرضروم . وكانت تواجهه مهمة عسيرة ، فان كثيرين من الذين حضروا هذا المؤتمر كانوا يعارضون آراءه ، بل يعارضون سعيه الى السلطة .. كانت تعتمل فى نفوسهم عوامل كثيرة من الغيرة الوضيعة . لكن مصطفى كمال – بصبر جميل وتواضع جم – اخذ يستميلهم الى صفه .. وشيئا فشيئا بدأ يدعم زعامته الشخصية عليهم ، لكنه كان يلتقى دائما بالشكوك والريب التى تعترض سبيل سيطرته الكاملة عليهم !

وفى وسط المناقشات المحتدمة جاءت الأوامر من حكومة القسطنطينية المركزية الى (كاظم قره بكير) بالقاء القبض على مصطفى كمال وفض المؤتمر واعادة مندوبى الأقاليم الى بلادهم !

وبات مستقبل مصطفى بين يدى كاظم بكير . كان هو القائد المسيطر على القوة الوحيدة النظامية فى تركيا ، وكان بفطرته نظاميا صارما ، عادلا ، محافظا ، محبا للتقاليد .. فتردد أمام هذا الحرج . كان قد وعد مصطفى كمال بأن يؤيده ، لكن ولاءه للسلطان وحكومته المركزية كان يستحثه على تنفيذ الأمر بالقبض على مصطفى ! ولم يخف نص الأوامر التى تلقاها ولا مدى الحيرة التى يعانيها ..

وبات الموقف معلقا فى ميزان يتأرجح بين شخصيتين : كاظم .. ومصطفى كمال .. فبذل هذا الأخير كل جهده وبراعته فى النقاش كى يقنع صاحبه بالانحياز الى جانبه . كان يدرك انه لو فشل الآن فقد هزم ! واعتزم – أيا كان ما يحدث – ان لا يدع نفسه يعتقل ويسلم الى السلطان والى الانجليز ، كى ينفوه الى مالطة ليقضى بقية ايامه فى زنزانة ضيقة ، او لعلهم يحكمون عليه بالشنق !.. وعاودته ذكريات الايام التى قضاها فى « السجن الاحمر » فحدث

نفسه بأنه يؤثر الموت على ان تتكرر . ودبر امره مع عارف على ان ينشدا الفرار فيما اذا فشل فى التأثير على كاظم ، فاذا افتضح امرهما قاتلا مطارديهما حتى يقتلا .. اما ان يؤسرا فلا !

واستخدم مصطفى كل بلاغته ، وحماسته فى محاولة اقناع كاظم قره بكير ..وقال له : « ينبغى ان نكون مخلصين ، لكن اخلاصنا وولاءنا يجب ان يكونا لتركيا . اما السلطان وحكومته فهما العوبة فى ايدى العدو الاجنبى ، ومن ثم فالأوامر الصادرة من العاصمة ليست فى الواقع صادرة من السلطان بل من الانجليز ، واذن فهى غير شرعية . والسـ الوحيدة الشرعية هى الممثلة فى مؤتمر المندوبين المنعقد الا وفى المؤتمر الوطنى العام المزمع ان يعقد فى (سيواس) .

وبهذا النقاش استدرج مصطفى كمال كاظم قره بكير ، متاهة من الأبحاث الفلسفية السياسية .. ثم ناشـ كزميل ، وذكره بوعده له بالمساعدة .. وكان كاظم بفطر بطيئا فى الوصول الى قرار فى أمر من الأمور ، لكنه اذ استقر عليه لم يكن ليغيره أو يتراجع عنه !..

واصدر الرجل قراره اخيرا ، بالوقوف فى صف مصطفى كمال ورؤوف والشعب !. وعقد المؤتمر فى جو من السخط على حكومة السلطان المركزية ، وانتهى الى قرار حازم هذا نصه : « تنظم مقاومة للاحتلال والتدخل الاجنبى .. وتؤلف حكومة وقتية تتولى تصريف أمور الدولة اذا عجزت الحكومة المركزية عن ذلك أو امتنعت عنه ..! »

وانتخب المجتمعون لجنة لتنفيذ قراراتهم ولتمثيلهم امام مؤتمر « سيواس » المقبل . واختاروا مصطفى كمال رئيسا للجنة ، كما اختير رءوف مساعدا له .. وكذلك انتخبوا مصطفى كمال مندوبا عن ولاية ارضروم .. وهكذا ربح

(الذئب الاغبر) الجولة الثانية الكبرى من جولات القتال .. وصار فى مركز معترف به ، يظاهره فيه كاظم قره بكير وقواته ..!

الميثاق الوطنى

اقبل المندوبون من شتى بقاع تركيا لحضور المؤتمر العام فى سيواس . جاءوا متنكرين خلال ممرات الجبال وتحت جنح الظلام !. وكانت الحكومة المركزية قد اصدرت الى البوليس امرا باعتراض سبيلهم . ولم ينج مصطفى كمال نفسه من الاعتقال الا فى آخر لحظة ! انه آمن فى ارضروم وسيواس ، حيث توجد قوات نظامية . لكن جمعا من رجال المباحث انتظروه فى الطريق ليوقعوا به غيلة ، فحذره بعضهم فى الوقت المناسب واذ ذاك لجأ الى طريق آخر يخترق الجبال ووصل الى سيواس سالما !

ولم يكن لمندوبى الاقاليم اهداف واضحة ، فاشتبكوا فى مناقشات طويلة دون نتيجة . وكان من راى بعضهم ان مقاومة الانجليز بالسلاح مستحيلة .. ولم يبد مستعدا لمواجهة الحكومة المركزية بالعداء وتعريض البلاد لخطر الحرب الاهلية غير نفر ضئيل

لكن مصطفى كمال ثابر على مناقشتهم ومقارعتهم الحجة بالحجة دون ملل ، فى صبر نادر لم يكن طبعا اصيلا فيه .. فقد كان اول من يعلم ان كل المستقبل يعتمد على نجاحه فى هذا الموقف . ومن ثم صار يجلس اليهم الساعات الطوال يجادلهم حينا ويغمرهم حينا آخر بسيل من كلامه المشتعل حماسة وحمية ، وكان بذلك يكتسح معارضتهم اكتساحا ! وكأن ايمانه برسالته التى تهدف الى انقاذ وطنه قد أمده فى ذلك الظرف الخاص بفصاحة غير عادية !

وشيئا فشيئا وطد مصطفى زعامته وسيطرته على

المجتمعين ، كما فعل من قبل فى ارضروم ، فانحاز اليه المعارضون واحدا بعد واحد لكن الأغلبية ظلت تضن عليه بثقتها .. حتى رءوف وكاظم بكير حاولا اقناعه بألا يرشح نفسه رئيسا للمؤتمر !

على ان ذلك لم يكن بذى اهمية فى الأمر ، فقد شق مصطفى طريقه بنجاح ، فى وثوق وتأن !.. كان ، بصفاء ذهنه ، يعرف ما يريد ويسعى اليه مباشرة .. وحتى الذين ضنوا عليه بثقتهم وقعوا تحت تأثير سحره فسيطرت شخصيته على الحاضرين جميعا !

ومرة اخرى خدمه أعداؤه فى استامبول .. ففى منتصف دورة المؤتمر وقع فى يد انصاره امر مرسل من الحكومة المركزية الى « على غالب » حاكم (مالاطيا) ــ وهى اقليم يقع الى الجنوب من سيواس ، فى بلاد الأكراد ــ وكان الأمر يوصى بتدبير حملة من رجال القبائل الأكراد لكى يغيروا على سيواس ويقبضوا على مندوبى الاقاليم الذين حضروا المؤتمر .. ذلك ان السلطان اعتقد انه يستطيع الاعتماد فى تحقيق غايته على التعصب الدينى والولاء له بوصفه السلطان خليفة المسلمين !

وتلقى الحاضرون هذا الأمر بحنق شديد . اعتبروا تحريض عشائر الأكراد بالقاء القبض عليهم اهانة لا يمكن السكوت عليها . ومن هنا طلبوا الى مصطفى كمال ان يرسل قوات نظامية الى مالاطيا . فأعد مصطفى حملة من فرق المشاة وراكبى البغال والحمير وارسلها دون ابطاء .. فالتقت بالاكراد ، وسحقتهم قبل أن يستعدوا للمعركة ثم طاردت زعيمهم على غالب !

وعلى اثر ذلك اكتسح مصطفى كمال معارضيه ، وكان يملك موهبة الخطيب الذى يضرم النار فى الغضبة البسيطة

فيحولها الى كراهية مروعة ! ومن ثم انتهز الفرصة فاستثار حمية الحاضرين ضد العدو الغاصب . واستصدر منهم قرارات « حامية » بالامعان فى المقاومة وتحديد الشروط التى سوف يقاتلون من اجلها ولن يرضوا عنها بديلا ، وقد أطلقوا عليها « الميثاق الوطنى » . واقسموا ألا يضعوا السلاح او يقبلوا السلام حتى يقبل العدو نصوص الميثاق ..!

وانتخب المجتمعون لجنة تنفيذية لتتولى عمل الحكومة المؤقتة المستقلة عن حكومة السلطان المركزية .. واختاروا مصطفى كمال رئيسا لهذه اللجنة .. ثم ارسل « المؤتمر » انذارا الى العاصمة بطلب عزل « فريد » رئيس الوزارة ــ الذى ثبت من المراسلات التى ضبطت مع على غالب انه الآمر بغارة الأكراد ــ واجراء انتخابات لبرلمان جديد حر !

ولما لم يصل رد على الانذار ، تولى مصطفى كمال زمام الموقف فأصدر امره الى السلطات العسكرية بالاشراف على المواصلات البرقية مع العاصمة وعزلها عن بقية البلاد .. وتحويل الايرادات وجميع المراسلات الحكومية اليه ، مع احلال أشخاص موثوق بهم مكان الموظفين المدنيين !

عندئذ اضطر السلطان الى الرضوخ ، فعزل صهره فريد وعين مكانه على رضا ــ وهو شيخ مسن لا شخصية له ــ ثم أمر باجراء انتخابات جديدة !

واسفرت نتيجة الانتخابات عن فوز حزب « المؤتمر » بأغلبية كبيرة فى البرلمان الجديد .. وانتقل المؤتمر بقضه وقضيضه الى مدينة « انقرة » ، التى كانت بحكم توسطها للاقليم أنسب البلاد التى تصلح مركزا له .. وانتخب مصطفى كمال نائبا عن ارضروم !

واقبل على انقرة كثيرون من النواب الجدد ، لعقد اجتماع

تمهيدى يتناقشون فيه فى شؤونهم .. فعرض فى الاجـ
الاول اقتراح بأن يلتئم البرلمان فى العاصمة ، وأن يحل المؤتمر ، بعد ان صار اعضاؤه نوابا رسميين .. لكن مصطفى كمال عارض الفكرتين فى شدة واصرار ، قائلا : « ان المؤتمر ينبغى ان يستمر ، حتى يظهر مدى التزام البرلمان للعدالة وتستبين سياسته . اما الانتقال الى العاصمة فليس سوى حماقة جنونية .. انكم لو فعلتم ذلك لاصبحتم تحت رحمة العدو الاجنبى ، فالانجليز ما زالوا هم المسيطرين على البلاد . وسوف تتدخل السلطات فى اموركم ، وربما اعتقلتكم ! واذن ينبغى ان يعقد البرلمان هنا فى انقرة ، كى يظل حرا مستقلا »

لكنه فى هذه المرة هزم ، فلقد فرح النواب جميعا بكونهم قد انتخبوا انتخابا شرعيا ولم يعودوا يعتبرون ثوارا ، فاعتزموا أن يذهبوا الى دار البرلمان فى العاصمة ، ليكونوا هناك فى ظل الحاكم الشرعى للبلاد .. السلطان وحيد الدين !

واذ فشل مصطفى كمال فى بلوغ غايته حاول ان يملى على النواب رايه فى واجباتهم واتجاهاتهم ، لكنهم ابوا عليه تدخله وادعاءه التفوق عليهم !

وبقى مصطفى كمال فى انقرة ، يرقب ساخرا جموع النواب الذاهبين الى العاصمة ، ورؤوف فى مقدمتهم !.. وقرر ان يدع مقعده فى البرلمان الجديد شاغرا ، ولا يشترك فى هذه الحماقة !

وانتقل مركز النشاط من انقرة الى القسطنطينية ، وانتقلت الزعامة من مصطفى كمال الى رؤوف .. وفى كل مكان ــ بين النواب ، وفى الاقاليم ، وفى انقرة ، وحتى فى صفوف الجيش ــ حدث رد فعل لمصلحة السلطان والحكومة المركزية ، وسادت رغبة حارة فى تجنب الشجار بين تركى وتركى ، والظهور بمظهر الشعب المتحد فى جبهة واحدة

تحت زعامة الحاكم الشرعى .. وبدا كأن السلطان هو الذى فاز ، ومصطفى كمال هو الذى خسر !

على ان مصطفى كمال لم يتزعزع ، فقد استقر رايه على شىء . انه لم يتغير ، او يتردد ، او يضعف .. وما زال عند رايه من ان المقاومة المسلحة للغاصب الاجنبى هى كل الامل الباقى فى انقاذ البلاد !.. وكان يعرف السلطان خير المعرفة . ان وحيد الدين لن يأنس من نفسه يوما الشجاعة على استعمال القوة ضد الانجليز . ثم ان ذلك مستحيل التنفيذ من العاصمة ، حيث يسيطر الانجليز على كل شىء .. وهو مقتنع تمام الاقتناع بأن البرلمان المنعقد فى القسطنطينية لا بد ان يفشل .. ونوابه لا بد أن يعودوا اليه مقرين بخطئهم !.. وبلغ من ايمانه بهذه النتيجة انه حاول ان ينتخب ــ غيابيا ــ رئيسا للمجلس ، كى يتسنى له ان يعالج الازمة حين تقع ..!

لكنه فشل فى بلوغ امنيته هذه .. وبرغم ذلك واصل نشاطه فى اعداد القوة المسلحة ، وجمع الرجال والسلاح ، والاشراف على تدريب الجنود !

جيش الخليفة

وصل النواب الى العاصمة واجتمع شملهم فى جو من الجذل والغبطة وارسلوا برقية الى السلطان يعربون فيها عن ولائهم له .. ثم عكفوا على عملهم بهمة كبيرة .. وكان ذلك فى مستهل يناير سنة ١٩٢٠ .

لكنهم لم يكونوا فى حالة نفسية يحسدون عليها . فقد جلسوا فى مقاعدهم ليدافعوا عن حقوق تركيا ، ومن ثم لم يلبثوا ان رفضوا ــ بزعامة رؤوف القوى الشكيمة ــ كل محاولة من السلطان او الانجليز لاملاء ارادتهم عليهم .. فى

الوقت الذى طالب فيه الانجليز بالطاعة السريعة لجميع اوامرهم ، فأهمل النواب طلبهم وتجاهلوه !

وهنا طلب قائد القوات المتحالفة عزل وزير الحربية ، فوافق السلطان ، لكن النواب احتجوا .. وجوابا على هذا التحدى اقروا ثم نشروا « الميثاق الوطنى » الذى اعدوه فى مؤتمر ارضروم ، وهو المشتمل على الشروط والمبادىء التى يقبلون السلام على اساسها : واهمها أن تكون تركيا حرة مستقلة داخل نطاق حدود مقررة !

وكان ذلك تحديا مباشرا للعدو الظافر ولجيش الاحتلال !

واذ لم يحرك الانجليز ساكنا امعن النواب فى الصلابة ، ولا سيما أن الحوادث فى كل مكان كانت تعمل لمصلحتهم . ففى شمال سوريا هاجم الأتراك المحليون غرماءهم الفرنسيين واجبروهم على التقهقر .. وفى « أورفا » و « عينتاب » حوصرت الحاميات الفرنسية . والانجليز بدورهم كانوا ينسحبون فى جميع الاتجاهات ، من القوقاز الى القرم الى الاناضول ، بعد ان سرحت جيوشهم

وفى طول البلاد وعرضها باتالأتراك يرفضون تنفيذ اوامر جيش الاحتلال . وقرر ضباط المراقبة انهم قد تجوهلوا ، بل اهينوا فى بعض المناسبات .. ولم تعد الأسلحة تسلم الى الانجليز ، واستدعيت القوات الى الخدمة من جديد ودربت تدريبا افضل .. وخولفت شروط الهدنة أكثر من مرة . واغارت جماعة من الأتراك على مستودع للذخيرة فى غاليبولى وحملوا معهم عند انصرافهم حارسه الفرنسى وماكان يحتويه المخزن من سلاح .. ومع ذلك لم يتيسر القبض على هؤلاء ومعاقبتهم !

وقرر الانجليز ان يتخذوا اجراء عنيفا يخيف المتمردين .. ولكن سحب البقية الباقية من القوات الانجليزية من داخل البلاد حال دون اتخاذ هذا الاجراء العسكرى الا فى العاصمة

ذاتها .. ومن ثم احتلوها يوم ١٦ مارس احتلالا رسميا والقوا القبض على بعض النواب ، ومنهم رؤوف وفتحى وغيرهما من كبار الوطنيين وتولوا ترحيلهم الى معسكر اعتقال فى مالطة .. ثم اغلقوا دار البرلمان ..!

وعمد جميع زعماء الأتراك فى العاصمة الىالاختباء اوالفرار الى الأناضول ، كما فر الى أنقرة كل من « عصمت » و « فوزى » من رجال وزارة الحربية ، والكاتبة الكبيرة « خالدة » وزوجها عدنان !

وكان السلطان يتابع انباء هذه الأحداث وفى عزمه ان يبيد الثوار ويستريح منهم . وكانت شروط الهدنة ورقابة لجنة مراقبى الحلفاء تمنعه من استخدام القوات النظامية .. فامر بأن ترسل اليهم القوة غير النظامية التى الفها — بناء على رغبة جلالته — وزير الحربية « سليمان شوكت باشا » واطلق عليها « جيش الخليفة » .. كما كلف الوعاظ ورجال الدين فى سائر انحاء تركيا بأن يستثيروا نخوة الجماهير كى تقف فى صف الخليفة والعرش. فاستجاب الناس فى كل مكان للدعوة الجديدة ، وهبت جماعات متفرقة منهم لنصرة السلطان .. وسرعان ما نشبت الحرب الاهلية من ادنى البلاد الى اقصاها ، فانقسمت المدينة ضد المدينة ، والأسرة ضد الأسرة ، وانقلب الاخ على اخيه والاب على ابنه !.. واشتعلت الثورات فى كل مكان على غير انتظار ، وبلا مقدمات ، وكان رجال السلطان واعوانه يشعلونها كلما اخمدها مصطفى كمال وانصاره . وهكذا صار التركى يقتل اخاه التركى ، أو يرجمه بالأحجار ، ويشنقه او يصلبه .. فى حمى من الكراهية الضارية لا نظير لها !

وبلغ من اساليب القسوة التى استعملت ان عمد رجال السلطان فى « قونية » الى انتزاع اظافر الضباط الذين

ارسلهم مصطفى كمال ، ثم قيدوهم الى ذيول جيادهم وتركوها تجرهم على ارض الطريق باقصى سرعتها !.. فانتقم انصار مصطفى كمال للضحايا باعدام قادة المدينة رميا بالرصاص !

واعاد السلطان صهره ومستشاره فريد الى رياسة الوزارة ، وابعد عن خدمته كل الذين ابدوا ميلا الى « الوطنيين » ... واصدر نداءات متكررة ناشد فيها جميع رعاياه المخلصين ان يهبوا لنجدته ضد « خونة انقرة » ..واخيرا اصدر مرسوما خاصا باعتبار مصطفى كمال واعوانه خارجين على القانون ومستحقين للموت ، واعلن ان من يقتلهم يؤدى بذلك واجبا مقدسا يكافأ عليه فى دنياه وآخرته !

ووصلت انباء هذه الأحداث جميعا الى انقرة فى امسية من امسيات أوائل الربيع وبرد الشتاء ما يزال فى الجو . وكان مصطفى كمال جالسا فى بهو مدرسة الزراعة ، داخل مبنى حجرى صغير فوق التلال الواقعة خارج المدينة . والى جانبه الكاتبة خالدة اديب وزوجها عدنان وعلى فؤاد ، ثم عصمت الذى كان متكئا بمرفقه على اطار النافذة يتطلع الى الخارج . وتهامس الحاضرون بالانباء فى صوت خافت ، خشية ان يبرز لهم من الظلال رسول من السلطان او متعصب دينى مؤمن بخرافة القتل المقدس !.. كان الموت يكمن لهم وراء كل شبح ، بعد ان امسوا فى نظر الجهلاء منبوذين محكوما عليهم بالموت ، يستحق قاتلهم ثواب الدنيا والآخرة !

وكانت الأنباء جميعها سيئة تثير الكآبة .. فاليونان قد استأنفوا زحفهم من ازمير ، وراحوا يحرقون ويقتلون ويكتسحون الاقليم بلدا بلدا .. والفرنسيون بدورهم قد

حرزوا بعض النجاح فى الجنوب .. وعملاء السلطان قد اثاروا رة الأكراد فى الشرق .. والحرب الأهلية تحدق بهم من جانب ، وقد امتد لهيبها الى «بولو» وانتشر منها بسرعة صار الثوار على قيد اميال قليلة من انقرة ذاتها ؟ ! واسلاك البرق قد قطعت اكثر من مرة . وارسل ضابطان للتفاهم مع الجماهير فرجما بالأحجار وسيقا الى السجن ثم الى العاصمة كى يشنقا باعتبارهما خائنين !. والفرقة التى ارسلت لقمع الثورة تفرقت وتشتت شملها .. والفرقة الرابعة والعشرين التى أرسلت الى « جندك » وقعت فى كمين وابيدت عن آخرها ..!

واحرز « جيش الخليفة » نجاحا بارزا ، فاستولى على عدد كبير من المدن واعلن خضوعها للسلطان .. وسادت البلاد موجة من روح الهزيمة ، وفى ذلك اليوم نفسه توجه وفد من نساء انقرة الى مقر مصطفى كمال فى مدرسة الزراعة وخاطبنه قائلات : « لقد قتل رجالنا فى الدردنيل ، فلماذا نستشهد مرة اخرى فى انقرة لان الانجليز يحتلون العاصمة .. فلتعن العاصمة بشأنها فالقتال عقيم وميئوس منه .. ونحن نريد السلام ! »

وقبع مصطفى كمال فى مقعده صامتا ، وقد تدثر بمعطفه الاغبر ووضع على راسه طربوشه الرمادى المصنوع من فراء استراخان ، ومال ذقنه فوق صدره ، واربد وجهه ، وزاغت عيناه !

كان قائدا بغير جيش !. ورئيس حكومة مؤقتة مجردا من المال والسلطة وسائر مقومات الحكومات !.. لقد وضع خططا رائعة لانقاذ تركيا من قبضة الاجانب وجعلها دولة مستقلة عظيمة ، لكنها مزقت بين براثن الحرب الاهلية ، وما زال العدو يحتويها فى قبضته !.. ان كل ما عمل من اجله

مصطفى كمال ، وجميع خططه الرائعة ، قد بددتها الرياح . .
ولم يعد هو نفسه اكثر من ثائر مطارد وضعت الحكومة ثمنا لمن يأتيها برأسه !

وفى الخارج كان الظلام حالكا . . وخلف أشجار السنط ، وسط السماء الباردة وفوق الظلال السوداء للجبال الغربية لاح الهلال الفضى بشيرا بقمر جديد . وفى مزرعة عند اقدام التل كان كلب الحراسة الهائل المخيف « كاراباش » ينبح فى وجه القمر !

واصغى مصطفى كمال لنباح الكلب الذئبى الأغبر ثم قام منتفضا وكأنه حيوان مفترس !

انه سوف يقاتل !. وقد تبخر من نفسه اليأس !. انه حى وممتلىء حيوية !

وشاعت روحه فى البهو كله ، وكهربت الآخرين ، فبعثت فيهم الأمل الذى كان قد خبا . ثم صاح مطالبا باضاءة نور يبدد الظلمات والأشباح . . وطلب من عارف وزملائه من هيئة اركان حربه ان يتلقوا منه الاوامر ، ومن آخر ان يحرك النار الهامدة فى المدفأة !

نعم . . انه سوف يقاتل ، سوف ينقذ تركيا ويخلق منها دولة عظيمة حرة !

كان مصطفى كمال فى الوقت الذى قرر فيه مواصلة القتال قد عاوده مرضه القديم ، فسبب له آلاما حادة تصحبها حمى مرتفعة . وهكذا عاش فى حالة خطر دائم على حياته !. .
كانت القرى المحيطة بأنقرة تنضوى واحدة بعد الاخرى تحت لواء السلطان وتنضم الى (جيش الخليفة) . وبات من المحتمل فى اية لحظة ان تنشب الثورة فى انقرة ذاتها ، او يقع هجوم مفاجىء على مدرسة الزراعة ، فيقتلوا جميعا عن بكرة أبيهم . وكان الحراس يشاهدون أشباحا مريبة

تحوم حول البناء اثناء الليل . وفى ذات صباح وجد كلب الحراسة الهائل « كاراباش » مسموما امام عتبة الدار !

وكان مصطفى كمال وعارف ينامان بثيابهما الكاملة ، ويتناوبان الحراسة فينام الاول فى الساعات المبكرة من النهار ، وينام الثانى فى المساء . . وفى الفناء الأمامى بقيت جيادهما مسرجة ومعدة للانطلاق براكبيها فورا الى « سيواس » عند حدوث ما يقتضى ذلك . . وتعلمت « خالدة » كيفية استخدام المسدس ، وحمل عدنان بك السم فى جيبه كى يلجأ اليه عند الضرورة فينجو من العذاب المروع الذى ينتظره لو وقع اسيرا فى يد جيش الخليفة !

وظل مصطفى كمال يعيش على هذا المنوال فى حالة ارهاق دائم نفسانى وجثمانى ، وقد مزقه الاعياء وهده المرض ، من غير ان ينال قسطا من الراحة !

كان يعمل طيلة النهار وشطرا من الليل وهو جالس الى مكتبه فى ركن من البهو الرئيسى ، على ضوء مصباح بترول ذى لهب أصفر ، يدرس الخطط ويناقش المشكلات ويصغى الى التقارير ويصدر الأوامر . . وكانت البرقيات الوافدة ذات معنى واحد : مدينة بعد مدينة تستسلم لجيش الخليفة ، وفشل وراء فشل فى كل مكان . . !

واثناء ذلك كله لم يكن مصطفى كمال يكف عن تناول القهوة السوداء وتدخين السجاير المتتابعة فى نهم وعصبية ، حتى كان رمادها يتراكم فى المنافض ويتناثر فوق المنضدة . . . ومن خلفه كان عصمت فى ردائه الأسود يذرع البهو ذهابا وجيئة طيلة الليل وقد عقد يديه وراء ظهره ، يطل من النافذة آنا ، ويتجه الى مصطفى كمال ليتشاور معه آنا آخر . . لا يكاد يجلس أو يستريح . . وفى حجرة اخرى كان فوزى منهمكا بدوره فى العمل !

على هذا النحو قاتل مصطفى كمال كما يقاتل الوحش الحبيس فى ركن ضيق ، لا يشفق ولا يطالب خصمه بأن يشفق عليه !.. كان يقضى بالموت على كل رجل من اعوان السلطان يقع فى يده .. وحين ساله قائد امريكى عما يعتزم ان يفعل اذا فشل الوطنيون ؟.. اجابه صائحا : « الشعب الذى يبذل اقصى ما فى وسعه فى سبيل حياته واستقلاله لا يمكن ان يفشل !. فالفشل معناه ان الشعب قد مات ! »

لكنه كان يعلم ان الشعب لم يمت بل هو حى ! وكان هذا الايمان بالشعب يملأ جوانحه ، ويتغلغل فى دمه ، وفى كل كلمة ينطق بها ، وكل امر يصدره وكل خطبة يلقيها .. فأشعل فى الوطنيين نار حماسة جديدة . كان يصيح بهم : « انتصروا او دعوا العدو يسحق جثثكم ! » فكانوا يجيبونه بعاصفة من التصفيق وتنتابهم نوبة من الحماسة الجارفة التى تكتسح من يقف فى طريقها ..!

وهكذا اوقفوا الزحف اليونانى .. واخمدوا الثورات المتفرقة التى اشعلها اعوان السلطان ، وحرروا انقرة من الخطر المحدق بها .. ثم هاجموا « ماراش » وابادوا حاميتها الفرنسية والأرمن الذين جندتهم .. ثم حطموا شوكة الاكراد .. واكتسحوا القوات الايطالية الرابضة على طول السكة الحديدية فى قونية .. وهاجموا الحامية الانجليزية عند السكة الحديدية فى (اسكى شهر) ثم طاردوها الى البحر .. واعتقلوا جميع ضباط مراقبة الحلفاء الذين استطاعوا ان يضعوا ايديهم عليهم فى الداخل ، واحتفظوا بهم كرهائن مقابل النواب المعتقلين فى مالطة !

□

وشاعت فى اقاليم تركيا وقراها انباء احتلال الانجليز

للعاصمة وحركة الاعتقالات التى اقدموا عليها ، واغلاق دار البرلمان بالقوة ، ومؤازرة السلطان وحكومته لهم .. فتبخرت حماسة الشعب المناصر للسلطان والحكومة المركزية ، واثبت الاباء الوطنى وجوده فانحاز الراى العام الى الوطنيين ، وتبددت ريح الهزيمة فى امواج الحماسة الغاضبة .. وادرك كل تركى أن لا سبيل لتطهير العاصمة ما دامت سيطرة الانجليز عليها !

كان مستحيلا ان يثق احد فى السلطان او حكومته . ولقد اصاب مصطفى كمال فى رايه : لا بد من ان ينقذ الشعب نفسه وينقذ تركيا من براثن الغاصب الاجنبى بالمقاومة المسلحة ..!

ومن شتى الجهات اقبل الرجال والنساء من جميع الطبقات ليسجلوا اسماءهم فى سجلات المتطوعين : النساء القرويات ليحملن الذخائر والأسلحة ، ونساء الأسر الكريمة ليتولين التمريض والحياكة .. وتطلع الجميع بأبصارهم وآمالهم نحو « مصطفى كمال » !

وفر كثيرون من جنود « جيش الخليفة » من صفوف جيشهم ، وآخرون أبوا ان يقاتلوا ، وقتلوا قوادهم !.. وجاء من العاصمة نواب يلتمسون مهربا من الاعتقال ، كما جاء منها ضباط وقادة ووزراء ، ومدنيون اغنياء وفقراء.. جاءوا بأسرع ما استطاعوا عبر ممرات سرية فى الجبال وفى ثياب تنكروا فيها للافلات من البوليس الانجليزى المرابط حول المدينة !

واصدر مصطفى كمال منشورا بالدعوة الى انتخاب برلمان جديد يكون مقره « انقرة » .. وأعاد النواب الهاربون — بالاشتراك مع رئيس البرلمان — افتتاح البرلمان الذى أغلقته القوة الغاشمة فى العاصمة ، واقروا مرسوم الى انتخاب برلمان جديد !

واقبل النواب الجدد ، الفائزون فى الانتخابات الجديدة ، الى انقرة وقد امتلأت صدورهم حماسة للكفاح .. واطلقوا على انفسهم اسم « الجمعيــة الوطنية الكبرى » واعتبروا انفسهم الحكومة الشرعية لتركيا .. ثم انتخبوا ــ باجماع الآراء ــ مصطفى كمال رئيسا للجمعية !

ان الرجل الذى كان بالأمس وحيدا منبوذا ، بات اليوم زعيما معترفا به ويلتف حوله الأتباع !.. وقد رد بوصفه رئيسا للجمعية الوطنيةعلىرسالة تلقاها من رئيسالجمهورية الفرنسية فقال مزهوا : « ان الجمعيــة الوطنية الـكبرى المنعقدة الآن فى تركيا سوف تشرف على مصير تركيا طالما بقيت العاصمة فى يد الغاصب الاجنبى !.. وقد الفتالجمعية مجلسا تنفيذيا اخذ على عاتقه تصريف شؤون البلاد وحكمها ...ولما كانت العاصمة والسلطان وحكومته تحت سيطرة العدو .. فان جميع الأوامر الصادرة منهم تعتبر ملغاة وكأن لم تكن !.. ان حقوق الشعب قد انتهكت والشعب التركى برغم هدوئه يعتزم المحافظة على حقوق بلاده كدولة مستقلة ذات سيادة ، وهو يبغى سلما عادلا مشرفا تكفله معاهدة صلح يرتضيها ممثلوه الشرعيون ! »

والى جانب هذا الايمان بالوطن ، الذى املى على مصطفى كمال هذه الرسالة ، كان يطوى جوانحــه على زهو عظيم بتركيته ، زهو خليق بجنس ذى ماض عريق وتاريخعظيم .. وحين تلى عليه خطاب القاه (لورد جراى) تحدث فيه عن الاتراك بلهجة الأنفة والتعالى عليهم ، استشاط غضبا وصاح بصوت صارخ حاد مفعم بالسخط : « هؤلاء الانجليز سوف يعلمون اننا مثلهم بل افضل منهم كثيرا !. ولسوف يعاملوننا على قدم المساواة !. ولن نحنى لهم هاماتنا يوما !.. سنقف ضدهم حتى آخر نسمة ، حتى نحطــم حضارتهــم فوق رؤوسهم ! »

حول مائدة الصلح

هناك فى باريس ، حول مائدة مؤتمر الصلح ، جلس ساسة الحلفاء : الرئيس ويلسون ، ولويد جورج ، وكليمنصو .. يحيط بهم مساعدوهم ، ويتسقط انباءهم كل يوم وكل ساعة خمسمائة صحفى من شتى اركان العالم !..جلسوا يرسمون مستقبل الدنيا ويصدرون اوامرهم الخطــيرة كما لو كانوا آلهة !

واستداروا فى قلق .. ان شيئا غير عادى يحــدث فى تركيا !.. وتساءلوا منفعلين : « ما هذا كله ؟.. لقد هزمت تركيــا فى الحرب العالميــة وانتهى امرها ! » .. وكانوا قد سمعوا بمصطفى كمال ، القائد الذى كان له بعض الشأن فى معركة الدردنيل ، والذى صار مغامرا غير مرغوب فيــه وثائرا ضد السلطان يعيش فى مكان ما بين الجبال فى الأقاليم الداخلية من تركيا !

وتحت ضغط ناصحيهم اعد الساسة العظــام معاهــدة صلح خاصة بتركيا ، اطلقوا عليهــا معاهدة « سيفر » ثم نشروا نصوصها ..!

لكن نشر نصوص هذه المعاهدة كان له رد فعل مباشر ، فقد كانت تلك النصوص ــ اذا قبلت ــ بمثابة حكم على تركيا بالاعدام !.. كان من مقتضاها ان تترك الأناضول للأتراك ، بعد اذ اقتطعت منها ازمير . لكن كل حركة وسكنة من حياتهم كانت تصبح موضع مراقبة : ماليتهم تخضع لاشراف صارم .. وجيشهم يسرح وتحل محله قوة جديدة قوامها المتطوعون ومهمتها تولى امور الضرائب ، وحرس الغابات ، والبوليس . وهكذا يقيــد الأتراك بهــذه القيود الخانقة بينما يتركون متمتعين ــ اسميا ــ بحقوق السيادة !

وسرعان ما آمن كل تركى اصيل بوجوب مقاومة هــذا

الحكم !.. ان الأتراك الذين عاشوا خمسمائة عام شعبا حاكما لن يصبحوا بين غمضة عين وانتباهتها عبيدا !.. ومن ثم نسوا غيرتهم القديمة المتبادلة وانضووا جميعا تحت لواء مصطفى كمال .. فها قد تحقق كل ما نبه اليه من قبل !

واستجابوا لدعوته فكشروا عن انيابهم ، وسحقوا ما تبقى من جيش الخليفة .. وطهروا المناطق الثائرة ضد انقرة وانهوا الحرب الاهلية .. وتعاهدوا على الانتقام من « فريد » وناصحى السلطان الذين لن يعارضوا المعاهدة .. ثم نصبوا مصطفى كمال زعيما ، ولقبوا انفسهم بالكماليين بدلا من الوطنيين !. ثم انطلقوا ليهزموا اليونان والحلفاء الذين يظاهرونهم !

وكان مصطفى كمال على أتم استعداد : الف مجلس وزراء مقاتل ، من : بكير سامى ، وعدنان ، وفوزى ــ الذى نيط به تنظيم الدفاع الوطنى ، ولا سيما فيما يتعلق بالذخيرة والتموين ــ وعصمت كرئيس لهيئة اركان الحرب.. اما رؤوف وفتحى وبقية القواد فكانوا ما يزالون معتقلين فى السجن الانجليزى بمالطة !

وفى الجنوب هاجم الأتراك المحليون « بوزانطى » واجبروا الفرنسيين على الانسحاب والتوقيع على اتفاق الهدنة !.. وفى الشرق طهر « كاظم قره بكير » الحدود من الأرمن ، واشاع الأمن فى تلك المنطقة . والآن جاء دور مصطفى كمال فأصدر امره بالاطباق على العاصمة ذاتها . ولم يكن قد بقى فى تركيا بأسرها من قوات الاعداء غير اليونان فى منطقة ازمير والقوات المتحالفة فى العاصمة وحولها !

وفى الجانب الأوربى ــ من تركيا ــ زحف الجنرال جعفر طيار بجيوشه التركية الى الأمام .. وفى الجانب الأسيوى هاجم على فؤاد « ازميد » وامسى يقف امام الانجليز وجها

لوجه !.. واذ راى انهم لا يحتلون الا الشاطىء الجنوبى أرسل فرقة فرسانه غير النظاميين حول جناحهم .. نحو البوسفور راسا .. فهاجموا القرى واحرقوها ، على بعد ميل واحد عبر الماء من مكاتب قائد قوات الحلفاء !.. اما القسطنطينية بجيش الاحتلال المزعوم المرابط فيها ، ومندوبى الحلفاء الذين يمثلون الدول العظمى الظافرة ، فقد كانت مفتوحة فى وجه اى هجوم مباشر .. وكانت القوات الانجليزية فى منطقة أزميد من القلة بحيث لا تقوى على صد هجوم الأتراك ..!

وبات الحلفاء مسلوبى الحول والطول ، واستيقظ ساستهم فى باريس ليجدوا انفسهم مجردين من القوة التى تكفل تنفيذ قراراتهم الجبارة الخطيرة .. كان كل بلد فى أوربا نهبا لرد فعل شديد اعقب الحرب ، وكانت جيوش الدول جميعا قد سرحت .. فضلا عن انشغال ايطاليا بقمع ثورة شيوعية ، وانشغال فرنسا باضطرابات سوريا وبمخاوفها من الالمان.. أما الامبراطورية البريطانية فقد تلقت من الضربات ما كاد يقوض أركانها : ففى ايرلندة نشبت الحرب الاهلية ، وفى الهند نشبت الثورات وحركات التمرد والعصيان .. علاوة على الحرب مع افغانستان .. وامريكا ابت التدخل..وهكذا لم يبق لدى الحلفاء جندى واحد يستطيعون ارساله الى تركيا ! وكان عليهم ان يقاتلوا او يفروا ، ولم يكونوا راغبين فى القتال ولا قادرين عليه ..!

وكان جيش الحلفاء فى القسطنطينية قد خفض الى بضعة آلاف ، فرسم القائد العام خطته واعد جميع المعدات على ساس الجلاء العاجل : فأحرقت المستندات ، ودمرت المخازن اتلفت الذخائر ، ولغمت القناطر كى تنسف عند الاقتضاء.. ربضت سفن الأسطول فى خليج القرن الذهبى على تمام لأهبة للرحيل ..!

ووقف مصطفى كمال يرقب ذلك كله وقد انتشى بفرحة النصر . كان يكفى ان يصدر الى جنوده اشارة بيده ليطاردوا الحلفاء « المنتصرين » حتى يطردوهم من ارض تركيا ؟.. وسرعان ما امر بتجنيد كل رجل لائق .. وفتحت سفن الاسطول الانجليزى افواه مدافعها على الأتراك المحتشدين امام ازميد ، لكن ذلك لم يكن ليصدهم صدا نهائيا ، بل كان اقصى اثر محتمل انه قد يحوجهم الى بضعة ايام يستردون فيها قواهم كى يخترقوا خط دفاع الأعداء الضعيف ثم يزحفوا الى العاصمة ويقطعوا مواصلات جيش الحلفاء !

□

وتلفت الأقطاب الثلاثة المجتمعون حول مائدة الصلح فى باريس حولهم حائرين عاجزين .. لقد ادركوا اخيرا ما يحدث : ان الأتراك ــ بقيادة زعيمهم المغامر الثائر مصطفى كمال ــ يوشكون ان يطردوا الجيوش المتحالفة من بلادهم !.. اى ان حفنة من الاتراك المهلهلى الثياب يطردون جيوش الحلفاء الظافرين !. واذن يجب تدارك ذلك بأى ثمن ! فان مثل هذه الكارثة قد تفسد كل شىء ، وتثير الثورات فى جهات اخرى ، وتؤثر فى خطط الحلفاء الرائعة لتنظيم العالم !

ولكن كيف توقف الكارثة ؟ !.. ذلك هو السؤال الذى تبادله الملتفون حول مائدة مؤتمر الصلح فى باريس وفى مقدمتهم ويلسون ولويد جورج وكليمنصو ، لكنهم لبثوا حائرين عاجزين لا يجدون الجواب المطلوب !

وكان « فنزيلوس » رئيس وزارة اليونان يهدف طيلة حياته الى ان يجعل بلاده امبراطورية تملك ساحل الاناضول الغنى وتكون عاصمتها القسطنطينية !.. وقد جاهد عشرين

عاما كاملة فى الحاح ومثابرة لتحقيق هذا الحلم ، فانشأ مع الصرب وبلغاريا « عصبة دول البلقان » التى هاجمت تركيا سنة ١٩١٣ ، واجبر بلاده على الانضمام فى الحرب العالمية الى صف الحلفاء الظافرين .. وكان مظهره البشوش ووجهه الهادىء ونظارته ، قد خلعت كلها عليه بساطة شبه صبيانية ، أخفت وراءها صواب حكمه وبعد نظره ودقة حسابه !

وكان قد حشد فى جبهة أزمير جيشا جرارا من خيرة قوات اليونان ، وابتاع من الانجليز والفرنسيين مستودعاتهم الحربية الفائضة عن حاجتهم وزود جنوده بالسلاح والذخيرة والسيارات المصفحة وخير وسائل المواصلات والاسعافات الطبية كما ارسل احسن ضباط جيشه الى أزمير وألهب حماسة القوات بروحه المشبعة بآمال الأمبراطورية المرموقة. ثم تطوع ــ فى مقابل مزيد من الأراضى فى تركيا الأسيوية والأوربية ــ لأن يضع جيش اليونان رهن تصرف الحلفاء ، كى يستخدموه وفق هواهم فى قسر الأتراك على قبول معاهدة الصلح المعروضة !

وسرعان ما قبل الأقطاب الثلاثة مرحبين هذا الذى اقترحه فنزيلوس !. ورجوه ان يعجل باطلاق جيشه من عقاله كى ينقذهم من خصومهم الأتراك . وفيما كان مصطفى كمال يحشد جنوده ويهيب بهم ان يهاجموا العاصمة بدأ اليونان زحفهم ، فى اليوم الثالث والعشرين من شهر يونيه سنة ١٩٢٠ .. فأحرزوا فى جميع الجهات نجاحا يسيرا ، فقد كانت قوات مصطفى كمال النظامية لا تزيد على بضع فرق سيئة التسليح مؤلفة من جنود ناقصى التغذية!.. اما بقية قواته فكانت تتألف من « عصابات » غير نظامية لا تقوى على مواجهة الجيش اليونانى الذى ينعم فى بحبوحة من السلاح والغذاء والمواصلات الموفورة والاسعافات الطبية ..!

وهكذا اتجـه قسم من جيش اليونان الى « ثريس » ، حيث طوق جيش الأتراك الاول بقيادة جعفر طيار واسره .. ثم دخل ادرنة وطهر الاقليم الواقع فى الجانب الأوربى خلف العاصمة من جميع القوات التركية التى كانت فيـه ، وفى الوقت نفسه زحف قسم آخر من الجيش اليونانى من ازمير نحو الشمال ، فارغم الأتراك المدافعين على التقهقر عند ازمير وطهـر جميع المسـالك المؤدية الى العاصمـة من الجانب الأسيوى !.. اما القوة اليونانية الرئيسية فقد تقدمت فى طابورين نحو السكة الحديدية الممتدة من الشمال الى الجنوب عبر الأناضول ومراكز التقائها الهامة فى « اسكى شـهر » و « افيون » .. فلما بلغت منتصف الطـريق تلقت امرا بالتوقف وحفر الخنادق للاعتصام بداخلها ، تنفيذا لرغبة الحلفاء فى الا تتقدم خطوة الى الأمام أكثر من ذلك !

وهناك بين الجبال والهضاب ، حيث لا طرقات تربط بين اجزائها ، اجبرت القوة على تشييد خط دفاعى جديد .. وقد اعتصمت بهذا الخط نحو ستة اشهر ، وطدت خلالها مواقعها .. فلم يحل خريف سنة ١٩٢٠ حتى كان ذلك الخط الدفاعى قد « تبلور » . بينما كان السلطان والحكومة المركزية فى العاصمة دائبين على اصدار المنشورات ضـد الثوار المتمردين الذين لم تكسر شوكتهم بعد !

واصـدر مصطفى كمـال امره بترك قوات متفرقة غير نظامية فى خط القتال للتمويه على الأعداء .. بينما سحب جميع قواته النظامية الى المناطق الجبلية فى الداخل !

بدء انتصار الكماليين

كان الاتراك قد ثبطت عزائمهم تلك الهزيمة الجديدة أمام القوات اليونانيـة وخلفتهم أشباه يائسين !.. وبدأ بعض الجنود يهجرون فرقهم النظامية بعد أن عادت صيحة الملل

من الحرب واستجداء السلام تتصاعد من القرى التركية .. أما فى أنقرة فقد طالب الساسة بمعاقبة المسئولين ، وهما : علي فؤاد قائد الجبهة الغربيـة ، ومصطفى كمال المسئول الأول عما حاق بتركيا من عناء !..

وهكذا اكتسحت البـلاد مرة أخرى موجة من القنوط والاعياء وخيبة الأمل ، وطالب الشعب بمنحه السلام بأى ثمن ، وبوقف ذلك الجهاد العقيم ضد الاقدار !

ولكن مصطفى كمال بقى رابط الجأش ثابت الاعصاب!.. لقد كان تعتريه أحيانا نوبات من الكآبة ، لكنه سرعان ما تعاوده الحماسة الجارفة ! ولم يكن يصدر فى كل ذلك عن وحي من الاحداث الخارجية بقدر ما يستجيب للوحى المنبعث من أعماق نفسه !. بل كثيرا ما كان يتصرف بعكس اتجاه الاحداث الخارجية فيستحثه الفشل ويغريه ببذل مزيد من الجهد والتضحيات !

وكانت هذه حاله فى تلك الآونة .. عقدت « الجمعيـة الوطنية الكبرى » اجتماعاتها فى احدى قاعات الدراسـة بمدرسة الزراعة المهدمة . وواجه مصطفى كمال — فى غير تردد — النواب الصاخبين الذين ارتفعت صيحاتهم تطالب بدمه !.. وحين وقف أمامهم لم يكن مظهـره بالذى يؤثر فيمن يراه .. كان رجلا متوسط « الحجم » أزرق العينين ذا وجه أغبر ، معبر مغضن ، لا يجذب أحدا فى لحظات صمته !

لكنه لم يكد يبـدأ كلامه حتى خفتت الضجة ، وأثبتت شخصيته وجودها .. وصوته الذى كان فى حديثه العادى خشنا غير واضح صـار واضحا مدويا ، مفعما بالعـاطفة والقوة ، مفعما بايمانه الوطيد برسالته وبنفسه !..

وأخذ يناقش النواب فى تعقل ، متمشيا معهم فى منطقهم فقال لهم : « ينبغى ألا تنتظروا من الجيش التركى أن يصمد

للجيش اليونانى فى هذه المرحلة الباكرة من اعداده ٠٠وان حاشـية السلطان وناصحيه هم المسئولون عن الهزيمة ، لأنهم سمحوا بتسريح الجيش القديم وتسليم ذخائره للأعداء ٠٠ ولأنهم بدأوا الحرب الاهلية ! » ٠ ثم ناشد النواب أن يتعقلوا ويتذرعوا بالصـبر ، ويمنحوه الوقت الكافى كى يعيد تنظيم ما فسد من الأمور !

ثم أيقظ فيهم عزتهم القومية وأنعش موات آمالهم مؤكدا أن الموقف بات محصورا فى حـرب صريحة مع اليـونان وحدهم ، أما الانجليز فلن يتخذوا دورا ايجابيا فى الصراع، وان ظاهروهم من بعيد ٠٠ ثم صرخ فى وجوه النـواب : « أنتم أيها الاتراك ٠٠ هل تقبـلون أن تنحنوا صـاغرين وتجثـوا راكعين لهؤلاء اليونانيـين الذين كانوا بالأمس عبيدكم ورعايا دولتكم ؟٠٠لست أصدق ذلك !٠٠فاتحدوا، واستعدوا ٠٠ والنصر لنا ! »

وهكذا قضى على المعارضة وتبخر رذاذها فى الهواء !٠٠ ووقفت « الجمعية الوطنية الكبرى » فى صف مصطفى كمال فى اجماع رائع !٠٠ وأرسل الزعيم الى أنحاء البلاد كلهـا رسائل مشابهة توضح الموقف للمعارضين ٠٠ وفى مثابرة لا تعرف الملل حمل قواد الجيش على جمـع مزيد من الرجال والاسلحة لتوسـيع نطاق الجيش النظـامى ٠٠ أما الذين تصايحوا بطلب السلام ونصحوا له بالتسليم فقد سـخر منهم ٠ لم يكونوا فى نظره الا جبناء رعاديد !

وفى لقاء له مع ممثل للحكومة الفرنسية قال له متحديا: « تستطيعون أن تنالوا سوريا وبلاد العرب ، ولـكن كفوا أيديكم عن تركيا ٠ نحن نطالب بحق كل شعب فى الحرية داخل حدود بلادنا الطبيعية ، ولا نبغى شبرا واحدا أكثر من ذلك ولا أقل ! »

وفى جرأة ضارية احتفظ بقبضته قوية على الجميـع ، واستحث الاتراك على معاودة القتال فى الوقت الذى كانوا فيه يجلسـون مكتوفى الأيدى محطمى القوى فى انتظار قدرهم المحتوم !

لكن خطرا جديدا لاح من الداخل ٠ كان القتال الرئيسى ضد اليونان فى جبهة أزمير ما زال مقصورا حتى ذلك الوقت على أعمال العصابات غير النظامية ، بمعاونة بضع وحدات نظامية « احتياطية » ٠٠ وكانت تلك العصابات قد جمعت من شتى الطوائف والجهات ، من القـرويين ، والمجرمين ، والجنود الفارين من الخدمة ، والوطنيين المتحمسين ٠٠التفوا حول قوادهم بلا نظام أو ملابس عسـكرية ، أو تشكيلات رسمية ، وراحوا يشنون على الاعداء سلسـلة من الغارات المفاجئة على طريقة « حرب العصابات » ، ثم ينسحبون الى مراكزهم فى الجبال !٠٠ وكانت هذه الطريقة فى القتـال تثير أعصاب العدو الى حد ما ، ولكن بغير أن تفضى الى نتيجة حربية حاسمة !

وكان قائد هـذه العصابات ـ ويدعى أدهم ـ قد جمع قوة كبيرة من الرجال المزودين بالمدفعيـة الخفيفة والمدافع الرشاشة ، وأطلق عليها اسم « الجيش الأخضر » ٠٠وجعل مقر قيادته فى مدينة « كوتاهية » ٠كما أصدر جريدة حافلة بالمقالات التى تنضح سطورها بالافكار البلشفية غير المهضومة!

وقد واجه هذا الجيش الاخضر هجمات اليونان ، وأخمد الحرب الاهلية ، وأنقذ أنقرة من الثوار ووطد دعائم حكومة أنقرة ٠٠٠ فأخذ « أدهم » يضاعف من نفوذه ومن الدعاية لنفسه فى جميع أنحاء البلاد ، ثم بدأ يتصرف مستقلا عن حكومة أنقرة ، ويجمع الضرائب ، ويطلب المؤن والجيـاد ، ويصدر الأوامر الى السلطات المدنية ويعاقب المسئولين عن

تنفيذها اذا أهملوا أمرها !.. بل لقد حكم على رجال بالاعدام بتهمة الخيانة ونفذ فيهم الحكم بأن صلبهم فوق قمة تل خارج المدينة !. واضطهد القرويين بلا رحمة .. وحين طالبته حكومة أنقرة بأن يقدم حسابا عن تصرفاته هذه زعم أنه يملك حق التصرف بملء حريته !

وكانت القوات غير النظامية هى القوة الكبرى فى الميدان، واذن لم يكن هناك ما يمكن عمله ، لوقف طغيان (أدهم) واعتداده بنفسه .. لكن الجيش الجديد النظامى بدأ ينمو بسرعة بفضل خبرة عصمت وفوزى ، فبدأ النزاع ينشب بين القوتين فى كل مناسبة !

وازداد الموقف حرجا حين أخذ الجنود يفرون من الجيش النظامى – حيث المرتبات ضئيلة والنظام صارم – لينضموا الى عصابات أدهم الطليقة من القيود ، حيث المرتبات أكبر والحرية أوسع .. وعندما كان رؤساؤهم من الضباط يطالبون بهم كان رؤساء العصابات يرفضون تسليمهم . وكلما أصر قواد الجيش على أن يطووا غير النظاميين تحت جناحهم أمعن هؤلاء فى اصرارهم على أن يظلوا مستقلين بأنفسهم !

وتطور النزاع سريعا حتى بلغ أوجه عندما اصطدم الفريقان .. كان « على فؤاد » يتولى القيادة فى الجبهة الغربية، وكانت كل خططه مبنية على استخدام غير النظاميين، أما جنوده النظاميون فكانوا بمثابة سند يشد من أزرهم . وكانت عقليته العسكرية قد تأثرت بهم فصارت عقلية قائد عصابة !.. بل انه صار يرتدى ثيابهم ويحمل بندقيته على كتفه مثلهم .. وأمسى يعمل مع أدهم جنبا الى جنب ، لكن أدهم كان القائد الحقيقى وصاحب الشخصية الأقوى !

وفى شهر أكتوبر شن (على فؤاد) – بناء على مشورة

أدهم وضد نصيحة عصمت – هجوما كبيرا على الجيش اليونانى ، فهزم شر هزيمة .. واذ ذاك قرر مصطفى كمال أن الوقت قد أزف لاحداث تغيير أساسى يرد للجيش النظامى اعتباره ويكسر كبرياء رجال العصابات ، فاستدعى اليه على فؤاد، وبعث لملء مكانه بكل من عصمت وفوزى ورفعت، وأمر أدهم بالخضوع لقيادة عصمت !.. لكن أدهم رفض هذا الوضع ، مصرحا بأنه لا يقبل عصمت رئيسا له ولا يقبل تدخلا فى عمله من أحد !. بل صرح لبعض رجاله متباهيا بهذه المناسبة بأنه لو ذهب يوما الى أنقرة فسوف يشنق مصطفى كمال على باب دار الجمعية الوطنية !

ودعاه مصطفى كمال بعد ذلك الى أنقرة ، فجاء مزهوا واستقل داخل المدينة سيارة مصطفى كمال – السيارة الوحيدة فى أنقرة فى ذلك الحين !

وكانت شوارع أنقرة وردهات الدار التى بها مكتب مصطفى كمال حافلة برجال الحرس ذوى الوجوه الضارية والطرابيش ذات الذيول الطويلة ، وهم يحملون البنادق مشهرة فى أيديهم والرصاص فى أحزمتهم العريضة !

وحين وقف الغريمان وجها لوجه كان البون بينهما شاسعا :كان أدهم عملاقا ضخم الجسم ، فبدا مصطفى كمال الى جانبه صغيرا ضئيلا .. لكنهما كانا يتشابهان فى أن لكليهما ذلك الوجه الأغبر والعينين الباردتين الشاحبتين اللتين تصيران فى ضوء الشمس رماديتين ، كما تشابها فى التعبير الصارم، والنفسية الثائرة والشجاعة التى لا تعرف الرحمة ، والصرامة التى ألفت الأمر والنهى والطاعة العمياء !

وطلب مصطفى كمال لضيفه قهوة وسجاير .. ثم حاول أن يقنعه بأن صالح تركيا هو الذى يقتضى خضوع رجال

العصابات للجيش النظامى .. لكن أدهم أبى أن يقتنع، وراح يدلل بالحجج والأمثلة على أن الجيش النظامى لا يمكن بحال أن يصمد لهجمات اليونان والانجليز الذين يظاهرونهم .. وفيما كان يتكلم كان ينظر الى مصطفى كمال فى ارتياب، خشية أن يكون قد استدرجه الى كمين، ثم وضع يده على مسدسه الذى يخفيه فى حزامه !.. ولم تغب هذه الحركة عن فطنة مصطفى كمال، فاقترح أن يستقلا القطار الى « اسكى شهر » حيث يتحدثان الى عصمت، لعله يجد حلا للموقف !

وكان مصطفى كمال يعانى وقتئذ حيرة وكربا شديدين، لا بسبب امتداد يد أدهم الى مسدسه، فانه لم يهتز لذلك التهديد قيد شعرة، ولكن كانت علة اضطرابه أن السلطان أرسل اليه وفدا برياسة عزت باشا ليفاوضه فى عقد هدنة ومحالفة بين القسطنطينية وأنقرة، كيما تتوحد جهود الاتراك جميعا وتنحصر فى مقاتلة اليونان .. عدوهما المشترك !

وكانت الجمعية الوطنية تميل الى قبول المفاوضة مع السلطان، كما يميل أعضاؤها النواب الى مناصرة أدهم، ايمانا منهم بأن حرب العصابات هى الوسيلة الوحيدة لمناوأة العدو .. أما مصطفى كمال فقد باتوا يعتقدون فيه أنه يرمى الى جعل نفسه دكتاتورا عسكريا، وان ليس فى طوق أحد غير أدهم أن يحول دون ذلك !.. ومن ثم أدرك مصطفى كمال أن سحق غير النظاميين سوف يضاعف نفور الناس منه، فرأى أن يأخذ أدهم الى « اسكى شهر » لعله يخضع لمطالبه حين يجد نفسه بعيدا عن مناصريه من الساسة والنواب !

لكن أدهم أحس فى القطار بمزيد من الارتياب فى نوايا غريمه، وخشى أن يجد نفسه فى (اسكى شهر) تحت رحمة الجيش النظامى، فغادر القطار فى هدوء عائدا الى حاله، قبل ان ينطبق عليه فكا « الكماشة » ويقع فى الفخ !

ومنذ ذلك اليوم أمعن فى التحدى، فقرر ان يحتفظ بقواته على اية صورة، فاذا كانت حكومة انقرة فى غنى عنه ففى وسعه ان يذهب الى جهة اخرى !. وبدأ يفاوض السلطان، ثم قواد اليونان .. وطوق الجيش التركى النظامى فى « كوتاهية » ثم جرد جنوده من سلاحهم وسرحهم .. وصرف الرجال الرسميين الذى ارسلتهم اليه حكومة انقرة وابى ان يقبل منهم امرا ما !.. واخيرا اعلن نفسه قائدا عاما لجميع قوات الوطنيين، وارسل الى الجمعية الوطنية الكبرى رسالة قال فيها : « لقد تعبت البلاد من القتال، وينبغى تزويد الوفد الذى يرأسه عزت باشا بسلطة المفاوضة فى الصلح . وانى اعبر عن رغبة الشعب والجنود ! »

فكتب اليه مصطفى كمال ردا قال فيه : « لقد خاطبتك من قبل كما يخاطب الزميل زميله القديم .. اما منذ الآن فينبغى ان اخاطبك بلهجة رئيس الدولة ! » .. ثم اصدر امره الى عصمت بسحق غير النظاميين . وما لبث الجيش النظامى الذى يقوده رفعت ان احتل كوتاهية وطرد منها ادهم .. ورحب القرويون بخلاصهم من الكابوس الذى عانوا وطأته ابان سيطرة رجال العصابات فانضموا الى الجيش النظامى وساهموا فى سحق اعدائه

واقسم ادهم لينتقمن من مصطفى كمال، ثم انضم الى اليونانيين مع نفر من رجاله .. واذ راى اليونانيون كيف بدأ الأتراك يتشاجرون وينشقون على انفسهم، سارعوا الى الهجوم على جبهتهم قبل ان يكتمل استعدادهم، فاستولوا على « أفيون » وعلى جزء من السكة الحديدية المواجهة لهم .. لكن عصمت شن هجوما مضادا بجيشه

النظامى فطردهم من تلك المناطق واضطرهم الى الانسحاب
فى غير نظام الى خطوطهم القديمة ، وقد اخذتهم الدهشة من
المقاومة الجديدة الحامية !. ثم قبعوا فى مراكزهم طيلة اشهر
الربيع والصيف من عام ١٩٢١ حيث اخذوا يعدون العدة
لهجوم كبير ..!

وقد كانت نتيجة هذه المعركة التى شنها عصمت أول
انتصار عسكرى للكماليين ، فبدات آمالهم تنتعش وتقوى
ثم توالت الأنباء الطيبة : فقد غزا « كاظم قره بكير » ارمينيا
فاحتل « قارص » وانضم بقواته الى صفوف البلاشفة ..
وكانت روسيا ترسل اليه المال والسلاح ، لانها ترى فى
انجلترا ـ مثلما ترى تركيا ـ عدوتها اللدودة !.. اما اليونان
فقد مزقتها الخلافات السياسية العنيفة التى امتدت الى
صفوف الجيش ، وابعد فنزيلوس وانصاره من اثينا !

ورغبت كل من انجلترا وفرنسا وايطاليا فى انهاء الحرب
اليونانية التركية ، وعرضت كل منها أن تتوسط فى فض
النزاع بين البلدين ، لكن اليونانيين رفضوا توسطها ، فما
كان منها الا ان اعلنت وقوفها من الغريمتين موقف الحياد !.
بينما ارسلت فرنسا مندوبين سريين الى انقرة مزودين
بوعود العون والمساعدة .. وباعت ايطاليا لليونانيين اسلحة
وذخائر !

ومن افغانستان وايران جاءت الوفود تقترح عقد معاهدات
الصداقة والتحالف .. ونشطت فى الهند ومصر حركة
المطالبة بمساعدة تركيا !

وكان الاتراك انفسهم قد اتحدوا ، وانتهت الحرب الاهلية
بينهم ..وتبدد كل من جيش الخليفة والجيش الاخضر ..
وفيما عدا بضعة كهول من الملتفين حول السلطان فى العاصمة
التف الاتراك جميعا حول مصطفى كمال فى انقرة بغية محاربة
اليونانيين الغزاة !

وتبين مصطفى كمال بوضوح انه لا مجال لاضاعة الوقت ،
فالعدو يدبر هجوما كبيرا وعليه ان يؤلف قوة كافية لملاقاته !
ومن ثم عمل بنشاط خارق ، وبقدرته العجيبة على التركيز
التام ، وتجاهل التفصيلات التى لا جدوى منها ، وحكمه على
الحقائق الأساسية حكما صائبا متزنا !

وكان يواصل العمل ليل نهار بلا راحة او نوم ، وكان
الاعياء ينال كل من معه بينما يبقى هو محتفظا بنشاطه
وحيويته !.. وحين يفرغ من قراءة التقارير او ارسال
البرقيات واصدار الأوامر ، كان يشارك فوزى فى تنظيم
الجيش الجديد ، معتمدين فى ذلك على دعائم ضعيفة من
الدرجة الثانية ، سواء من الجنود غير الراغبين فى القتال ، او
اسرى الحرب العائدين من الميدان ، او الأسلحة والذخائر
القديمة . اما نقل المهمات فكان يعتمد فيه على العربات
الريفية والحمالين ، والنساء القرويات !.. ومن هذه كلها
كان يراد خلق قوة محاربة من الدرجة الاولى !.. وهكذا ،
فى وجه هذه المصاعب الجمة لم يكن مصطفى كمال ليجد
دقيقة واحدة يستريح فيها !

وكان عليه فوق ذلك ان يقابل رجال السياسة ويتبادل
اياهم الراى .. وكان النواب الجدد شديدى الغيرة على
حقوقهم ، وكانوا ـ من الوجهة النظرية ـ هم حكام البلاد
المتصرفين فى امورها ، فلم يكن مصطفى كمال يجد بدا من
حضور اجتماعاتهم ومناقشتهم ليقنعهم بالموافقة على
مطالبه !.. وكان فى المناقشات العامة يحتفظ بصبره
وسيطرته على نفسه ، اما فى جلساته الخاصة مع خلصائه
فكان يثور احيانا لاتفه معارضة او انتقاد !

وفى ذات ليلة عاد متاخرا الى المزرعة النموذجية عقب
اجتماع للجمعية الوطنية ابدى النواب فيه شدة مراس
وتعنتا ، فلم يكد يدخل الى البهو الذى اجتمع فيه اعوانه

حول المدفأة حتى انفجر يسب رجال السياسة ويحمل على الديمقراطية ، التى سماها « حكم الرؤوس المتعددة المشوشة ، أو حكم الحمقى ! » ثم خلص من حملته الى القول بأن النظام الوحيد الناجع فى نظم الحكم هو حكم الرجل الواحد المطلق اليد !.. ثم صاح وهو يستدير ليسأل الكاتبة خالدة اديب — وكان يعلم تأييدها النظرى للديمقراطية ومعارضتها لجميع الطغاة : « ما رايك انت ؟ » .. فأجابته : «لستأفهم ماذا تريد ان تقول بالضبط يا باشا ! »

فانفجر فيها صائحا وقد صارت عيناه فى لون الرماد من شدة الغضب ، وزوى ما بين حاجبيه واختلج فكه مهددا « اليك ما اريد ان أقوله .. سوف اجعل كل انسان ينفذ رغباتى ويطيع أوامرى .. ولن اقبل نقدا او نصيحة سأسير فى طريقى الخاص وسوف تنفذون أنتم جميعا ما اريد دون مناقشة ! »

□

كان العمل يستغرق وقت مصطفى كمال كله ، بحيث لا يقوى شىء على أن يشغله أو يحول انتباهه عنه .. فاذا لم يجد ما يعمله يتدخل فى أعمال مرؤوسيه ، او يخرج ومعه عارف وشخص أو شخصان آخران الى حيث ينغمس فى الشراب والمقامرة الحامية ليالى متتابعة بأكملها .. او يختفى فى مواخير النسوة الرخيصات حتى يملهن !

وكان فى هذه الناحية من حياته على النقيض تماما من عصمت وفوزى ، فقد كان هذان زوجين وأبوين مخلصين لأسرتيهما ، شديدى التزمت والتحفظ فى المسائل الخلقية ، ولا سيما فوزى ، الذى كان يحرص على أن تتحجب زوجته ويلزم نساء أسرته عقر الدار مثل حرصه هو على تحريم

الخمر والتزام العفاف فى مسلكه الشخصى . ومن ثم كان هو وعصمت يستنكران المجون والخلاعة اللذين كان ينغمس فيهما مصطفى كمال ، وينفران من رفاقه فى هذه المغامرات !

وفى تلك الفترة من حياته برزت موهبة مصطفى كمال فى الكلام والاقناع .. كان اذا اراد ان يفحم معارضيه يندفع سيل الكلمات من فمه بلا انقطاع حتى يسحق حججهم ويتركهم لاهثى الأنفاس !.. وكان مالوفا منه ان يبدأ كلامه فى موضوع ما فى الساعة التاسعة مساء ، عقب الفراغ من تناول العشاء ، فاذا حلت الساعة الخامسة فى فجر اليوم التالى كان الكلام المدعم بسيل من الحجج والأسانيد ما يزال يتدفق من فمه ، بينما تكون قوى معارضيه قد خارت وقبلوا رأيه صاغرين ..!

وأحيانا كان يشتبك فى احاديث مرحة على سبيل الدعابة وهو يضحك بين الحين والآخر ضحكة ناعمة تظهر فما تتخلله الأسنان الذهبية . وفى هذه الحالات كان يتكلم عادة وعلى وجهه نصف ابتسامة ساخرة ، فيتناول أصدقاءه واعداءه على السواء بالنقد والتشريح ويخلع عنهم كل زيف ورياء أو مظهر كاذب حتى يخلفهم عرايا النفوس مكشوفى العيوب والنقائص !.. ولم يكن يسلم من لسانه فى هذا المجال حتى أخلص أصدقائه ومعاونيه الذين وقفوا بجانبه فى محن الايام الاولى من الثورة !

وكان يسخر من جميع المبادىء والمثل العليا الخلقية ، ويمزقها شر ممزق ، فقد كانت فى نظره ليست أكثر من غطاء يخفى رياء الناس وحماقة الحمقى !.. وكانت سخريته ذكية قاطعة ، لا يخفف من حدتها « زيت » المزاح الملطف للأمور ، بل تظهره بمظهر الرجل المجرد من المشاعر الرقيقة الذى لا يخلص لانسان ، أو لمثل أعلى ، أو لنظام مرسوم .. بل تظهره بمظهر المخلوق الذى فيه من الحيوان أكثر من الانسان

... او الذئب الكاسر المجرد من العاطفة او الخلق او المبادىء السامية او السلوك القويم .. او اى شيء غير شهواته الحيوانية !

القائد الأعلى

بقى مصطفى كمال أول الأمر يعيش فى المزرعة النموذجية مع بقية معاونيه وهيئة اركان حربه .. ثم ما لبث ان اتخذ لنفسه غرفة فى منزل ناظر المحطة كى يكون قريبا من مكتب التلغراف . وكان يستخدم البرقيات كما يستخدم الناس الخطابات والأحاديث ، فكان من المألوف لديه مثلا ان يرسل برقية من ثلاثمائة كلمة الى رئيس الوزارة فى القسطنطينية احتجاجا على شيء .. او الى قائد الجيش فى سيواس آمرا بشيء . وحين يتلقى الرد على غير هواه يعود الى ارسال برقية اخرى من ثلاثمائة كلمة ايضا .. وهكذا !

وكان يقوم على حراسته فى ذلك البيت نفر من الجبليين المنحدرين من الشاطىء الجنوبى للبحر الأسود ، شديدو الضراوة ، سود العيون ، طويلو الشوارب ، فى مرونة القطط ، يقودهم شخص قوى البأس يدعى « عثمان اغا » .. وكان مصطفى يعيش معيشة حرة مجردة من القيود والمظاهر الرسمية ، فكان اذا فرغ من عمله فى الداخل خرج ليتمشى ويداه فى جيوبه ، غير مستنكف ان يتحدث الى اى انسان يلقاه ، سواء اكان من العسكريين او المدنيين .. وحين يذهب الى الجمعية الوطنية لم يكن يجلس فى مقعد الرئيس الا نادرا ، مفضلا عليه مقعدا عاديا بين مقاعد النواب !

وكان كثير التذمر والشكوى من الذين حوله ، واحيانا دون وجه حق !.. وكان يندر ان يظهر امتنانه لمرؤوسيه ، واذا فعل ففى ضغن وسخط .. اى انه كان رجلا يحسن تجنبه، اذ تغلب كآبته على مرحه ، واذا ساءه امر صار عنيفا فظا

لا يرحم . وكان مظهره دائم التغير والتبدل ، فهو يوما بادى الحياة والشباب ، وفى اليوم التالى متعب مغضن القسمات يبدو اكبر من سنه بعشر سنوات !

ووجد - مع مرور الايام - ان طقس انقرة لا يناسبه ، لشدة حرارته وكثرة غباره فى الصيف ، وشدة رطوبته واوحاله فى الشتاء ... فاتخذ لنفسه منزلا حجريا فى قرية « شان كايا » التى تبعد نحو اربعة اميال خارج حدود المدينة . وبنى خلفه بضعة اكواخ لعثمان اغا وبقية حراسه.. وهناك عاش معيشة الجندى الأعزب الذى لا يملك غير اثاث ضئيل ولا يأكل فى مواعيد منتظمة . وبرغم تحذير الطبيب المتكرر له بوجوب الاقلال من العمل والشراب معا ، والاخلاد الى حياة نظامية يسهر فيها شخص على راحته ، فانه لم يعبأ بهذه التحذيرات ، بل استمر يعيش بقوة اعصابه .. ولكن بنيته القوية التى ورثها عن ابويه القرويين لم تستطع تحمل الانهاك المستمر الى غير نهاية .. فصارت آلام الكلى القديمة تعاوده كثيرا ، كما اصيب بحمى الملاريا التى جاءته عدواها من الأحراش الواقعة خارج انقرة !

ولم ينقذه من انهيار صحته غير فتاة تمت اليه بصلة القربى البعيدة تدعى « فكرية » ، جاءته من استانبول متطوعة للعمل ممرضة بالجيش ، فلم يكد بصر مصطفى كمال يقع عليها حتى اخذها الى بيته . وكانت فكرية رفيقة غريبة لهذا الرجل الصلب ذى المظهر الوحشى والمجون الضارى ، فقد كانت فتاة رقيقة هادئة مرهفة الحس ذات بنية هشة ووجه بيضاوى شاحب وعينين عميقتين بنيتى اللون واهداب طويلة وطفاء ..!

لكنها جلبت له الراحة ، خلقت من مثواه وحديقته جنة فيحاء .. وكان فى نهاية الحديقة منزل صيفى عتيق مما ألف باشوات العصور الخوالى ان يجلسوا فى شرفاته المطلة على

البوسفور فى ليالى الصـيف . وكانت له نوافذ من جميع الجهات تشرف على السهول الصفراء العظيمة الممتدة أمامه الى ما لا نهاية ... فشيدت فكرية فى الحجرة الوسطى منه ، نافورة من الرخام الابيض تخرج الماء من قلبها فى أيام الصيف الحارة حين تمتلىء السهول بالغبار !

واختار مصطفى كمال غرفة لمكتبه يستطيع ان يطل منها على السهل ويرى انقرة من بعيد مشيدة فوق سفح التل العارى وفوقها القلعة القديمة .. وفرشت فكرية الغرفة بالسجاد العجمى والتركى ، وعلقت على الجدران السـيف البديع الذى اهداه اليه السيد السنوسى ، كما رتبت كتبه العديدة .. وكان مصطفى كمال من فرط ثقته بانه سوف يحكم تركيا يوما يحرص على قراءة كتب تاريخ الاسـلام ودراسة المشكلات الاجتماعية !.. وفوق منضدته ثبتت فكرية قطعة من القماش الاخضر مزركشة بالرموز السحرية الغامضة التى كان مصطفى ــ وهو المتطير المؤمن بالخرافات ــ يعتقد صـدق اثرها ، برغم كفرانه بجميع شؤون دنيـاه الاخرى ..!

وعدا هذا كله سهرت فكرية على سد حاجات مصطفى جميعها ، وتمريضه اذا مرض .. وصارت له بمثابة جارية خاضعة .. أعطته كل شىء ولم تسأل فى مقابله شيئا غير ان يسمح لها بأن تكون جاريته !.. وقد لبث مصطفى كمال زمنا مستغرقا بكل جوارحه فى هواها ، لكنه عاد فسئمها وملها .. وارتد الى نساء الهوى الرخيصات واخوان الصفا والخمر والميسر ، حتى اكلت الغيرة الضارية قلب فكرية ، وكلما فتر شعوره نحوها ازداد حبها هى له حرارة وعنفا !

□

وفى هذا الوقت الذى عمل فيه مصطفى كمال وفوزى ؛

انقرة كان عصمت فى ميدان القتال يجهد كل عصب فيه كى يدعم مواقعه فى « افيون » و « اسكى شهر » تأهبا لملاقاة اليونانيين ، الذين كانوا يحشدون جيوشهم ويجلبون الأمداد من المدافع والطائرات ، ويضربون خط دفاعه بالغـارات الاستكشافية والهجومية بلا انقطاع . وكان واضحا انهم يفوقون الأتراك عدة وعتادا وعددا !

وفى الاسبوع الاول من يوليه ، وقبل ان يكتمل استعداد الاتراك ، قام اليونانيون بهجومهم المرتقب ، فاكتسحوا كل ما امامهم واحتلوا كوتاهيا وافيون ، ثم ركزوا قواتهم فى مهاجمة « اسكى شهر » ملتقى الخطوط الحديدية ومفتـاح غرب الأناضول كله !

وجلس عصمت فى مقر قيادته المتواضع خلف اسكى شهر، محطم الأعصاب والقوى بعد ايام متتالية من المجهود الشاق والهزائم المرة !.. وبلغ من اعيائه انه كان ينام فى مقعده وهو يقرأ تقريرا او يدرس خريطة !..

وكانت الطوابير اليونانية تزحف نحو (اسكى شهر) من ثلاثة اتجاهات ، بغيـة تطويقها وتطويق الجيش التركى الرئيسى معها .. وفشلت جميع الهجمات المضـادة التى شنها عصمت على العدو الزاحف ، وأمسى الموقف يحتاج الى قرار حازم لمواجهة الخطر المحدق : هل يثبت عصمت فى مواقعه برغم يأسه من النتيجة ، ام يخلى البلدة ويتقهقر بانتظام تاركا للعدو مخازنه المليئة بالذخائر التى جمعت بشق النفس ، بل تاركا الأهالى المدنيين تحت رحمة اليونانيين القساة الغلاظ الأكباد يسومونهم سوء العذاب ؟ !

وفى غمرة حيرته المريرة ابرق الى مصطفى كمال طالبا اليه أن يخف من فوره لنجدته واتخاذ قرار حاسم فى الموقف !

ولم يضيع مصطفى كمال وقتا ، فوافاه على عجل !..

لم يحاول ان يروغ من المسئولية أو يتهرب من مواجهة الموقف ، بل حمل العبء على كتفيه دون تردد . . . وللحال امتلأ الجو بروح جديدة من الشجاعة والتفاؤل ، اللذين كان مصطفى - على العكس من عصمت - قديرا على بثهما بسحر ساحر فى نفوس الجنود حتى فى احرج الاوقات!

وبعد ان اصغى مصطفى الى التقارير ، ودرس الخرائط فكر فى الأمر مليا : انه حين امر بالتقهقر فى معركة دمشق كان يخلى ارضا غير تركية يقطنها عرب وسوريون ، اما اليوم فهو سيخلى ارضا تركية صميمة ، ويخلف مواطنيه رجالا ونساء تحت رحمة العدو يحرق ويغتصب ويدمر وينتهك الحرمات !.. لكنه من جهة اخرى لو بقى فى مراكزه فمعنى ذلك فناء الجيش التركى الرئيسى كله !

ولم تحجب الاعتبارات العاطفية والوطنية عن ذهن مصطفى كمال حقيقة الموقف من الناحية العسكرية ، فاصدر امره الحازم : « اخلوا اسكى شهر .. انسحبوا فورا مسافة ثلاثمائة كيلومتر الى نهر « سقاريا » وأعدوا هناك خطا دفاعيا جديدا لحماية انقرة .. فذلك سوف يطيل خطوط مواصلات العدو ويخلق له مشكلات جمة ، فى الوقت الذى يعطينا فيه فرصة اعادة تنظيم صفوفنا ! »

ثم عاد مسرعا الى انقرة ليواجه الأزمة الجديدة ، فوجد اهالى المدينة يحزمون امتعتهم ليفروا شرقا نحو الجبال .. ومرة اخرى عاد النواب يتصايحون مطالبين بدم « المسئولين » !.. فواجههم مصطفى كمال بشجاعته المعهودة ، وفى هذه المرة طلب اليهم ان يعينوه قائدا عاما ويزودوه بكل سلطات الحاكم المطلق.. لكن «الجمعية الوطنية» ابدت ترددا ، فقد كان النواب يخشون خطره !.. وابى هو ان يساوم : فاذا اريد منه ان ينقذ تركيا فليمنح السيطرة

الكاملة !.. وبعد ان اشترطت « الجمعية الوطنية » بضعة شروط تحمى سيادتها العليا . . . وافقت على طلبه ، فصار هو القائد الأعلى للجيوش التركية كلها . وتجمعت السلطة كلها فى يده !

وعلى اثر ذلك وجه نشاطه الخارق المعهود الى اتخاذ التدابير لانشاء خط دفاعى جديد يواجه العدو الزاحف . وفى أثناء ذلك سقط من جواده فاصيب فى احد اضلاعه اصابة الزمته الفراش يومين .. ثم عاودته آلام كليتيه .. بالاضافة الى حرارة يوليه المحرقة التى تصهر الجماد .. لكن هذا كله لم يحد من عزيمته ، فهرع بنفسه الى الجبهة ليشرف على سير الأمور فيها بنفسه !

وفى فجر يوم ٢٤ اغسطس - سنة ١٩٢١ - هاجم اليونانيون الجبهة التركية بعد ان مهدوا لهجومهم بوابل من قنابل المدفعية الثقيلة ، فالتحم الفريقان فى معركة حامية قاتلا فيها كلاهما بالسلاح الابيض فى حماسة تذكيها الكراهية الموروثة المتاصلة فى دماء كليهما نحو الآخر ..!

واستمر القتال على هذا النحو أربعة عشر يوما متوالية ، تحت اشعة شمس اغسطس المحرقة !.. اليونانيون يهجمون فى غضب احمق ، والأتراك يدافعون ببسالة رائعة .. وفى قرية تقع خلف الخطوط التركية راح مصطفى كمال يذرع مقر قيادته فى قلق ولهفة ، وضلعه المصابة ما زالت تؤلمه . ولم يكن ينام الا لماما ، وبثيابه الكاملة ، كما كان يكتفى من الطعام بلقيمات فى فترات فراغه غير المنتظمة .. فوقته كله موزع بين الاصغاء الى السيل المتواصل من التقارير الحربية ، وتامل الخريطة المثبتة بدبابيس فوق منضدته ، واتخاذ القرارات العاجلة ، ودراسة الموقف من شتى وجوهه . . . وفى الليل كان يظل ساهرا على ضوء مصباح صغير يفاضل

بين شتى الاحتمالات ، محدثا نفسه بصـوت مسموع ، او متحدثا الى صفيه « عارف » الذى كان خبيرا بكل شبر من الارض والجبال فى تلك المنطقة !

وكان الموقف شديد الحرج ، فلو هزم الأتراك فى هـذه المعركة لاضطروا الى الانسحاب مسافة كبيرة الى الشرق ، ولسقطت انقرة فى أيدى الأعداء وكانت فى ذلك نهاية تركيا !. واذن فهـذه هى الفرصة الأخيرة ، فليصمدوا فيهـا الى النهاية !..

وكان اليونانيون يتحسسون الجبهة بحثا عن جناح ضعيف يلتفون حوله ، فساءل مصطفى كمال نفسه : « أنهاجمهم من المؤخرة ام ننسحب ؟ » . انه لا يملك غير عدد قليـل من الجنود ، لا يستطيع التفريط فيهم أو المخاطرة بهـم فى غير ضرورة قصوى !.. هذا الى أن الاشراف على المعركة كان فى أيدى قواد الطوابير المختلفة اكثر مما هو فى يده ، وكانت هذه الطوابير موزعة مبعثرة بين التـلال والوديان والزوايا والكهوف !. لكنه مع ذلك كله بذل قصارى جهـده لـكى يسيطر على المعركة ، مثيرا بشخصيته الجبـارة حماسة الجنود ومنعشا آمالهم كلما تزعزعت .. وكم من مرة كانت فيها الهزيمة تبدو محققة ، لولا تدخله فى اللحظة الحاسمة والموضع الحاسم لانقاذ الموقف !

كان قد درس كل شبر من الارض ، وعرف قيمة كل فريق من قواته ، ومؤهلات كل قائد صغير من القواد ، فأدار المعركة من غرفته فى مقر القيادة العليا ببراعة ويقظة رائعتين !

وبعد أربعة عشر يوما من القتال المتواصل كانت النتيجة ما زالت فى كفة القدر .. لكن مصطفى ادرك ان اللحظـة الحاسمة وشيكة الحلول ، وأن احد الفريقين لا بد ان ينهار

عما قريب ، فقد بلغ الاعياء بكليهما مبلغا لا يحتمل المزيد

وفى الساعة الثانية بعد منتصف الليلة الخامسة عشرة دق جرس التليفون فى غرفته ، وكان المتكلم فوزى باشا يقول له : « ان العدو بلغ نهاية جهده ، وهو يتأهب لانسحاب عام ! »

وعندئذ وضع مصطفى كمال السماعة وجلس برهة يوزع الاعلام الصغيرة فوق خريطة جبهة القتال ، فى ظل مصباح صغير اظهر مدى ما اصابه من اعياء بتلك الدوائر السوداء التى ارتسمت تحت عينيه .. ثم اصدر أوامره التالية : «الهجوم اليونانى يتراخى وسوف يتضاءل . فلنبـدا! نحن الخطوة الحاسمة .. القوا بجميع قواتنا الاحتياطية هنا فى الشمال ، وهددوا خط انسحاب الأعداء من هذا الاتجاه ! »

ثم استدار صائحا فى طلب قدح من القهوة ..وهو يسب ويلعن ــ كعادته فى لحظات انفعاله ــ كل من حوله ، حتى الجاويش الذى احضر له القهوة !.. لكن رنين صوته كان قد تغير ..!

واستمر اليونانيون يدافعون فى بسالة وعنف اسـبوعا كاملا ، لكن قواهم الدافعة كانت قد اضمحلت .. ومضى مصطفى كمال بشخصه الى خط النار ، يتنقل بين جنوده ويشعل حماستهم .. فى الخنادق ، وفى العراء .. معرضا حياته للخطر بلا أدنى تحوط .. ومع ذلك ، وبرغم ان من حوله كانوا يتساقطون قتلى كالفراش ، فانه لم يصب بأى سوء !

وفى اليوم الثانى والعشرين عبر اليونانيون نهر « سقاريا » عائدين من حيث أتوا ، حارقين ومدمرين كل ما وراءهم طبقا لخطة مرسومة ، فتركوا البلاد خلفهم على مدى مائتى ميل صحراء جرداء !.. واندفع مصطفى كمال يلاحقهم بالقـوة

الضئيلة التى بقيت قوية على القتـال ، حتى الزمهم عقر خنادقهم التى بداوا منها هجومهم على « اسكى شهر » فى شهر يوليه .. واذ ذاك رابط فى خط مواجه لهم وامر جنوده بحفر خنادق مماثلة لانفسهم .. ثم عاد هو انقرة !

معجزة تحرير الاناضول

جنت الجماهير فى أنقرة فرحا بزوال الخطر عن مدينتهم ، بعد أن حزموا أمتعتهم وجلسوا ينصتون الى دوى المدافع فى انتظار ساحة الرحيل !

واحتفلوا بزعيمهم الظافر مصطفى كمال ، وخلعوا عليه لقب « الغازى » .. واشتركت الدول الاجنبية فى التصفيق له ، فجاءت برقيات التهنئة تترى عليـه من : روسـيا ، وافغانستان ، والهند وأميركا وحتى من فرنسا وايطاليا !

لكن مصطفى كمال لم يركب رأسه أو يستسلم للغرور . كان يحب التصفيق والاختيال أمام الجماهير . يحب أن يكون موضع اعجاب الناس ، وأن يمجدوا بطولته .. ولقد اعتزم أن يسيطر ويصبح السيد الآمر ، لكن اتزانه لم يفارقه مع ذلك ، وبقى له صواب حكمه وبعد نظره وثبات أعصابه !. كان يعـرف أن وقف هجوم الأعداء وكسب الاتراك أول انتصار لهم لا يمكن أن يعد نصرا حاسما . كل ما فى الأمر أن الاتراك قد نجوا من الهلاك المحقق وصار ظهرهم الى الحائط .. لكن البقية الباقية منهم لم تعد صالحة لمواصلة الهجوم ، ويتعين عليه الآن أن يعطل الأعداء عن الهجوم حتى يعيـد تنظيم الجيش كله من أساسه ويوفر له الامداد ووسـائل التموين والأسلحة اللازمة ويستبدل بالكسيحين المصابين مجندين جددا .. وهذا كله من شأنه أن يستغرق أسابيع وربما شهورا ، يكون النصر بعدها رهنا ببقاء القوة المعنوية

للأهالى المدنيين ، كما هو رهن بالتنظيم العسكرى والمعركة الفاصلة .. !

.. وعكف على العمل من فوره ليل نهار ، بمعاونة عصمت وفوزى ، فى نشاط خارق وبراعة فائقة .. وفى سـبيل بلوغ هدفه وصل الى اتفاق مع فرنسا ، وعقد معاهدة سرية مع ممثل الوفد الفرنسى «فرانكلين بويون» أطلق بمقتضاها عقال ثمانين ألف جندى من الجبهة السورية ، وحصل عـلى عتاد وذخيرة لأربعين ألفا آخـرين !.. ثم لم يكتف بذلك فابتاع أسلحة من ايطاليا وأميركا بأموال اقترضها من روسيا، وجند طبقات جديدة من الشعب

وتوالت الأشهر والاسـتعدادات الشاقة قائمة على قدم وساق ، فوقع رد الفعل المنتظر بعد الفرحة الأولى بالنصر : ضج الناس بالشـكوى والملل من الحرب ، وعاد القرويون يطالبون بأن يتركوا فى سلام، قائلين : « لقد اختفى الأعداء بعيدا عن الانظار .. فلم القلق ؟ . لقد آن أن تنتهى الحرب!» .. واشتدت حركة المعارضة ، ففى ساعة الخطر منح الساسة فى الجمعية الوطنية مصطفى كمال سلطة الدكتـاتور ، أما الآن — فى ساعة النصر — فقد أرادوا استرداد سلطاتهم! .. وكثرت المؤامرات من كل جانب . بدأ الضـباط يؤلفون جماعات سرية ويشتغلون بالسياسة .. وجاءت الانباء بأن أنور نصب نفسـه أميرا على « بخارى » ويطمع فى العودة لتركيا .. وكان جمال فى أفغانستان يعمـل مستشـارا لأميرها ، فاسـتبد به الحنين الى وطنه وكتب الى مصطفى كمال يعرض عليه تحالفا وهدنة !. ونشطت « جمعية الاتحاد والترقى » القديمة ونظمت شعبها التى صارت تجتمع فى أوكارها الخفية .. أما الجيش فقد انتشر فى صفوفه القلق وارتفعت الاصـوات مطالبة بشن هجـوم على الأعداء فى الشتاء !

ونصح العقلاء لمصطفى كمال بقبول الصلح فورا بأحسن شروط يستطيع أن يحصل عليها ، وذلك قبل فوات الفرصة !.. لكنه أبى الانصياع للنصيحة ، وأصر على وجوب قهر الاعداء في ساحة القتال . وراح يبث الحماسة في الجماهير ويوقظ الناس من خمولهم و « غيبوبتهم » .. وقمع بوادر اشتغال الضباط بالسياسة والحزبية ، فشنق خمسة وعشرين منهم بتهمة التآمر على قلب نظام الحكم !. وشدد قبضته على الجيش الذى عرف سيده فأطاعه !.. وكان فتحى ورؤوف وغيرهما من النواب الذين اعتقلهم الانجليز فى مالطة قد أطلق سراحهم فعادوا الى أنقرة .. وهناك أيدوا مصطفى كمال فى البداية ، لكنهم عادوا فانقلبوا معارضين له حين لمسوا نزعته الدكتاتورية ، وكان رؤوف يتزعمهم فى هذه المعارضة .. فتصدى مصطفى كمال لمحاربتهم بقسوة وبغير أية مجاملة ، لكى يبقى وحده السيد المطاع فى البلاد !

واستمر مصطفى يفرط فى الشراب ، فمنحه الشراب نشاطا مضاعفا ، لكنه ضاعف أيضا من سرعة انفعاله وغضبه ، وسخريته بالناس ، وضيق صدره بأى انتقاد ، وعزوفه عن الثقة بأحد أو التعاون مع انسان .. فكثر شجاره مع الساسة لأتفه الأسباب !

على أنه استمر يسعى نحو هدفواحد محدد : أن يتأهب لهجوم حربى كبير يدمر فيه قوة العدو ثم يملى عليه بعد ذلك شروط الصلح !.. وفى أثناء ذلك ترك الساسة يحاولون الوصول الى الهدف المشترك بالطرق السلمية ، من غير أن يؤمن بجدوى أساليبهم ، فلما عاد فتحى من باريس ولندن ساحبا أذيال الفشل فى مهمته ، ابتسم مصطفى كمال شامتا !

وانقضى شتاء سنة ١٩٢١ ، ثم تبعه الربيع والصيف من سنة ١٩٢٢ .. ومصطفى كمال ماض فى استعدادهللمعركة الحاسمة !

□

وفى أواخر أغسطس ، والشمس المحرقة تلهب سهول الاناضول والغبار يملأ الهواء ، قرر مصطفىكمال أنيضرب ضربته .. واختار لها اليوم السادس والعشرين . وكان قبل ذلك بحوالى أسبوع قد قطع كل المواصلات بين تركيا والعالم الخارجى ، وانتشرت شائعة تقول ان ثورة قد نشبت فى البلاد !.. وفى اليوم الرابع والعشرين وجه مصطفى كمال الدعوة الى حفلة راقصة ساهرة تقام ليلة السادس والعشرين . فلما انتصفت تلك الليلة انتقل مع أعوانه الى مقر القيادة خلف الخط الأمامى ، ولم تعلم بذلك حتى أمه !..وكانت قوات « العاصفة » التركية قد حشدت سرا فى مواجهة « افيون » ، بينما أعدت بضع وحدات متحركة عند اسكى شهركى تحول انتباه الأعداء عنالهدف الحقيقى نحو الشمال !

ولم يكن قادة اليونانيين يرتابون فى شىء مما يدبر . كانوا يتشاجرون فيما بينهم ، بينما المفاوضات تدور فى لندن فتمنح حكومتهم أملا فى الحصول — بمساعدة الانجليز — على سلام مشرف دون قتال !..وكان قائدهم العامالجنرال « هاجيانستس » رجلا مختل العقل ، أشبه بمجنون ،يقضى أوقاته متجولا بين مقاهى أزمير بعيدا عنالاتصالبقواته!.. وكان قد أعطى القيادة نتيجة لدسائس الساسة الذينكانوا يحاربون بعضهم بعضا فى أثينا سعيا الى السلطة . وكان الفساد قد عم الضباط والموظفين الرسميين ، وترك الجنود

اليونانيون فى الخنـــادق بلا طعـام ولا نقود ولا ثياب ولا ذخيرة !٠فتبددت من القوات اليونانية روح الحماسة للحرب، كما تبددت من الشعب التركى من قبـــل ٠ وأخيرا أدرك مصطفى كمال أنه قد أعد كل تفصـــيلات الخطة ، ولم يعد يشـــغل باله الا خشية ســـوء الحظ ، وذلك لفرط تطيره وتشـــاؤمه ، فلم يجد بدا من أن يستصحب معه « خالدة أديب » التى جلبت له رفقتها النصر من قبـــل !٠٠ وكانت متغيبة فى « قونية » فأبرق لها كى تحضر على عجل ، برغم ميولها السلمية ومناقشاتها حول شرور الحرب٠٠فلما وصلت الى مقر قيادته ، أيقن من الانتصار !

وحين اقتربت ساعة الهجوم أصدر الى قواته الأمر التالى: « أيها الجنود٠٠الى الامام !٠ ان هدفكم هو البحر الابيض!»

وفى الســـاعة الرابعة من فجر يوم ٢٦ أغسطس شن الاتراك هجوما على « دوملو بونار » ، مفتاح أفيون والمواقع اليونانية ، فلم يهبط المساء حتى كانوا قد اخترقوا خطوط العدو وشطروا جيشه شطرين وأتلفوا مواصلاته المباشرة مع مؤخرته !

وانهار الجيش اليونانى !٠وعمد ضباطه الى الفرار حرصا على النجاة بأنفسهم٠٠ وتسابق جنوده بأقصى سرعتهم نحو أزمير وشاطىء البحر ، مدفوعين بنقص الطعام والذخـيرة والحنين الى الوط[illegible] [illegible]ر من القتـــال !٠٠ فزالت فرق بأك[illegible] [illegible]نثرت أخـرى الى مجموعة متفرقة [illegible]رطارد فرسان الاتراك أعداءهم المنسحبين ، [illegible]ر انســـحابهم الى فوضى مروعة وكابوس من الفـزع الرهيب !٠٠ومضت جموعهم تنهب السهول الصخرية نهبا، تاركة وراءها خنادقها وخطوطها المحصنة ومخازن ذخيرتها وثيابها وخيامها !٠ وانتشرت فى كل مكان جثث القتـــلى

شاخصة بأبصـارها الى الســـماء ، نهبا للهوام والحشرات والكلاب الجائعة ٠٠ وفوق ذلك كله سحب الغبـار الاحمر تحت الشمس المحرقة ٠!

وأحرق المهزومون فى طريقهم ما صـادفهم من القرى ، وقتلوا النساء والاطفال بدافع الشـــهوة الملحة فى الانتقام والكراهية المتأصلة المدمرة !٠٠ وعجز مشـــاة الاتراك عن اللحاق بأعدائهم ، فقد كان عليهم أن يتقدموا حـــذرين ، خشية المفاجآت الغادرة ٠٠ أما الفرســـان فقد لحقوا بهم واندفعوا يقتلونهم بغير رحمة محجمين عن أخذهم أسرى حرب كما تقضى قوانين الحروب !

وفى خلال عشرة أيام كان اليونانيـــون قد قطعوا المائة وتسعين ميلا التى تفصلهم عن البحر ، واستقلوا ســـفنهم عائدين أدراجـــهم مـن حيث أتوا ٠٠ بينما وقف الاتراك المنتصرون على الشـــاطىء يشيعونهم بنظرات الشـــماتة والتحدى، المشوبة بالغيظ لافلاتهم من قبضتهم وانتقامهم٠!

وتحررت هضاب الاناضول من العدو٠٠وكانت معجزة !

لطيفة هانم

كان مصطفى كمال قد تبع جنوده فى ملاحقتهم للعدو حتى وصل الى المنطقة التى تنتهى عندها التلال والهضاب وتبدأ السهول الفسيحة الخصـــبة المؤدية الى أزمير والسهل الغنى المحاذى للشاطىء ٠٠ وهناك توقف يتأمل ويفكر !

قبل مجىء اليونانيين كانت تلك الارض جنة عامرة بالخضرة والاشجار والقنوات الضاحكة ، والنبيـــذ والتين والقرى السعيدة ٠٠ أما الآن فقد صارت مرتعا للرعب والاهوال ، وحطام القرى التى دكت ، وجثث الاطفال والنســـاء اللواتى اغتصبن عنوة ثم ألقين بين الكروم طعاما للذئاب !٠

ولكن لم تكن هذه الاهوال هى التى أغرت مصطفى كمال بالتوقف والتأمل ، ولا استرعت اهتمامه أو اشفاقه أنباء المرأة التركية التى رجمتها مواطناتها بالاحجار !٠٠ فانه لم يكن يفكر فى اللحم والدم والألم ، ولا فى العواطف وأمور الافراد ٠٠ بل فى الحقائق الجغرافية والخرائط واحصاءات الجنود والاسلحة !٠٠وقد رأى نفسه واقفا فوق القمة بينما جنوده قد بلغوا أزمير ، والبرقيات قد حملت الى العالم أنبا انتصاره الساحق على الجيش الذى أرسلته اليه الدول العظمى ليسحقه !٠٠ انها ساعة انتصاره التاريخى المجيد ، وان أعين العالم بأسره لتتركز عليه فى يوم مجده ٠٠ ولسوف يدخل أزمير بعد قليل دخول الغزاة الفاتحين !

وفى «أوشاق» جاءه النبأ بأن القائد العام لجيش الأعداء ، ومساعده ، قد أسرا ٠٠ فأمر باحضارهما الى مقر قيادته ٠ واستقبلهما واقفا مرحبا فى احترام ، بين عصمت الى يمينه وفوزى الى يساره ٠٠ ثم صافحهما وأمر لهما بالقهوة والسجاير ، وفى أثناء حديثه معهما تبين ــ آسفا ــ أنهما دون مستواه فى المقدرة العسكرية والكفاءة الحربية ، فأحس بشىء من خيبة الأمل !

وأخيرا جاءته الانباء من أزمير بأن كل شىء قد أعد لدخوله المدينة ٠٠ فقطع الأميال القليلة التى تفصله عنها على رأس قافلة من السيارات المتوجة بأكاليل الغار ٠٠ وعلى طول الطريق احتشدت الجماهير لتحيته ، هاتفة مهللة باكية ، شاكرة لله انقاذه اياها من طغيان اليونانيين !

وعند أبواب أزمير استقبلته فرقة من الفرسان الشاكى السلاح ، ومضى الموكب ببطء خلال شوارع المدينة الضيقة، تحت أقواس النصر وسقوف الاسواق ، وبين الهتاف والتهليل ٠٠ وحين مر ببوارج الحلفاء الرابضة عند مدخل

الميناء ، بمدافعها الضخمة عاجزة عن التدخل ، حدجها بنظرة سخرية وشماتة ، ثم واصل سيره نحو الدار التى اختيرت مقرا لقيادته ، وقد تبين فى جبروت تلك البوارج جبروته، وفى قوتها مدى قوته !

□

وفى مقر القيادة وجد الهرج والمرج سائدين ، والسعاة يحملون البرقيات من مكتب الى مكتب ٠ لقد طرد اليونانيون من تركيا الآسيوية ، لكنهم راحوا يحشدون قواتهم عبر البحر فى أوربا ، لكى يهاجموا القسطنطينية ٠ واذن ٠٠ لا مفر من اعادة تنظيم الجيش التركى وارساله على عجل الى مركز الخطر !

ووجد مصطفى كمال أمامه مائة مشكلة ومشكلة تنتظر تصرفه العاجل ، فانغمس فى العمل بهمته المعهودة ، من الفجر الباكر حتى ساعة متأخرة من الليل ٠٠ وفى اليوم الثالث جاءه ساعيه يعلن أن سيدة شابة تبغى مقابلة الغازى وتلح فى طلبها ٠ وقبل أن يفرغ الساعى من كلامه اقتحمت المرأة الحجرة وقدمت له نفسها باسم لطيفة هانم !

ووقف مصطفى كمال لحظة بلا حراك ، غاضبا لدخول المرأة بغير استئذان ، ثم تمالك نفسه فأومأ الى الحاجب كى ينصرف ، والى المرأة كى تجلس !٠٠ كانت تختلف كل الاختلاف عن نساء الاناضول الفلاحات ، فرمقها بنظرة فاحصة ، وكأنما شعر بارتياح خفى لمرآها بعد عناء الايام المنصرمة ومتاعبها !٠وكانت ترتدى الثياب الاوربية الانيقة، فيما عدا غطاء رأسها التركى الذى زاد فى جمال استدارة وجهها !٠ ولم تكن محجبة ، فتبين من ملامحها أنها من أسرة طيبة لا فتاة رخيصة من الاسواق ٠ وكان فى مظهرها هدوء

من ألفت أن تطاع ، ولاسيما حين واجهته بنظرة ثاقبة كأنها نظرة رجل الى رجل ، لا بتلك النظرة الرخوة اللينة التى الفها من النساء !٠٠ ولم يكن طبيعيا من فتاة تركية من اسرة طيبة أن تقتحم مكاتب القادة وتتكلم بمثل هذه الجرأة ٠ فأثار أمرها اهتمامه وفضوله : ترى ماذا تبغى ؟ وماذا يستطيع أن يفعل من أجلها ؟

وكانت نوافذ الحجرة مفتوحة فى ذلك الضحى الحار من سبتمبر ، ومن الخارج كانت تسمع طلقات الرصاص وصيحات الجرحى وحشرجة المصابين ٠ فالاتراك يأخذون بثأرهم من بقايا اليونانيين المستوطنين فى البلدة،ويقتلونهم كما قتلوا هم الاتراك فى يوم سطوتهم !٠٠ ودخل ضابط من مرؤوسي الغازى لينبئه بأن الحرائق قد شبت فى كثير من أحياء اليونانيين،وان الذخائر المخبأة فى أقبية كنائسهم مهددة بالانفجار ونسف الاحياء المجاورة من المدينة !٠٠ ثم انصرف الضابط ، فالتفت الغازى الى ضيفته يسألها عن مطلبها ؟٠٠ انه مطلب غاية فى البساطة ، فوالدها أحدكبار بناة السفن فى أزمير ، وهى قد عادت لتوها من باريس وبيارتز حيث تركت والديها ٠ وهم يملكون منزلا كبيرا مليئا بالخدم فوق تلال « بورنوفو » وراء أزمير ، ولما كانت الدار التى يتخذها الغازى الآن مقرا لقيادته قريبة من الضجيج وغير مريحة فانالفتاة تعرض عليه أنينتقلوأركان حربه الى منزلها لينزلوا فى ضيافتها ويحظوا هناك بكل عناية فى طوقها ٠٠!

وقبل مصطفى كمال ما عرضته شاكرا ٠٠ وانتقل ومرؤوسوه الى الدار الجديدة التى أعجبه هدوؤها ، وكانت تحيط بها الكروم والحدائق وتطل على أزمير وميناءها ، وقد توافرت فيها كل وسائل الراحة ، من الطعام الجيد ، والخدم الأكفاء ٠٠ وفوق ذلك كله كانت هناك الفتاة ! انها ادارية



لطيفة هانم زوجة مصطفى كمال

حازمة وقديرة ، وأنثى ناعمة رقيقة فى الوقت نفسه ،فجذبه سحرها ، واشتهاها ·· وقبل أن ينقضى يومان كان قد أحبها حبا جنونيا عنيفا · كانت لطيفة ، ولطيفة بحق !·· بشعرها الفاحم ، وعينيها السوداوين الضاحكتين ، وصوتها الناعم وهى تتكلم التركية ذات الجرس الموسيقى !

وكان مصطفى قد أحس فى الاسابيع الاخيرة أنه قد بدأ يهرم ، وتسحقه متاعب الحياة ، فعمد الى الخمر يشربها كى يهدىء من ثائرة أعصابه ، أما الآن فقد كف عنها وطلقها · لم يعد بحاجة اليها · لقد عاوده شبابه··ومرة أخرى عادت دماؤه تجرى حارة دافقة بالحياة فى عروقه !

واستجابت لطيفة لحبه ، فأحبته بدورها حبا صريحا عارما · أوليس هو بطل بلادها ومنقذها ؟·· ولم يضيع هو وقتا ، فغازلها غزله الضارى المباشر الذى ألفه ·· واستكانت هى لعناقه فى نعومة ودلال ، لكنها لم تسلمه جسدها قط !·· كانت دائما تروغ منه فى الوقت المناسب تاركة اياه يتحرق شوقا اليها ويسائل نفسه عن مدى حبها له ؟·· وحاول أن يفرض عليها ارادته ، فلعب على وتر وطنيتها وعبادتها لبطولته،مستخدما معها كل أفانين الغرام التى علمته اياها تجاربه···ولكن بلا جدوى !·· لقد كانت خبرته بالنساء خاطئة !

كان قد عاش منذ يفاعته معيشة غير منتظمة ، وحتى حين انقضت ضراوة الشباب لم يطلق مجونه !·· أما الحب فلم يكن مصطفى كمال يعرف عنه غير قليل من المعلومات النظرية المبهمة المستقاة من الكتب الغربية القليلة التى قرأها عنه··· كان « شرقيا » فى نزعته على طول الخط ، وشرقيا ظالما مستبدا !·· لكنه الآن بازاء « شىء » آخر ·· فتاة طيبة النشأة ، حرة النفس ، تعلمت فى الغرب وأشربت الافكار

الغربية فصارت قديرة على أن ترضى عقله وتصارعه وتسمو باهتمامه عن مطالب الجنس العابرة ··· قديرة على أن تكون له شريكة ومعينة ·· ثم هى الى ذلك ناعمة عطرة تستثير رغبته وتلهب دمه الى حد الجنون !·· ألا انه قد فقد توازنه، وبات يتقلب على نار وجمر ·· فلأول مرة فى حياته أحب !

وهرع عائدا الى البيت الذى فوق التل··الى لطيفة هانم، وقد قرر ألا يصبر عليها أكثر مما صبر··فليس ذلك التمنع من جانبها فيما يعتقد الا من قبيل الدلال !

وبعد العشاء وقف مصطفى ولطيفة فى الشرفة العليا يطلان على التلال المشرفة على البحر ، والمقسمة الى حدائق صغيرة مسورة بالصخور الغبراء ، وبين أشجار الزيتون والكروم بدأت أضواء نار المعسكرات والخيام تنير بقعا من الظلام ··· وتحتهما رقدت مدينة أزمير ، والحرائق المشتعلة فى الاحياء اليونانية تمتد وتتسع ، وتلعق ألسنتها الدور والمنازل واحدا بعد الآخر ·· فالتفت مصطفى كمال الى لطيفة وقال وهو يشير الى النار : « انها بشير بأن تركيا قد طهرت من الخونة والاجانب ، وصارت « تركيا للأتراك » !»

ومن الحديقة تصاعدت نسمات دافئة حملت معها رائحة الليل ، وأريج الورد والياسمين ، فجذب مصطفى لطيفة الى صدره ، وقبلها ·· غطى وجهها بالقبل ·· وكاد يحملها على ذراعيه الى الغرفة الداخلية ، حيث كان الخادم قد أعد فراشه !·· لكنها راغت من بين ذراعيه فجأة قائلة : « انك لا تفهمنى · انى أحبك ، لكنى لن أكون خليلتك··تزوجنى أكن لك ! »

الفصل الرابع

النصر الحقيقى

انقضت أسابيع دون أن تتلقى لطيفة هانم أى كلمة او نبأ عن مصطفى كمال !

وكانت قد أحبته الى حد انها ما كانت لتحجم عن ان تبذل له عينيها ، أو حتى حياتها ، كى تجنبه أدنى كدر !.. لكنها قد تعلمت أن تنظر الى الأمور نظرة الغربيين ، فقد تلقت دروسها فى انجلترا وفرنسا ، ومن ثم رأت أن رجلها ينبغى أن يحترم ما يبغى امتلاكه . لقد احتفظت بشرفها كى تحتفظ بالرجل الذى أحبته . لكنها تتساءل الآن : هل أحسنت التصرف ؟.. أم فقدت رجلها من حيث ارادته ؟ !

واذ توالت الأيام دون ماكلمة من جانبه ، عاودت لطيفة هواياتها القديمة : دراسة القانون والأدب الفرنسى .. ومساعدة اللاجئين ، الذين هرعوا الى أزمير بالألوف !

وانغمس مصطفى كمال فى العمل الشاق ، وقد أبعد من ذهنه ذكريات المنزل الواقع فوق تل (بورنوفو) . وعاود الشراب بافراط لتهدئة أعصابه الثائرة ، واستبد به الأرق !.. كان يواجه أزمة حربية تقتضيه أن يتخذ اهم

قرار فى حياته : لقد تزود الجيش اليونانى المهزوم بأمداد جديدة من أثينا وعاد ليجتمع فى «تريس» وراء القسطنطينية! ولم يكن لدى مصطفى كمال سفن حربية ، فكان عليه أن يطارد العدو بطريق البر .. ومن ثم أرسل قواته على عجل الى الشمال ليحطمه قبل أن يستكمل اهبته .. وكان طريقها يخترق الدردنيل ، وهناك فى « شناق » التقت بجيش الاحتلال الانجليزى الذى أبى أن يسمح لها بالمرور الى أوربا ، ووقف حائلا بينها وبين العدو ..!

وفى أنقرة كان مصطفى كمال منهمكا فى وزن جميع الاحتمالات ، جريا على عادته ، قبل أن يتخذ قرارا .. وكان يدرك أنه لو أمهل الأعداء حتى يكملوا استعدادهم فسيفقد الفرصة لدحرهم .. لكنه أدرك أيضا أن جنوده وان أثملتهم نشوة النصر مازالوا خائرى القوى تنقصهم الثياب والذخيرة والاسلحة الميكانيكية الحديثة ، بحيث لو أزمع الانجليز مقاتلتهم حقا لمنعهم من اللحاق باليونانيين لهزموهم شر هزيمة ، على الأقل بفضل خبرة ضباطهم وأسطولهم العظيم وطائراتهم .. ولكن هل الانجليز يعتزمون الاشتباك معهم حقا ؟ أم أنه تهديد أجوف ؟ !

وكان من رأى الفرنسيين والايطاليين والروس أن الانجليز انما يهددون فقط ، وكانت صحف انجلترا تحمل على لويد جورج لرغبته فى القتال .. على أن الأمر كان فى الواقع بيد القائد الانجليزى لجيش الاحتلال « السير تشارلس هارنجتون » .. وتأرجحت كفتا الميزان : كان فى أحداهما الدكتاتور التركى المغوار بطل الاناضول ، الذى يتزعم شعبا أثملته نشوة النصر واعتزم أن يقاتل دفاعا عن بلاده ووجوده .. وفى الكفة الأخرى القائد الايرلندى المعسكر فى العاصمة ، غير الواثق من الارض التى يقف عليها ، والذى يحارب — اذا حارب — لغير هدف سام أو مثل أعلى !

وكانت أخلاق القائدين تناسب الأدوار التى وضعت على عاتقيهما ٠كان القائدالتركى صلب العزيمة حديدى الارادة، يعرف هدفه ويعتزم أن يبلغه أو يحطم تركيا ونفسه فى سبيل هذه المحاولة !٠٠ وكان قد درس خصمه واطلع على كثير من البرقيات التى أرسلها الى لندن والتقط نصوصها قلم المخابرات التركى ، كما تلقى خطابات منه وتقارير عنه كتبها المراقبون الأتراك فى العاصمة ٠٠ وأدرك من كل ذلك أن « هارنجتون » دبلوماسى أكثر منه جنديا ، ولا سيما فى الأزمات الحرجة التى تقتضى مغامرة ومخاطرة ٠ ومن هنا اعتزم مصطفى كمال أمرا ٠ كان بعض ناصحيه يريدونه أن يعقد الصلح فورا ولا يعرض نفسه للهزيمة المحتملة ، فى حين طالبته الاكثرية فى عنف بأن يهجم توا فينحى الانجليز جانبا ويطارد اليونانيين الى أثينا !٠٠ لكنه هو ـ بأعصابه الباردة وتقديره المتزن للأمور ـ تجنب كلا الحلين المتطرفين ٠٠ فرأى أن يحارب اليونانيين من غير أن يعرض نفسه للاشتباك مع الانجليز !٠٠ ولما كان يعتقد أن « هارنجتون » سوف يضعف فى اللحظة الاخيرة ويسمح لجيوشه بالمرور ٠٠ فقد آثر أن يجس نبضه ، وأمر ألفين من فرسانه بالتقدم نحو الخطوط الانجليزية ، فلما أوقفوا فى حزم وبدا الموقف متحرجا ، لم يجد بدا من تجربة حظه بالاقدام على « خدعة حرب » قد تجدى مع خصم ضعيف العزيمة ، فأرسل مشاته نحو المدافع الانجليزية مزودين بأمر بالتقدم وبنادقهم معكوسة ، مع الحرص على اظهار الود والاحترام للسلطات الانجليزية ، ثم مواصلة اختراق خطوطهم وجعل الدفاع عنها عسيرا ٠٠

وكان الخطر عظيما ، فان طلقة واحدة خاطئة ، أو أمرا أسىء فهمه ، كفيل ببدء المعركة وتوريط تركيا فى حرب رسمية مع بريطانيا !٠٠ لكن الطلقة الخاطئة لم تنطلق ،

فقد تحيرت القوات الانجليزية ماذا تفعل ، وكانت الأوامر التى لديها « مائعة » تقضى بمنع مرور الأتراك وفى الوقت نفسه بعدم اطلاق النار أو استخدام العنف !٠٠ وهؤلاء هم الأتراك يتقدمون دون أن يتوقفوا أو يقاتلوا ! ٠٠ واضحى الموقف حرجا ، واقترب الأتراك من الأسلاك الشائكة وبدأوا يخترقونها ٠٠ وفى هذه اللحظة جاءتهم فجأة أوامر من قيادتهم بالتوقف ٠٠ لقد بدأت المفاوضات لعقد هدنة !

كانت فرنسا قد خشيت أن يؤدى اشتباك تركيا مع انجلترا فى القتال الى نشوب حرب عالمية جديدة تنضم فيها روسيا الشيوعية الى جانب تركيا ٠٠ فأرسلت مندوبها مسيو « فرانكلان » بويون لمفاوضة مصطفى كمال رأسا ٠ وكان هذا على استعداد لأن يعد الغازى ، باسم الحلفاء واسم انجلترا أيضا ، بأى شىء يحول دون وقوع الحرب ، كان يتعهد الحلفاء بأن يخلى اليونانيون « تريس » ويعيدوا تركيا الاوربية الى الأتراك ٠٠!

وتظاهر مصطفى كمال بأنه يقبل العرض كرما منه ، فى حين كان ذلك أقصى ما تمناه وأراده !٠٠ انه النصر الحاسم الذى يوفر عليه خسارة لا أقل من خمسين ألف جندى ، وأشهرا طويلة من القتال المرير ، ثم نتيجة غير مضمونة !٠٠

وهكذا فشل تهديد الانجليز ونجحت خدعة الغازى !

وأمر مصطفى كمال قواته بالتوقف ، وأرسل عصمت ليقابل هارنجتون فى قرية « مودانيا » للاتفاق على التفصيلات ٠٠ وهناك وافق الحلفاء على طرد اليونانيين من « تريس » وجلائهم هم أنفسهم عن القسطنطينية وتركيا بأسرها !

وانتصر مصطفى كمال ٠كانت معركة صحراء « سقاريا» نقطة التحول فى حظه ، وكانت معركة أزمير نجاحا كبيرا ، أما هذا فهو النصر الحقيقى ، نصره هو !٠٠ ان شجاعته

وعزيمته وبراعته وصدق تقـــديره ، هى كلها التى مكنت جيشه المهلهل الناقص التغذية والعدة والعتاد من أن يطرد اليونانيين من بلاده ويجبر الامبراطورية البريطـــانية على التسليم له بالشروط التى طلبها ، ويخيف أوربا بأجمعها ! والآن آن له أن يملى شروط الصلح ، فى الداخل والخارج !

زواج خاطف

ما كادت تهدأ الأحوال ويخلص مصطفى كمال من شئون الحرب والجيش مؤقتا ، حتى عاد الى التفكير فى « لطيفـــة هانم » وفيما لقيه من تمنعها فى ذلك المنزل الذى تحيط به الحدائق فوق تل « بورنوفو » •• ولم يكن قد حدث أحدا عن فشله فى اخضاع هذه المرأة ، فراح اخوان الصفا فى أنقرة يمازحونه تحت تأثير الخمر ويغبطونه على الصيد الجديد الدسم الذى ظفر به !

أما بيت مصطفى كمال فى « شان كايا » فكان هادئا ، بعد أن غابت عنه « فكرية » •• وقد تعلقت به المسكينـــة وبكت واستعطفت حين أصر على أن تســـافر الى ميونيخ للعلاج ، لكنه لم يزد على أن طيب خاطرها بأن أعطاها مالا كثيرا لتنفق منه فى رحلتها • وحينما بعثت اليه من هناك برسائلها ، لم يجب على واحدة منها !•• لقد أراد أن يمحو هذه الصفحة من كتاب حياته ، ورغم ايمانه باخلاص فكرية له ، وبشدة رغبتها فى العودة ، لم يشأ أن تعود !

وكانت أمه قد غدت طريحة الفراش ، فراح يســـائل نفسه : ترى كيف تستقبل لطيفة ؟•• انها لم ترحب يوما بفكرية وكانت تغار منها ، وتأبى أن تكون صلته بأية امرأة لا تقوم على الزواج !•• وراح يقلب الأمر على وجوهه فى روية ، ويزن جميع الاحتمالات ، حتى اذا ما انتهى الى قرار عمل على تنفيذه بسرعة الصاعقة !

طلب أن تعد سيارته من غير أن يخبر أحدا عن وجهته ، ثم اندفع ينهب أرض تركيا قاصدا أزمير ، ومنهـــا الى بورنوفو !

وكانت لطيفة فى حجرتها بالطـــابق العلوى ، فاندفع يصعد السلم قفزا •• واقتحم غرفتها بغير استئذان حيث ضمها الى صدره قائلا : « سنتزوج الآن •• نعم سنتزوج الآن بلا ابطاء ، وبلا أى احتفال ! »

ولبثت الفتاة برهة كالمأخوذة ، وقد أدهشـــها قدومه المفاجىء واقتراحه الغريب !•• ثم طلبت اليه أن يمهلهـا بضع ساعات •• فقبل على مضض !

وبعد الفجر بقليل عاد يلح عليها أن تستعد للذهاب •• ثم دفعها الى الطريق دفعا ، واستوقف أول شيخ معمم كان فى طريقه الى المسجد وأمره بأن يزوجهمـــا فورا •• فى الشارع !

ولم يخبر أحدا بما حدث ، بل سافر ولطيفة معه عبـــر الاقليم الذى دمرته الحروب ! وحين ظهرت الى جانبـــه فى سيارته أثنـــاء استعراض رسمى ، علم أصحابه وخلانه أن الغازى قد اتخذ لنفسه زوجة !•• وعندئذ سخر بعضهم هازئين ، وتنبأ آخرون بأن الزواج لن يعمـــر طويلا •• واستنتج فريق ثالث من زواجه هذا أنه يرغب فى أن يصبح ملكا أو ســـلطانا ويؤسس أسرة مالكة •• أما أمه وأهالى الريف التركى البسطاء فقد هللوا فرحا وابتهاجا بهـذا الزواج !

□

الآن •• بلغ مصطفى كمال قمة مجده ، وحق له أن يقف مزهوا بنفسه !

لقد انتصر الأتراك ، وانزوى الأعداء ـ الانجليـز والفرنسيون والايطاليون واليونانيون ـ وراحوا يتشاجرون فيما بينهم ، وقد استحال تحالفهم الى عداء !·· أما شعوبهم فقد أرادت السلام بأى ثمن ، ولم تكن على اســتعداد لأن تضحى برجل واحد ، أو درهم واحد

لكن مصطفى كمال أدرك أن سلاحه الاكبر فى مفاوضات الصلح القادمة لن يكون سوى جيشه المؤلف من مائة الف جندى يرتدون الأسمال البالية ، يشد أزرهم تصـميم الشعب على النصر أو القبر !

وصار مصطفى كمال يجاهر علنا بترديد الشروط التى تقبل تركيا الصلح على أساسها ، وكانت هى الشروط التى تضمنها الميثاق الوطنى القديم ··· أن تغدو تركيا دولة مستقلة ذات سيادة داخل نطاق حدودها الطبيعية ودون أى تدخل أجنبى !

ولو وجد فى مكانه رجل آخر صغير النفس لضاعف من مطالبه بعد الانتصارات التى أحرزها ! وبعد الحالة التى آلت اليها قوى الحلفاء ، وماذا يمنعـه من الاسترسال فى الغزو والتوسع ، وهذه هى رسائل التهنئة وبرقيات المديح والهدايا من سيوف الشرف تنهال عليه من جميـع الدول الاسلامية والغربية ·· من الهنـد ، وافريقيا ، والملايو ، وافغانستان ، وايران ، والصين ، وروسيا ، وهنغاريا ، وغيرها ؟

والواقع أن انتصار مصطفى كمال أنعش آمال الاجناس الشرقية ، وزاد فى مخاوف الاجناس الغربية ، بحيث لم تكن تنشب أية اضطرابات عدائية نحو دول الغرب فى أى ركن من المعمورة الا اتجهت الأنظار نحو هذا القائد الشرقى الذى هزم كل جبروت أوربا ! ورأت فيه شـعوب الشرق

بشيرا بخلاصها من ربقـة « الرجل الابيض » · وقد أمده السوفييت بتشجيعهم ·· وعرضت عليه ايران وأفغانستان عقد معاهدات هجومية معتركيا ، وطلب الهنود والسوريون والمصريون عونه · ومن جميع الأنحاء انهالت عليه الدعوات كى يصبح بطل الشرق فى كفاحه ضد الغرب !

ولكنه برغم انتشائه بخمر المديح والملق ، وزهوه بنفسه على خشبة المسرح العالمى ·· ظل كعهـده محتفظا باتزان أحكامه ، واضحا فى أهدافه ومراميه ، لا يستسلم لوهم أو خيال ، ولا يجرى وراء سراب زائف !

لقد أدرك مصطفى كمال مدى ما يستطيع الأتراك أن يفعلوه ، فلم يطلق خياله ليجمح وراء أحلام الغزو الخارجي وتكوين الامبراطوريات ، بل أقنع نفسه بأن الامبراطورية العثمانية قد ماتت وانتهت ، وانه لخير للاتراك أنفسهم أن يتخلصوا من تلك الامبراطورية التى امتصت النخـاع من عظامهم ، وقتلت الملايين منهم ـ طيلة خمسة قرون ـ فوق تربة العراق وبلادالعرب وأفريقيا !··لقد استغل السلاطين الأتراك شعبهم فى غير فائدة لهذا الشعب !·· واذن حسب تركيا ما قاست ، ولترقد تلك الامبراطورية العثمانية الى الأبد حيث انتهى بها المصير !

وكان جواب مصطفى كمال على بعض ممثلى دول الشرق الذين جاءوا ينشدون معونته : « نحن جميعا نتمنى أن نرى اخواننا المسلمين يعيشون أحرارا ·· لكننا لا نستطيع أن نمنحهم عونا ، غير أمانينا الخالصة ! » ·· وقال مخاطبـا الجمعية الوطنية : « أنا لست مؤمنا بعصبة من جميع الدول الاسلامية ولا حتى بعصبة من الشعوب التركية ، ولكل منا أن يعتنق الرأى الذى يراه ، أما الحكومة فينبغى أن تلتزم سياسة ثابتة مرسومة ، مبنية على الحقائق ، لها هدفواحد، وواحد فقط : أن تحمى حياة الوطن واستقلاله داخل نطاق

حدوده الطبيعية · فلا العاطفة ولا الأوهام ينبغي أن تؤثر في سياستنا ·· وسحقا للأحلام والخيالات ، لقد كلفتنا غاليا فى الماضى ! »

وكان فى موقفه تجاه « البلاشفة » أكثر وضوحا ، فقد جاءه وفد من موسكو يرأسه القائد الأوكرانى « فرونز » ، وأقام وزير أذربيجان مأدبة عشاء تكريما للوفد ، فوقف القائد يتحدث عن نصرة البلاشفة للشعوب الشرقية المحكومة ، ضد شعوب الغرب الظالمة ، التى تضطهدها ، ثم ناشد تركيا أن تنضم الى بلاده فى « معركة التحرير » ·· وعندئذ وقف مصطفى كمال ليجيبه،فقال فى كلمته المختصرة الحاسمة : « ليس هناك دول ظالمة ولا دول مظلومة ··وانما هناك فقط أولئك الذين يسمحون لأنفسهم بأن يتحملوا الظلم · والاتراك ليسوا من هؤلاء ، فهم يستطيعون أن يحموا أنفسهم ·· فليفعل الآخرون مثلهم ! »

نعم ·· ان الغازى لن يقود تركيا الى حماقة من تلك الحماقات ، أو ينصب نفسه بطلا للشرق معاديا للغرب ، وللاسلام ضد المسيحية ، أو للاجناس المضطهدة ضد مضطهديها ، ولكنه لن يكون الا كما حدد برنامجه بقوله : « ليس لنا الا مبدأ واحد ، هو أن ننظر الى جميع المشكلات بالعين التركية ، ونصون مصالح تركيا ! »

لقد اعتزم أن يجعل من تركيا ، داخل نطاق حدودها الطبيعية ، دولة صغيرة الرقعة ، ميسورة الحال ! لكنه فى نطاق هذه الحدود سوف يجعل نفسه السيد الآمر والحاكم المطلق ، فقد كان يؤمن أنه وحده القادر على أن يخلق تركيا الجديدةوينظم أمورها ويقودها الىشاطىء النجاح والرفاهية!

وهكذا لم تكن كل هذه الانتصارات العسكرية وما تلاها من مظاهرات التأييد والاعجاب لتحجب عن عينى مصطفى

كمال تلك الحقيقة الهامة فى بلاده نفسها ، وهى أن جميع قواد الجيش ـ باستثناء عصمت وفوزى وبضعة أصدقاء آخرين ـ وجميع رجال السياسة فيها ينفرون من صيرورته رئيسا عليهم !·· بل ان كثيرين منهم يمقتونه أشد المقت ، ولا يتورعون عن الكيد له بعد أن هزم العدو الاجنبى وخلا الجو لدسائسهم !

واستدعته الجمعية الوطنية مرتين الى أنقرة ، كى تناقشه بصدد مؤتمر الصلح القادم ·· وعلم هو أنهم لم يجعلوه الحاكم المطلق الا ليواجه الأزمات العسكرية · لكنه كان مستعدا لمواجهتهم !

وقالت له « خالدة أديب » ذات مساء بأسلوبها الخاص الهادىء : «انك سوف تستريحبعد مؤتمر الصلح يا باشا، فلقد جاهدتجهادا شاقا » فأجابها فى عنف وعيناه تومضان ببريق مخيف : « أستريح ؟ أية راحة ؟ اننا بعد أن خلصنا من اليونانيين سوف يقاتل بعضنا بعضا ، أو سوف يأكل بعضنا بعضا ! »

وأرسل الى أنقرة يعتذر بأنه لن يستطيع الذهاب ، لأن واجباته العسكرية تعوقه فى أزمير ·· وعندئذ لحق به « رؤوف » ـ رئيس الوزارة ـ ولفيف من رجال السياسة، ليستطلعوا رأيه فيما ينبغى أن تكون عليه الحكومة فىتركيا الجديدة ، فليس معقولا أن تكون لتركيا حكومتان : حكومة مؤقتة ذات سلطان مقرها أنقرة ، وأخرى رسمية « اسمية» فى العاصمة يرأسها السلطان ومجلس وزرائه !

واقترح بعضهم أن تندمج الحكومتان فى حكومة واحدة يصبح فيها السلطان ملكا « دستوريا » ويصير مصطفى كمال رئيسا للوزارة · لكنه أخفىنواياه الحقيقية عنمحدثيه فلم يصرح لهم بأنه لن يقنع بأن يكون رئيسا لوزارة تخضع

«لسلطان» دستورى ، وانما يرى أن تذهب السلطنة والخلافة وكل مخلفات الامبراطورية العثمانية بذهاب الأعداء الاجانب من البلاد ، وتنشأ جمهورية يستطيع فى ظلها أن ينصب نفسه حاكما مطلقا على البلاد • وعندئذ يكون فى استطاعته أن يصلح تركيا الاصلاح الكامل الشامل !••

لكن رؤوف توجس شرا من نوايا مصطفى كمال ، فظل يلح عليه بأسئلته ، وأخيرا وعده الغازى بأن يلقاه فى أنقرة ليطلعه على آرائه •• وفى أنقرة اجتمعا حول مائدة الشراب ، وكان معهما رفعت وعلى فؤاد ، أى الجماعة التى التام شملها فى المؤتمر الاول فى « أماصيا » سنة ١٩١٩ ، يوم ان كان مصطفى فى حاجة الى معاونتهم جميعا •• لكنه اليوم غيره بالأمس ، فقد صح عزمه على أن يصل الى أهدافه بأى ثمن وأى سلاح ، ومهما يطل به الانتظار ، فلن تأخذه شفقة على أحد ، أو توهن من عزيمته عاطفة ، أو يعقد من قراراته اخلاص لانسان !

الغاء السلطنة

رأى مصطفى كمال أن عليه أن يتمهل فى خطاه ، فقد كانت المعارضة أقوى مما توقع ، وعليه أن ينتظر حتى تحين الفرصة الملائمة ، أو يخلق هو هذه الفرصة بنفسه !

وبعد مضى أسبوع على اجتماعه برؤوف فى منزل رفعت ، دعا الانجليز السلطان أن يرسل وفدا الى « لوزان » لبحث شروط الصلح ، ورجوا منه أن ينقل الدعوة أيضا الى الجمعية الوطنية فى أنقرة •• وكان ذلك خطأ جسيما !•• فقد تكهرب الجو عقب وصول هذه الدعوة ، وثارت فى أنحاء البلاد عاصفة من السخط ، اذ كان كل تركى صميم يكره « وحيد الدين » ويعتبره الخائن الذى مالأ الانجليز واليونانيين فى حربهم لتدمير تركيا

كان هو ولويد جورج عدوى الشعب التركى الحقيقيين اللذين يمقتهما مقتا شديدا !•• وانتقلت موجة السخط من أنقرة الى القسطنطينية ذاتها ، فاعتدت الجماهير على أنصار السلطان القليلين ، وانتزع صحفى منهم يدعى « على كمال» من أكبر أندية المدينة فى وضح النهار ، تحت سمع بوليس الحلفاء وبصره ، واقتيد الى حيث رجم بالاحجار حتى مات ! ولم يعد يجرؤ أحد من حاشية السلطان أو خدمه أو وزرائه ، بل حتى رئيس الوزارة نفسه ، على الظهور فى الشوارع ••!

وفى أنقرة اجتمعت الجمعية الوطنية ، فتصايح النواب ثائرين : ماذا فعلت حكومة العاصمة من أجل انقاذ تركيا ؟ وأى حق لذلك العجوز الأحمق توفيق باشا رئيس وزارتها ، فى توقيع الدعوة ؟ انه وكل وزرائه كلاب ، عجزة خونة ، يلعقون بصاق الضفدعة المدعوة سلطان استانبول !•• ان لتركيا حكومة واحدة فقط وتلك هى حكومة أنقرة ، هى الجمعية الوطنية التى تضم نواب البلاد !

وادرك مصطفى كمال أنه ـ سواء حان الوقت المناسب أم لم يحن ـ ينبغى له أن يضرب ضربته فورا ، وقد يستطيع اقناع النواب بخلع وحيد الدين وبالغاء السلطنة ، لكنه لا يجرؤ على مهاجمة الخلافة ، فذلك من شأنه أن يمس الشعور الدينى للشعب جميعه !

وفى وسط الضجيج الذى ساد قاعة المجلس ، صعد مصطفى كمال الى المنصة والتمس من النواب أن يصغوا اليه ، ثم اقترح أن يفصل بين السلطنة والخلافة ، فتلغى السلطنة ويخلع وحيد الدين !

وعندئذ تنبه النواب من غمرة ضجيجهم ليتبينوا خطر

القرار الذى يراد منهم أن يصدروه، فسكن هياجهم تدريجا، وبدأوا يتناقشون فى الأمر !

لكن مصطفى كمال وقد كشف عن نواياه لم يعد فى وسعه أن يتراجع أو يقبل الهزيمة .. ومن ثم طالب — يؤيده ثمانون من أتباعه الشخصيين — بأخذ الرأى على الاقتراح فورا .. لكن المجلس أحال الاقتراح الى لجنة الشؤون القانونية كى تبحثه !

وفى اليوم التالى اجتمعت اللجنة ، وكانت مؤلفة من عدد من المحامين ورجال الدين .. فقضت ساعات طويلة مملة فى بحث مسألة فصل السلطنة عن الخلافة ، واستشهد أعضاؤها فى بحثهم بنصوص القرآن والسنة، ومئات الأمثلة المستمدة من تاريخ الخلفاء سواء فى بغداد أو القاهرة .. وفى ركن من القاعة جلس مصطفى كمال متنمرا كالوحش المفترس ، يشهد صامتا مناقشاتهم وجدلهم حول تفسير الكلمات وتخريج النصوص .. وكانت اللجنة بأجمعها ضد اقتراحه ، وأدرك أنه سوف يخسر الجولة الأولى بسبب هذه المجادلات البيزنطية فى التوافه الصغيرة ، فبدأ حنقه يتفاقم ويهدد بالانفجار . ماذا ؟ أيليق به أنه يجلس — وهو السيد الغازى الفاتح — يوما كاملا يتفرج على حفنة من الفقهاء يتلاعبون بالألفاظ وينفخون الحياة فى دستور ميت ؟ !

وفجأة فقد سيطرته على نفسه فقفز غاضبا واعتلى مقعدا ثم قطع مناقشات المجتمعين صائحا : « أيها السادة ، لقد اغتصب السلطان العثمانى السيادة من الشعب بالقوة .. وبالقوة اعتزم الشعب أن يستردها منه . ان السلطنة يجب أن تفصل عن الخلافة وتلغى .. وسواء وافقتم أم لم توافقوا فسوف يحدث هذا .. كل ما فى الأمر أن بعض رؤوسكم سوف تسقط فى غضون ذلك ! »

كان يتكلم بسلطان الدكتاتور الذى يصدر أمرا واجب التنفيذ ، فوقف رئيس اللجنة وقال : « أيها السادة . لقد أوضح الغازى المسألة لنا من وجهة نظر تخالف تلك التى كنا قد فهمناها » .. وفى عجلة يمليها الحرص على الفرار من وجه الخطر تكأكأ الاعضاء يتواصون باحالة الاقتراح الى الجمعية كى تصدر به قانونا ! نعم ان السلطنة ينبغى أن تفصل عن الخلافة وتلغى ، ووحيد الدين يجب أن يخلع ! ثم جمع المشايخ أرديتهم حول أجسامهم وانطلقوا فارين من المكان قبل أن يثب الوحش الضارى عليهم !

والتأمت الجمعية الوطنية من فورها لتناقش الاقتراح ، وبدأت اجراءات أخذ الرأى عليه بالتصويت العلنى ، فتبين مصطفى كمال أن الاتجاه الغالب يميل الى رفضه .. لكنه يجب أن يكسب المعركة بأى ثمن !.. ومن ثم جمع أنصاره حوله وطلب أخذ الرأى عليه مرة واحدة ، فاعترض بعض النواب مطالبين بأخذ الرأى بالمناداة بالاسم ..وأبى الغازى أن يوافق على هذه الفكرة . وكان أنصاره مسلحين،وبعضهم قدير على ارتكاب أية حماقة . انهم قد يطلقون النار اذا طلب اليهم ذلك !

وصاح مصطفى كمال وفى صوته رنة التهديد ، بينما وضع أنصاره أيديهم على مسدساتهم: «أنا واثق من أن المجلس سيقبل الاقتراح باجماع الآراء . ويكفى أخذ الاصوات برفع الأيدى ! » .. وعندئذ طرح رئيس الجمعية الاقتراح للتصويت ، وعينه لا تفارق مصطفى كمال ، فلم ترتفع غير أيد قليلة !.. لكن الرئيس أعلن النتيجة بقوله : « أقر المجلس الاقتراح باجماع الآراء » .. فقفز نفر من النواب فوق مقاعدهم محتجين صائحين : « هذا غير صحيح ..نحن لم نوافق ! » . فصاح بهم آخرون : « اجلس .. اسكت

.. خنازير ! » .. وراح الفريقان يتبادلان أقذع الشتائم والفاظ السباب ..!

وساد الهرج والمرج ، فأومأ الغازى الى رئيس المجلس ، فعاد هذا يكرر قراره صائحا بأعلى صوته : « باجماع الآراء قررت الجمعية الوطنية الكبرى لتركيا الغاء السلطنة » ثم فض الجلسة .. فغادر مصطفى قاعة المجلس يحيط به أنصاره ..!

وتتابعت الأحداث بعد ذلك مسرعة .. فلم تمض خمسة أيام حتى استولى رفعت على مقاليد الامور فى العاصمة بانقلاب مفاجىء ، تم تحت بصر الجنرال هارنجتون وسمعه، وبمقتضاه الغى حكومة السلطان !.. ولبث السلطان أياما يتجاهل هذا الوضع ، ثم أرسل الى هارنجتون رسالة حملها اليه الشخص الوحيد الذى بقى « وحيد الدين » واثقا من نواياه ، وهو قائد جوقة الموسيقى بالقصر السلطانى !.. وكانت الرسالة شفوية ، فاه بها الرجل أمام الجنرال الانجليزى وهو يرتجف رعبا : « ان السلطان يلتمس حماية القائد الانجليزى والحكومة البريطانية ، فان جلالته على ثقة من أن حياته معرضة للخطر ! »

وبعد يومين وقفت سيارة اسعاف بريطانية أمام الباب الخلفى لقصر السلطان، فخرج وحيد الدين ليستقلها، يتبعه ابنه ، وخصى يحمل حقيبة صغيرة فى يده ، وحمال يحمل متاع جلالته .. وكان الفجر يرسل أضواءه الاولى والسماء تمطر رذاذا خفيفا ، فأدلى مساعد السائق الانجليزى سلم السيارة الخشبى من الخلف ، واذ ذاك صعد عليه ، يحمل مظلته فى يده ، « آخر سلاطين آل عثمان ، امبراطور جميع الاتراك ، السيد العظيم المرهوب من العالم بأسره » .. ثم انطلقت به السيارة الى حيث استقل زورقا بخاريا حمله

بدوره الى بارجة بريطانية كانت فى الميناء ، فاستقبله قبطانها بالاحترام اللائق .. وعلى أثر اعلان فرار « وحيد الدين » نودى بابن أخيه « عبد المجيد » خليفة للمسلمين.. خليفة فقط لا سلطانا !.. خليفة مجردا من كل سلطان ونفوذ !

حزب الشعب

انتصر مصطفى كمال على السلطان وحيد الدين وأعانه على الانتصار مجده كقائد حربى ظافر ، وكراهية الجميع لذلك السلطان .. لكنه تعلم من الأحداث الأخيرة درسا مؤداه انه لكى يحتفظ بسلطته ينبغى ان يقاتل عن كل شبر من الارض، كما يقول المثل !.. فقد كان النواب — سواء من العسكريين او رجال السياسة — يقفون ضده .. كان اكثرهم يخشون بأسه ويرتابون فيه ، وبعضهم يكرهه كراهية شخصية !

وكانت البلاد بعد الغاء السلطنة بغير حاكم شرعى ، بحيث بات يتعين البت فى شكل الحكومة الجديدة خلال أسابيع .. وكان الشعب بقلبه وعواطفه محافظا ، والجمعية الوطنية تميل الى انشاء ملكية دستورية ، على صورة من الصور .. وكان من عادة مصطفى كمال ان يعد عدته لكل خطوة فى حذر ، حتى اذا ما حانت اللحظة المناسبة ضرب ضربته .. ولئن ساقته الحوادث الى كشف نواياه ضد السلطان قبل ان يتأهب لذلك ، فانه فى هذه المرة ينبغى ان يدبر خطته فى روية !

ان فى وسعه ان يأتلف مع رؤوف ، لكن ذلك لن يؤدى — على احسن الفروض — الى أكثر من صيرورته رئيسا اسميا لحكومة دستورية ، وهذا ما لا يطمع فيه . انه يطمع فى أن يصير دكتاتورا !..ولكن ، علام يعتمد فى بلوغ غايته ؟. ان الجيش الذى يقف خلفه اليوم ينسى انتصاراته وامجاده غدا ،

حين يتقادم به العهد فى أحضان السلام والفقر !. وحفنة انصاره من النواب المستعدين لتأييده بمسدساتهم ، لن يستطيع أن يرهب بهم الجمعية والبلاد كل حين !. واذن ينبغي أن يكون له سند غير القوة .. أن يخلق آلة سياسية محاربة يتخذها سلاحا له !

وهنا فكر فى لجان المقاومة المحلية التى انشأها فى الاقاليم بمعاونة رؤوف ورفعت سنة ١٩١٩ ، والتى كانت نواة المنظمات الشعبية للمجندين التى طردت الانجليز واليونانيين من البلاد وقادتها الى النصر .. ولما كانت هذه المنظمات التى يلتهب أفرادها وطنية وحماسة ذات صبغة عسكرية ، اى تخضع لأمره مباشرة . فقد قرر ان يحيلها الى آلة حزبية منظمة تخضع لاشرافه وتصبح الحاكم الفعلى لتركيا .. وفى وسعه ان يطلق عليها « « حزب الشعب » ، ويمنح كل لجنة منها سلطة اختيار عمدة القرية وواعظها وناظر مدرستها ومدير شرطتها وبريدها وكناسى شوارعها .. ومن هنا ترتبط اللجان به ارتباطا شخصيا بحيث ينعكس على كل منها نجاحه او فشله !

وبعد ان أعد خطته قام بجولة فى الأقاليم ، استقبل خلالها فى كل مكان بالحفاوة والاكبار ، بوصفه « الغازى » ومحرر الوطن .. وجن الناس حماسة برؤية بطلهم المغوار. وخلال جولته جمع فى يده أعنة تلك المنظمات ، فكان اينما حل يدعوها الى الاجتماع ، ويعامل اعضاءها باحترام ، ويصغى الى آرائهم ومطالبهم .. ثم يقول لهم فى النهاية : « احتفظوا بمنظماتكم ، ان العدو الخارجى قد ذهب ، لكن الحرب لم تنته بعد ، فالبلاد مليئة بالخونة .. فقفوا فى صفى، واطيعونى .. وبذلك نستطيع أن نبنى معا تركيا الجديدة ، وطنكم الذى استرددتموه بدمائكم ، حتى تغدو من مناعة الجانب بحيث تقاوم هجمات جميع أعدائها من الخارج او

الداخل . انكم سوف تكونون « حزب الشعب » فضموا جميع الأتراك المخلصين الى منظماتكم .. فأنتم الشعب ، وحزب الشعب ، الذين ينبغى ان تحكموا تركيا ! »

واذ ضمن مصطفى كمال التفاف هذا « الجيش » العظيم من القرويين حوله ، وفرغ من اعادة تنظيم تلك اللجان وتعيين ممثليه فيها ، عاد الى انقرة ليواجه خصومه مطمئنا !

□

واستهل الغازى هجومه بعرض مرسوم يقضى بالغاء حصانة النواب الشخصية من الاعتقال والمحاكمة .. ثم اتبعها برقابة صارمة على الصحف ، وأمر البوليس بمنع اى اجتماع او خطاب عام !.. لكن النواب رفضوا مرسوم رفع الحصانة غاضبين ، اما الرقابة على الصحف والاجتماعات فقد كان خارج نطاق نفوذهم أن يمنعوها ، اذ كانت حالة الحرب ما تزال قائمة ، وشكل الحكومة الجديدة لم يتقرر بعد ، فكان مصطفى كمال ما يزال الحاكم الفعلى .. وقد أدرك النواب مغزى جولته فى الأقاليم ، ومدى ما يسعى اليه ، بل ادركوا أنه لن يتردد فى الانتقام من كل من يعارضه منهم فى اول فرصة تسنح له .. لكنهم كانوا فى الوقت نفسه عاجزين عن ايقافه عند حده !

على انهم وجدوا لأنفسهم ثغرة اخرى ينفذون منها اليه. كان مصطفى كمال قد احتفظ فى يديه بكل الاجراءات الخاصة بمفاوضات مؤتمر الصلح ، وأرسل عصمت الى المؤتمر — برغم احتجاج الكثيرين — ليمثل تركيا ، مزودا بتعليماته الشخصية ، متجاهلا فى ذلك كلا من الوزارة والجمعية الوطنية .. وافتتح المؤتمر فى لوزان فى نوفمبر سنة ١٩٢٢ ، وسارت اموره فى البداية سيرا سيئا ، فقد

اختلف عصمت مع اللورد كرزون ـ ممثل الحلفاء ـ في جميع شروط الصلح ، وبعد ان استمرت المشاجرات بينهما ثلاثة اشهر لم يصلا خلالها الى تفاهم ، انفض المؤتمر فى فبراير سنة ١٩٢٣ بغير نتيجة ، وعاد عصمت الى تركيا فهرع مصطفى كمال الى لقائه فى (اسكى شهر) حيث عرف منه جميع الأنباء وعاد معه الى انقرة . وكان الغازى يعلق على نجاح المؤتمر اهمية كبيرة ، فان فشله كفيل بافساد كل اثر لانتصاراته الحربية !

وفى محطة انقرة فوجىء الاثنان بتخلف رؤوف رئيس الوزراء ونواب المدينة عن استقبالهما ، كما يقضى العرف بذلك .. فثارت ثائرة الغازى ، واستدعى رؤوف اليه وطلب منه ايضاحا لمسلكه .. فأجابه رؤوف محتجا على ارساله عصمت الى المؤتمر بغير استشارة الوزارة وعلى اسراعه لمقابلته فى اسكى شهر بغير استشارتها ايضا .. الأمر الذى يعتبره عملا غير دستورى !.. ثم اردف رؤوف احتجاجه بالاستقالة من رياسة الوزارة ، ومنذ ذلك اليوم صار خصما لدودا لكل من عصمت ومصطفى كمال !

وتكتلت الجمعية الوطنية لتشد من ازر رؤوف ، فقضت تسعة ايام تناقش مسألة مؤتمر الصلح .. واثناء المناقشة ندد النواب بقبول مصطفى كمال الهدنة مع الأعداء فى « مودانيا » ووصفوا الهدنة بانها خدعة انطلت عليه ، فى حين كان ينبغى ان يتابع يومئذ زحفه الى القسطنطينية ثم الى اثينا اذا اقتضى الأمر !.. ثم حمل النواب على عصمت حملة شعواء اتهموه فيها بالخرق والغباء فى مفاوضة كرزون ، وانتقدوا ارساله دون موافقتهم ، ثم قرروا التصويت على تنحيته وارسال خلف له يستأنف مفاوضات لوزان !

وهنا عمد مصطفى كمال الى استخدام كل حيلة وسلاح فى جعبته للتأثير فى النواب كى يصوتوا ضد القرار المقترح ، فقد كان عصمت رجله الذى يطيعه بلا مناقشة ، وكان هو حريصا على عودته الى لوزان وعلى ان ينجح فى مهمته فيها !.. ومن ثم توسل بالوعد تارة ، وبالوعيد تارة اخرى وبتأليب النواب ضد رؤوف من جهة ثالثة ، حتى احبط قرار تنحية عصمت ! وعاد عصمت الى لوزان وفى عزمه ان ينجح فى مهمته بأى ثمن .. فان فشل مفاوضات لوزان يعنى نهاية مصطفى كمال .. ونهايته هو !

اعلان الجمهورية

انهمك مصطفى كمال ليل نهار فى تنظيم حزب الشعب ، ولم يكن لديه متسع من الوقت بينما الأزمة تقترب يوما بعد يوم !.. وأدرك النواب بدورهم خطورة الخطة السياسية التى يدبرها الغازى للانفراد بالحكم ، فقرروا احباطها بأى ثمن .. ومن ثم ارسلوا اليه وفدا يطلب اليه التنحى عن رياسة الحزب الجديد ، بحجة ان رئيس الدولة ينبغى ان يظل فوق الأحزاب !.. لكنه اجابهم بقوله : « لست اوافقكم على حجتكم ، فانتم تتكلمون عن زعامة احد الأحزاب السياسية ، وانا اقول انه ليس فى الدولة غير حزب سياسى واحد ، فالوحدة جوهرية لنا ، ولا يمكن ان توجد احزاب اخرى تناوئنا . ويهمنى من وجهة الكرامة والشرف ان اظل زعيما لهذا الحزب الوحيد ـ حزب الشعب ـ ورئيسا للدولة فى وقت واحد ..! »

وكان الجواب تحديا للجمعية الوطنية . فبدات الاعصاب تثور .. وبدا كثيرون من زملاء مصطفى كمال الذين وقفوا الى جانبه فى احلك الايام خلال السنوات الأربع الماضية يتكتلون ضده بزعامة رؤوف !.. كان بينهم رحمى ، وعدنان وكاظم قره بكير ، ورفعت وعلى فؤاد ، ونور الدين .. ولم يبق فى صفه غير عصمت ، وفوزى ، وبعض اصدقائه

الشخصيين واصفيائه فى مجالس الشراب !

وتوالى انضمام النواب الى رؤوف واحدا فى اثر الآخر ، واخذوا ينتقدون مصطفى كمال علانية !.. انهم لن يقروا ان تحكم البلاد حكما مطلقا ، ولا سيما على يد مصطفى كمال ، ذلك المنتقم الفظ صاحب الآراء الثورية الشاذة والوسائل غير اللائقة ! ان احدا لن يأمن على نفسه فى ظل حكم رجل مثله ، وكونه قد حقق لتركيا انتصارات عسكرية لا يبرر ان يغدو حاكمها المطلق ابد الدهر !

وتداعت الأكثرية التى كانت لمصطفى كمال فى الجمعية فى سرعة مخيفة ، فبادر الى حلها واجراء انتخابات جديدة ، آملا ان يحصل على الأغلبية فيها بفضل معاونة حزبه الجديد .. لكن المجلس الذى اسفر عنه الانتخاب جاء مناهضا له شأن المجلس القديم ، يأبى الانصياع لاوامره ، ويحدث ضجيجا كلما خاطبه الغازى بلهجة ناظر المدرسة الذى يخاطب تلاميذه !

وبدا واضحا أن الانتظار فى غير مصلحته ، وانباه انصاره أن حزب الشعب يقوى بسرعة ، واكد له فوزى ان الجيش كله يؤيده .. وكان خصومه الرئيسيون غائبين عن انقرة فى تلك الآونة ، وكان عصمت قد أحرز فى لوزان نجاحا باهرا حصل بمقتضاه لتركيا على جميع مطالبها تقريبا ، وجلت آخر جيوش الاحتلال الانجليزية عن العاصمة ، وذيولها بين سيقانها .. فلمع اسم مصطفى كمال مرة اخرى باعتباره القائد الظافر ، وحانت فرصته للبت فى امر حكومة تركيا الجديدة قبل ان يزداد خصومه قوة .. فليعلن تأسيس « الجمهورية » ويدبر امر انتخابه رئيسا لها ، وحاكما شرعيا للبلاد !.. لكن الجمعية الوطنية لن تنتخبه ما بقيت لها حريتها الكاملة . فليدبر اذن مؤامرة سياسية تحقق له هدفه . ليخلق ازمة ويستغلها ..!

وبادر فدعا الوزراء الى مأدبة عشاء فى داره بضاحية « شان كايا » ، ناقشوا فيها الموقف السياسى من جميع نواحيه . وبعد ان أفرط المدعوون فى الشراب اقترح عليهم مصطفى كمال ان يستقيلوا فى اليوم التالى من مناصبهم ويرفضوا العودة اليها ، كى يحرجوا الجمعية ويستردوا هيبتهم لديها ، بعد ان كثرت شكواهم من محاسبة النواب لهم مباشرة وانتقادهم اياهم فى كل صغيرة وكبيرة .. حتى اذا ما احست الجمعية بالمأزق الذى اوقعها فيه تماديها فى مسلكها ، قبل الوزراء آخر الأمر ان يعودوا الى مناصبهم مرفوعى الرأس مرهوبى الجانب !

وفى اليوم التالى استقال الوزراء جميعا تنفيذا لاقتراح مصطفى كمال .. وانعقدت الجمعية الوطنية لتأليف حكومة جديدة ، لكن غياب زعماء المعارضة عن المدينة احدث تفككا فى صفوف النواب ، فكثر بينهم الجدل والشجار ، وراح كل منهم يعمل بوحى مصلحته الخاصة ، حتى أسفر الموقف عن فوضى تامة !

وبعد يومين اقام مصطفى كمال مأدبة عشاء اخرى لنفر من أصدقائه المخلصين ، بينهم عصمت وفتحى وكمال الدين . وابتسم حين حدثوه عن مأزق الجمعية الوطنية !.. ان خطته توشك أن تؤتى ثمارها ! ومن ثم استدار الغازى نحو ضيوفه فجأة قائلا فى حزم : « لقد حان الوقت كى نضع حدا لهذه الفوضى ، غدا سوف نعلن قيام الجمهورية ، فهى المخرج من كل هذه المصاعب .. فعليك انت يا فتحى أن تعقد الأمور فى المجلس غدا بقدر ما يمكنك ، فتؤلب الأعضاء ضد بعضهم البعض .. وعندئذ تقترح انت يا كمال الدين أن أستدعى انا لتولى زمام الأمور انقاذا للجمعية من مأزقها ! »

وبعد انصراف المدعوين عكف مصطفى كمال وعصمت على وضع صيغة قرار اعلان الجمهورية ، ففرغا منه قبيل الفجر !

وسارت الأمور وفقا للخطة الموضوعة ، وفى اللحظة التى كاد فيها النـواب يتضاربون ويمسكون برقاب بعضـهم البعض ، عرض كمال الدين اقتراحه بشأن استدعاء مصطفى كمال والاحتكام اليه لتشكيل الوزارة الجديدة ، فقبل النواب الاقتراح مرحبين . انهم فى غمرة شجارهم مع بعضهم البعض قد نسوا خصومتهم معه !

وكان مصطفى وقتئذ فى بيته ينتظر ما يسفر عنه عرض الاقتراح ، فلما استدعاه وفد من النـواب ابى الاستجابة للدعوة فى المرة الاولى .. وحتى حين كتبت اليه الجمعية رسالة تحريرية تعلن فيها عجزها عن حل الأزمة الوزارية وتطلب معونته ، ابى ان يتحرك .. لم ينهض لتلبية الدعوة الا بعد ان اشترط ان تقبل الجمعية رأيه بلا مناقشة !

وحين صعد الى المنصة ليواجه الجمعية ، بوجهه الأغبر الصارم وشخصيته الطاغية ، بدا النـواب امامه اشـبه بالفيران الضئيلة وهم يتطلعون اليه صامتين ملهوفين .. ونطق أخيرا فقال : « لقد أرسلتم فى طلبى كى انقذ الموقف فى لحظة الحرج لكن هذا الحرج من صنعكم أنتم ، فليس منشأ هذه الأزمة امر عابر ، بل خطأ اساسى فى نظام حكومتنا .. فالجمعية الوطنية تقوم بوظيفة السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية فى وقت واحد ، وكل نائب منكم يبغى ان يشترك فى اصدار كل قرار وزارى ، ويدس اصبعه فى كل ادارة حكومية وكل قرار لوزير !.. أيها السادة ، ما من وزير يستطيع ان يضطلع بمسئوليته ويقبل المنصب فى مثل هذه الظـروف . يجب ان تدركوا ان حكومة تقوم على هـذه الأسس لهى حكومة يستحيل ايجادها .. واذا وجدت لم تكن حكومة بل كانت فوضى !.. ونحن يجب أن نغير هـذا الوضع .. لذلك اقرر ان تصير تركيا جمهورية لها رئيس يختار بطريق الانتخاب ! »

وذهل النواب للقرار المفاجىء ، لـكنهم كانوا قد وعدوا مصطفى كمال بأن يقبلوا حكمه بغير مناقشة .. فلم يبق فى وسعهم غير ان يذعنوا !. ومع أن أربعين فى المـائة منهم لم يشتركوا فى التصويت ، فان المرسوم الذى أعده مصطفى كمال وعصمت بجعل تركيا جمهورية قد اقر !..وانتخب مصطفى كمال أول رئيس للجمهورية التركية !

وبهذا الانتخاب صار مصطفى كمال الحاكم الشرعى المطلق للبلاد ، أى صار يملك سلطة تعيين رئيس الوزارة والوزراء ، وصار فى الوقت نفسه رئيس مجلس الوزراء ، ورئيس الجمعية الوطنية ، ورئيس حزب الشعب ، الذى صار الآلة الحاكمة للبلاد .. وفوق ذلك كله كان مصطفى القائد العسكرى العام الذى يسيطر على الجيش والشعب معا ..!

□

وهكذا تحققت لمصطفى كمال السلطة المطلقة التى طمع فيها ، وفى كل بلدة وقرية صار حزب الشعب ــ سلاحه السياسى ــ هو القوة المسيطرة على الأمور ، وكان الجيش خاضعا لاشرافه المباشر ، وقبضته تهيمن على دولاب الدولة بأكمله .. لكن كفاحه الأكبر كان ما يزال ينتظره !.. ولقد طالما اوضح لأصدقائه انه يرى وجوب اقتلاع « الدين » من تركيا

لكن خصومه لم يعطوه فرصة للتمهل والانتظار .. لم يروا أن يدعوه حتى يعتدل فى جلسته فوق سرج جواده ، فقد كانوا زملاء له فى الماضى وعرفوا طبيعته جيدا فآمنوا بأنه لو استقر به المقام فوق ظهر الجواد فلن يتردد فى شنق أكثرهم او نفيهم من البـلاد !.. ومن هنـا عجلوا بنشر الشائعات فى انحـاء البـلاد بما مؤداه ان مصطفى كمـال

يعتزم القضاء على الاسلام وطرد الخليفة !

وساعد على انتشار هذه الشائعات ما كان قد بدر من مصطفى كمال اكثر من مرة خلال كفاحه ضـد خصـومه السياسيين من هنات تفصح عن ميوله ونياته المستورة ضد الخليفة الجديد « عبد المجيد » .. هذا فضلا عما كان معروفا للملأ من تنكره للدين فى حياته الخاصة ، ومخالفته لكل آداب اللياقة ، وسخريته من كل الأوضاع المقدسـة .. وكان قد طرد « شيخ الاسلام » من مكتبه !.. واجبر نساء انقرة على نبذ الحجاب ، وخرجت زوجته سافرة ترتدى مثل ثيـاب الرجال ، وتحرض نساء أنقرة على المطالبة بمساواتهن بالجنس الآخر !

وذاع فى كل مكان أن حكام انقرة الجدد كفرة ملاعين ، فصار الوعاظ والدراويش يندون بهم فى الجوامع والأسواق ، وبخاصـة زعيمهم مصـطفى كمال .. ووزعت النشرات والصور الكاريكاتورية التى تهاجمه اشد هجوم .. وشجع خصومه هذه الفتنة وارسلوا رسلهم يبثونها ويذكون نارها كلما وجدوا الفرصة ملائمة .. ثم غادروا انقرة والتفوا حول الخليفة « عبد المجيد » فى القسطنطينية ينشدون الأمان فى حماه ، اذ لم يجل بخاطرهم ان الغازى يجرؤ يوما على ان يمس الخليفة بسوء !

على أن عبـد المجيـد لم يكن بالماكر الذى يحسن تدبير الخطط . كان رجلا بسيطا امينا هادئا وسيما فى الخمسين من عمره ، درس الرسم واحب كتبه وحديقتـه ، وعاش طول شبابه معيشة بسيطة فى قصره المشرف على البوسفور . وحتى استنبول ذات الألسنة القذرة لم ترو عنـه رواية واحدة غير نظيفة !.. لكنه بعد فرار وحيد الدين وانتخابه خليفة ، اتخذ مقتضيات منصبه كواجب اسمى ، فأحيا تقاليد اسلافه العظام .. وبدلا من أن يركب عربة كسلفه

الأخير صار يمتطى صهوة جواد أبيض ــ مثل محمد الفاتح ــ يعبر به «القرن الذهبى» الى جامع ايا صوفيا ليصلى الجمعة ، يتبعه حرسه من الفرسان وتحف به الجماهير المهللة !.. وكان يستقبل فى قصره الزائرين والسفراء والمبعوثين ، بوقار الزعيم الدينى لمائة مليون مسلم

على انه وان لم يكن يطوى صدره على مطامع خاصة فى النفوذ السياسى ، أخذ يجتذب اليه العناصر الساذجة فى تركيا !.. وكان آخر من انضم اليه خصوم مصطفى كمال السياسيين ــ رؤوف وصحبه ــ الذين دبروا خطة ترمى الى تنصيب عبد المجيد سلطانا دستوريا ، واختيارهم هم وزراء له !.. وهكذا وجد المسكين نفسه بالرغم منه ، محورا وسلاحا للمعارضة لمصطفى كمال وحكومة انقرة !

الغاء الخلافة

ادرك مصطفى كمال خطر الحركة الدينية « الملكية » التى تدبر ضده فى القسطنطينية ، حيث اكثرية الشعب تكرهه ، وحيث يلتف اقوى خصومه حول الخليفة !. وفى الوقت ذاته كانت الفتنة الدينية فى الأقاليم تتفاقم كل يوم ، والشعور ضـده يزداد ، بحيث لو اتحـدت هاتان القوتان واحسن تنظيمهما لهزمتاه دون ريب !

وفيما هو يتدبر موقفه حائرا ماذا يصنع خدمه الحظ مرة أخرى ، وامدته انجلترا بسلاح جديد ، فقـد ارسل الزعيمان الهنـديان المسلمان « اغا خان » و « امير على » خطاب احتجاج باسم مسلمى الهند يطالبان فيه باحترام مقام الخليفة العثمانى « خليفة المسلمين » .. فنشر نص الخطاب فى صحف القسطنطينية قبل أن يصل الى حكومة انقرة . واذ ذاك وجد الغازى فى هذا فرصته المنشودة ، فراح ينبش تاريخ اغا خان حتى تبين انه يعيش فى انجلترا ،

ويسير جياده فى حلبات السباق الانجليزية ، ويرتدى الثياب الانجليزية ، ويمشى فى ركاب الساسة والسفراء الانجليز ، وان الانجليز قد اعلوا من قدره بدعايتهم الحاذقة خلال الحرب العالمية حتى صار ينظر اليه كزعيم مسلمى الهنـد ، كى يستخدموه لتهديد سلطان تركيا كلما اقتضى الأمر !.. واذن فهو صنيعة من صنائع الانجليز !

ونشط مصطفى كمال فى الضرب على هذا الوتر واثارة هياج الراى العام التركي ضد الخليفة ، قائلا : « ان انجلترا ـ العدوة الماكرة اللدودة ـ حين فشلت فى القضاء على تركيا بواسطة اليونان عمدت الى دسائسها المألوفة فاستخدمت صنيعتها اغا خان كى يظاهر الخليفة ويشطر الأتراك الى معسكرين ! »

واثار الأمر ثائرة الجمعية الوطنية فتسابق الخطباء من النواب الى شن حملة شعواء على الخلافة ورجال الدين وزعماء المعارضة ، ثم اقروا قانونا يقضى باعتبار كل معارضة للجمهورية وكل ميل الى السلطان المخلوع خيانة يعاقب عليها بالموت !

وحين تحدث بعض النواب عن فائدة الخلافة لتركيا من الوجهة الدبلوماسية اسكتتهم الأكثرية بالصياح وضجيج الغضب والاحتجاج .. ثم واجه مصطفى كمال الجمعية قائلا : « اليس من اجل الخلافة والاسلام ورجال الدين ، قاتل القرويون الأتراك وماتوا طيلة خمسة قرون ؟ لقد آن ان تنظر تركيا الى مصالحها وتتجاهل الهنود والعرب وتنقذ نفسها من تزعم الدول الاسلامية ! »

وعلى هذا النمط نشر مصطفى كمال دعايته فى الأقاليم ، وحوكم محررو الصحف التى نشرت خطاب اغا خان ، واذيعت تفصيلات المحاكمة بشتى وسائل النشر والاعلان ، بما

يصورهم والخليفة فى مظهر الخونة وصنائع الانجليز ... فماتت الفتنة الدينية فى مهدها وتعالت الأصوات تطالب مصطفى كمال بانقاذ تركيا !.. لكنه اراد ان يستوثق من تأييد الجيش له لو الغى الخلافة وفصل الدين عن الدولة ، فذهب لحضور مناورات الجيش السنوية قرب ازمير ، وقضى اياما يبحث الأمر مع فوزى وعصمت ويجس نبض صغار الضباط والجنود .. فلم يصل الى نتيجة قاطعة يطمئن اليها ، ولبث يقلب الأمر على وجوهه بضع ليال ... وفجأة قرر ان يضرب ضربته ، وايقن ان الجيش سيؤازره !

وبمثل هذه السرعة انتقل من القول الى الفعل ، فاستحال غيظه المكبوت ثورة جامحة مدمرة ، وقرر ان يبدأ بارهاب خصومه أولا . فانتهز فرصة تهور احد النواب المعارضين فى احدى جلسات الجمعية وكلف شخصا باغتياله فى الليلة نفسها اثناء عودته الى بيته !. والقى احدهم خطبة ايد فيها الخليفة ، فهدده الغازى بالشنق اذا فتح فمه بمثلها مرة اخرى !.. واستدعى رؤوف من القسطنطينية واجبره على ان يقسم يمين الولاء له وللجمهورية امام اللجنة الرئيسية لحزب الشعب ، مهددا بطرده من الحزب والجمعية اذا لم يفعل !. وارسل امرا حازما الى حاكم استنبول بوجوب الغاء مظاهر الأبهة التى تحيط بموكب الخليفة اثناء تأدية الصلاة ، كما خفض مرتبه الى الحد الأدنى ، وانذر اتباعه بوجوب التخلى عنه ... فانه ينبغى الا يبقى فى القسطنطينية رئيس دينى يتحدى حكومة انقرة !

والتمس بعض المعتدلين من مصطفى كمال ان ينصب نفسه « خليفة » .. وجاء من الهند ومصر وفدان يكرران الرجاء .. وكان اغراء المنصب عظيما ، لما ينطوى عليه من مكانة ادبية ودولية فى العالم بأسره .. لكن مصطفى كمال رفض الاقتراح بحركة توحى بنفاد الصبر ، وكانت عظمته

تكمن فى معرفتــه حدود نفســه وبلده والتزامه أهدافه الواضحة المحددة من قبل !

والآن صار على تمام الأهبة لمواجهة الموقف ، فقد بات كل من الشعب والجيش والجمعيــة الوطنية فى حنق على العدو الاجنبى وحليفه « الخليفة » .. وبات خصوم مصطفى كمال مذهولين مذعورين من عنفه واجراءاته الاخيرة .. وفى الثالث من شهر مارس سنة ١٩٢٤ تقدم الغازى الى الجمعية بمرسوم يقضى بالغاء الخلافة وطرد الخليفة وفصل الدين عن الدولة .. وخاطب النواب المنفعلين قائلا : « بأى ثمن يجب صون الجمهورية المهددة وجعلها تقوم على اسس علمية متينة .. فالخليفة ومخلفات آل عثمان يجب ان يذهبوا ، والمحاكم الدينية العتيقة وقوانينها يجب أن تستبدل بهــا محاكم وقوانين عصرية ، ومدارس رجال الدين يجب أن تخلى مكانها لمدارس حكومية غير دينية ! »

واقرت الجمعية القانون بغير مناقشة ، فهدم مصــطفى كمال فى ساعة واحدة كل أسس الدولة القديمة .. وفى الليلة ذاتها ارسل أمرا الى حاكم استنبول يقضى بأن يغادر الخليفة عبد المجيد تركيا قبل فجر اليوم التالى ، فذهب هذا تصحبه حامية من رجال البــوليس والجيش الى قصر الخليفــة فى منتصف الليل ، وهناك اجبر الخليفــة ان يستقل سيارة حملته عبر الحدود فى اتجاه سويسرا ، بعد ان زوده بحقيبة بها بعض الثياب وبضعة جنيهات !

وبعد يومين ، حشد مصطفى كمال جميع أمراء العهــد القديم وأميراته ورحلوا الى خارج البلاد ..!

وفى طول تركيا وعرضها لم يبد اى مظهــر من مظاهر الاحتجاج او المقاومة !

ثورة الأكراد

لم يتح هذا الانتصار لمصطفى كمال كل السعادة التى كان ينشدها ، أو لعل منغصات حياته هى التى افسدت عليه متعة بلوغ آماله .. فقد عاودته آلام كليتيه وصارت تهاجمه بلا انقطاع ، فيغالبها بالافراط فى الخمر ، الأمر الذى زاد فى ثورة أعصابه ، وفى كآبة نفسه التى كانت تبلغ أحيانا حدا يفقده ايمانه بنفسه وبرسالته !.. ولم يجد فى حيــاته الخاصة الشخص الذى يفضى اليه بذات نفســه ويفتح له قلبه ، فقد ماتت أمه بعد أن ساءت صحتها فى جو أنقرة القاسى فأخذتها لطيفة الى ازمير لتبديل الهواء دون جدوى

اما لطيفة فقد عاش معها أشهرا بعــد الزواج وكأنه فى الجنة .. لكن حبه الجنونى لها لم يلبث ان انطفأت جذوته ، فان النساء عنده لم يخلقن الا للمتعة العابرة .. وهكذا ضاق تدريجا بحياة البيت الرتيبة ، وملازمة المراة له ، واشتاق الى ليالى الشراب والميسر ونساء الهوى العاهرات.. والرجل لا يستطيع مغالبة طبيعته طويلا ، وماضيه يترك طابعه فى نفسه كما يترك الجدرى آثاره فى الجسم !.. وبرغم ما كانت عليه لطيفة من ثقافة وتحرر فى الفكر فانها كانت تغار عليه كأية امراة من نساء الحريم ، فلا تنفك تؤنبه على افراطه فى الخمر وتطرد رفاق السوء من بيته !.. وكان اهلها قد عادوا الى أنقرة ، فطلبوا من الامتيازات والحقوق الخاصة ما اشعر مصطفى كمال بأنهم غدوا حملا ثقيلا عليــه ، فطالبهــم فى خشونة بأن يعودوا الى أزمير من حيث اتوا ، الأمر الذى أحنق لطيفة عليه !

وبات الزوجان يتشــاجران كل حين ، فتلوم لطيفــة مصطفى كمال على أساليب حكمه الدكتاتورية وتصرفاته غير الدستورية ، وتنتقده فى السر والجهر ، بل تمالىء خصومه !..

بينما يلومها هو على تدخلها فى عمله وواجباته التى لا تعنيها . وكان كلاهما صلب الراى قوى العزيمة والاعتداد بنفسه ، حاد اللسان يضيق بالنقد .. ولم يرزقا نسلا يلين العلاقة بينهما ويقوى رابطتهما .. فازداد شجارهما حتى ملأ البيت ضجيجا .. واخيرا قرر مصطفى كمال أن يتخلص من لطيفة .. فكتب وثيقة الطلاق ووقعها ، وارسل رسالة قصيرة الى الجمعية الوطنية والصحف والسفارات الاجنبية ينهى اليها النبأ فى ايجاز .. ثم أمر لطيفة بمغادرة البيت والبلدة من فورها !

وتغير أسلوب حياة مصطفى كمال من أساسه ، فكف عن الاختلاط بالشعب والتحدث الى الناس فى الشوارع بحرية ، وصار متحفظا منعزلا ، تتعذر مقابلته ٠ ووقعت محاولتان لاغتياله : الأولى بالقنابل ، وقد فشلت تماما ٠٠ والثانية بدس السم له فى الطعام ، وقد كادت تقتله ، فلم يعد الى الحياة الا بعد مجهود طبى شاق وآلام لا وصف لها !٠٠ وعلى أثر ذلك صار شديد الحذر والارتياب ، لا يخرج بغير حراسة قوية ، ولا يقترب من داره انسان الا بتصريح خاص، ووضع حول الدار أنوارا كاشفة باهرة الضوء ، ولم يعد يقابل غير وزراء حكومته ونفر من أنصاره الكبار وأصفياء السوء ٠٠!

وبدأت العاصفة تنذر بالهبوب ، واهتزت الارض تحت قدميه !٠٠ صار الشعب يضج بالسخط ، بحيث اضطر عصمت وفوزى وأنصاره الخلصاء الى تحذيره من الخطر الزاحف ٠ كان الفقر يعم كل مكان ، والايام الذهبية التى وعد الشعب بها بعد طرد الأعداء قد تمخضت عن أيام أسوأ من أيام السلطان عبد الحميد ذاته !٠ فقد عز الطعام ، وتفاقم الغلاء ، وشحت النقود، بل شحت البضائع الضرورية واختفت من الاسواق ، وثقلت الضرائب ، وازداد جشع جباتها ، وجند الشباب جميعا فى الجيش برغم انتهاء الحرب،

فانهارت البيوت والمزارع على أصحابها ، وماتت الماشية لقلة العلف ، وأتلف الجدب أكثر الحاصلات الزراعية ٠٠ وصارت الحياة عبئا لا يطاق بعد أن بلغت الفاقة والعوز حدا لم يسمع بمثله من قبل !

والواقع أن ذلك كله كان رد الفعل المحتوم بعد الحروب الرهيبة التى استنزفت موارد البلاد ٠٠ لكن خصوم مصطفى كمال من الساسة ورجال الدين أحسنوا استغلاله، فأذكوا لهب السخط واستثاروا غضب الجماهير قائلين : « ان البشر لا يستطيعون أن يعيشوا على الانتصارات الحربية القديمة ، أو الاصلاحات والنظم الجديدة ، وانما لابد لحياتهم من الخبز والماشية والرى لحقولهم ، والمال لملء حوانيتهم بالبضاعة٠٠ وهذه الحكومة ذات النظريات الملحدة والتغييرات الشاملة هى سبب فاقة الشعب وعوزه ! »

وتفاقم التذمر والسخط ، وانتعش خصوم الغازى من الساسة والنواب فاستردوا جرأتهم على النقد والمهاجمة ٠ وكان أول من هاجموه « عصمت » الذى احتفظ برياسة الوزارة منذ عاد من لوزان ، ثم انتقل الهجوم الى زعيمه مصطفى كمال ، فتقدم بعض النواب فى الجمعية الوطنية باستجواب عن « مالية الدولة التى باتت فى حالة اضطراب وفوضى اجرامية ! » ٠٠ وتتابع الخطباء منددين بسوء الحالة الاقتصادية بسبب تصرفات عصمت ، ومطالبين باقصائه فورا !

ومع أن عصمت لم تكن له دراية كافية بالمسائل الاقتصادية ٠٠ فقد أصر على أن يتولى وزارة المالية، ويناقش أمورها مع مرؤوسيه ٠ وكان اخراج اليونانيين والأرمن من الوزارة قد حرم البلاد من كفاءاتهم الاقتصادية الممتازة، ولم يفعل عصمت شيئا لتعويض الوزارة عنها باستدعاء الخبراء الاجانب أو ارسال الاتراك فى بعثات الى الخارج ٠٠٠!

وازدادت المعارضة جرأة وقويت شوكتها،وصار زعماؤها يجتمعون فى القسطنطينية برياسة رؤوف ، وألفوا حزبا جديدا اسمه « التقدميون الجمهوريون » ، وانضم اليهم كثيرون من ألصق أنصار مصطفى كمال ، وأعلن برنامج الحزب فاذا هو ينص على أن تكون الحكومة دستورية وعلى مقاومة كل حكم مطلق !.

وفى أثناء ذلك بقى مصطفى كمال فى « شان كايا » لا يحرك ساكنا .. بينما ازداد غليان الاعصاب فى أنقرة ، فى أوساط الساسة والنواب ، ولاسيما أن أنقرة لم تكن وقتئذ أكثر من قرية صغيرة خالية من وسائل التسلية واللهو والراحة والترف ، فكانت تسلية الناس الوحيدة أن يلتقوا ويتحدثوا فى السياسة ويتشاجروا فى شأنها فى الشوارع والمقاهى المتواضعة والفنادق الحقيرة !.. بل ان الجمعية الوطنية ذاتها شهدت الكثير من المشاجرات العنيفة التى لوح فيها بالمسدسات .. وهاجم أحدهم ـ ويدعى الكولونيل خليل ـ رئيس الوزراء عصمت أثناء المناقشة ، فقتله أحد أنصار الغازى برصاصة أطلقها على بطنه فىحرم المجلس !. ولم يجرؤ البوليس على اعتقال القاتل !.. ثم حمل نائب آخر يدعى على شكرى على مصطفى كمال ، فقرر « عثمان أغا » رئيس حرس الغازى أن يتخلص من النائب السليط اللسان ، فتودد اليه ثم دعاه الى العشاء فى دار الحرس فى «شايا كان» وهناك خنقه بمساعدة أعوانه وألقى جثته فى العراء .. فلما اكتشفت الجثة ثارت أنقرة بأسرها اشمئزازا واحتجاجا ، وطالبت الجمعية بالقبض على عثمان أغا .. وطالب أعوانه بدورهم بحماية الغازى لهم ، بحجة أنه الذى أمر بالقتل .. فتردد مصطفىكمال برهة ثم تخلى عن حماية عثمان . لكن هذا تحصن فى دار الحرس فى وجه قوات البوليس وثار رجال الحرس وحاولوا اختطافمصطفى

كمال ، لولا أن استطاع الفرار فى سيارة من الباب الخلفى والتجأ مع رؤوف الى منزل الاخير بقرب المحطة .. ونشبت معركة بين رجال الحرس وقوات الجيش التى استدعيت الى شان كايا انتهت بقتل عثمان أغا وتشتيت شمل أعوانه.. لكن تفصيلات القصة ذاعت فى أنحاء تركيا فجلبت على مصطفى كمال سخط الناس وأقسمت عشيرة عثمان أغا أن تثأر لفقيدها من الغازى الذى غدر به ..!

وازاء تحرج الأمور على هذا النحو ، لم يجد الغازى بدا من اقالة « عصمت » .. وأسند رياسة الوزارة الى فتحى ، وكان هذا محبوبا من الرأى العام .. لكن المعارضة اعتبرت هذه المهادنة إنتصارا لها فأمعنت فى مهاجمة مصطفى كمال بغية التخلص منه واقتسام النفوذ بين أقطابها .. وبدأ أنصاره ينفضون عنه وينضمون الى رؤوف . بل ان احدى عشيقاته آمنت بأفول نجمه فحزمت حقائبها وعادت الى القسطنطينية !

ولم يعد الغازى يطمئن الى تأييد الجيش له !. وفى الاقاليم الشرقية شن رجال الدين عليه حربا دينية .. وأرسلت إنجلترا انذارا بشأن امتلاك « الموصل » زعزع سمعته السياسية !..

وفى أثناء ذلك كله بقى هو فى (شان كايا) متعبا مريضا كسير النفس ، يغرق همه فى الخمر !.. وأيقن خصومه انه قد انتهى ... ولكن فجأة ثارت قبائل الأكراد التى تستوطن الجبال المجاورة للحدود الايرانية ، وارتفعت صيحتها المدوية : « تسقط جمهورية أنقرة ويحيا السلطان والخليفة ! » .. ثم زحفت جحافلها الضارية نحو أنقرةتبغى « انقاذ الاسلام » .. فاجتاحت فى خلال شهرين مقاطعات « خربوط » و « مأمورية العزيز » وباتت تهدد «ديار بكر»، بل تهدد الوطن التركى بأكمله !

وعندئذ نفض مصطفى كمال عنه غبار الخمول واليأس والخمر والنساء ، وبعثت فى عروقه حيويته القديمةالكامنة، وصاح بالشعب : « ان تركيا فى خطر فالعدو الأجنبى الأصيل ـ انجلترا ـ يظاهر الأكراد ، ويمدهم بالمال والسلاح ! »

وهب كل تركى ليمتشق السلاح ، وصهرت وطنية الشعب كل الخلافات السياسية والمقاومة الدينية ، وانهالت على الغازى من كل أنحاء تركيا ومختلف طبقاتها برقيات الولاء والتطوع بتقديم العون المطلوب ، فان تركيا فى خطر .. والغازى وحده هو الذى يستطيع أن ينقذها !

ومرة أخرى برزت مواهب مصطفى كمال ، فى السيطرة والاشراف والادارة ، وقاد جيوشه الى الأمام ، فلم ينقض شهران حتى كان قد أخمد الثورة بغير رحمة ، فباتت كردستان كلها طعما للنار والسيف : أحرقت قراها،وعذب رجالها وقتلوا ، وأتلفت محاصيلها ، واغتصب نساؤها ، وقتل أطفالها .. بمثل الوحشية الفظيعة التى ذبح بها أتراك السلطان فى الماضى أعداءهم اليونان والأرمن والبلغا .. وأرسل مصطفى كمال محاكم عسكريةخاصة أطلق عليها « محاكم الاستقلال » تولت محاكمة الألوف من الأكرا فحكمت عليهم بالشنق أو النفى أو السجن .. كما عذب كثيرون ، وشنق ستة وأربعون من رؤساء القبائل فى ديار بكر ، كان آخرهم « الشيخ سعيد » زعيم الثورة ومحرك الفتنة !

محاكم الاستقلال !

بقى على مصطفى كمال أن يواجه خصومه السياسيين ويثأر لنفسه منهم ، ولم يكن من طبعه الصفح عن الاساءة أو نسيانها . فدعا الجمعية الوطنية الى الانعقاد ووقف فى

النواب خطيبا ، فظل يتلاعب بمشاعرهم حتى صفقوا له جميعا مؤيدين .. اتهم زعماء المعارضة ، ولاسيما رؤوف والقواد العسكريين الاربعة ، بأنهم ساهموا فى تحريك ثورة الأكراد ، وقدم دليلا على اتهامه خطابا موجها من كاظم قره بكير الى الشيخ سعيد ، وهو خطاب وان لم يتضمن شيئا ذا بال الا أنه يفضح الاتصالات الخفية بين الطرفين !..

ثم اتهم انجلترا بأنها المحركة الأولى لثورة الأكراد ، طمعا فى الوصول الى بترول الموصل وبترول العراق .. وقد انضم زعماء المعارضة الى الثوار سعيا الى تحطيم الجمهورية وتدمير وطنهم .. فهم اذن خونة يستحقون العقاب . ولئن كان الأكراد قد هزموا فان تركيا ما تزال فى خطر .. فالخطر يأتى من الداخل ، والدولة يجب أن تطهر !

وأفلح مصطفى كمال فى اثارة ثائرة النواب واطلاق حماستهم من عقالها ، فهبوا يطالبون برؤوس « الخونة » ، وهاجموا دار حزب المعارضة ، لكن زعماءه : رؤوف ورحمى وعدنان وخالدة أديب كانوا قد فروا من البلاد !

وبناء على طلب مصطفى كمال أقرت الجمعية الوطنية وقف الدستور وتخويل الغازى سلطة كاملة لانقاذ البلاد.. وألغيت حصانة النواب ضد الاعتقال ، وفرضت الرقابة الصارمة على الصحف

صار أى اجراء أو نقد شفوى للحكومة يعد خيانة عظمى تعاقب عليها « محاكم الاستقلال » بالموت فورا !.. وقرر الغازى وجوب محاكمة زعماء المعارضة ، لكن فتحى ـ رئيس الوزارة ـ والوزراء وكثيرين من أنصاره عارضوا رأيه ، مؤثرين الاكتفاء بمهاجمتهم سياسيا،تقديرا لماضيهم الوطنى الناصع . فعقد الغازى اللجنة المركزية لحزب الشعب ، لأخذ رأيها .. لكن الآراء انقسمت وثار نزاع استخدمت

فيه المسدسات٠٠فخشى مصطفى كمال مغبة احداث انقسام فى صفوف أنصاره وأرجأ انتقامه من خصومه الى فرصة أخرى ٠٠٠ لكنه لم يجد بدا من اقصاء فتحى عن الوزارة واعادة ٠٠ عصمت !

على أن زعماء المعارضة وان أفلتوا من العقاب هذه المرة ، فان أتباعهم يجب أن يدفعوا ثمن معارضتهم ٠٠ ومن ثم أرسل « محاكم الاستقلال » الى حيث تنشر فى الاقاليم عهد ارهاب دموى ، فتحاكم المعارضين وترسلهم الى المشنقة من أجل أتفه الانتقادات ٠٠ وحين كان القضاة يظهرون ترددا أو ضعفا كان الغازى يهددهم بأقسى عقاب !٠ لقد أيقظت السلطة المطلقة فى أعماقه نزواته الوحشية فانطلق ذئب أنقرة الأغبر ينشب مخالبه فى أعدائه ، ويضع بصمته الدموية على رقاب ضحاياه،بالسجن والتعذيب والمشنقة ٠٠ بالدم والارهاب !

لكنه لم يصرف النظر عن اصطياد خصومه من الزعماء فى أقرب فرصة ، فقد كان مؤمنا بأن نهوض تركيا الجديدة رسالة فى عنقه ، وبأن الايقاع به قضاء على فرصة لتركيا لبلوغ قمة مجدها ، ولا وسيلة يأمن معها شر خصومه غير أن يوقع بهم قبل أن يوقعوا به ، ولاسيما أن عددا من الجمعيات السرية قد أنشىء فى جميع المدن الكبرى خلال الأشهر الاخيرة ، وأعيد تنظيم فروع جمعية « الاتحاد والترقى » القديمة ، وبدأت تنشط للعمل ٠٠!

وهكذا تظاهر الغازى بأنه قد عدل عن فكرة محاكمة خصومه ، فعاد الى « شان كايا » وهو يخفى نواياه وراء قناع وجهه الأغبر ٠٠ وهناك راح يعمل سرا ويدبر الخطط ببراعته المعهودة فى التآمر ، التى كسبها من عضويته القديمة فى جمعية « الوطن » ، وقدرته على انتظار اللحظة

المناسبة ٠٠ وفى أثناء ذلك نشر فى أنحاء البلاد شبكة واسعة من الجواسيس ورجال البوليس السرى مهمتهم اصطياد الأدلة التى تثبت على الخصوم تهمة التآمر والخيانة ٠٠ ثم قبع ينتظر النتيجة كما يقبع العنكبوت فى انتظار وقوع ضحيته فى الشرك !

وحانت فرصة أخيرة قبيل موعد زيارته الرسمية لمدينة « أزمير » بيومين ، فقد ألقى البوليس القبض على ثلاثة أشخاص كانوا قد أعدوا قنابل لالقائها من احدى النوافذ على الغازى أثناء مرور موكبه فى شوارع المدينة ٠٠ كما وجد خطاب يفضح صلة المتآمرين بنائب معارض يدعى « سعيد خورشيد »٠٠وعندئذ ضرب مصطفى كمال ضربته، فألقى القبض على جميع زعماء المعارضة فى البلاد ، وأقام « محكمة الاستقلال » لمحاكمتهم فورا ، بعد أن كلف رجال الأمن العام بجمع الأدلة التى تثبت التهمة على خصومه الرئيسيين،ولاسيما الباشوات الاربعة العسكريين،وعصابة « أنور » من أعضاء « الاتحاد والترقى » القدماء !

وعقدت المحكمة جلساتها الأولى فى أزمير ، لمحاكمة المقبوض عليهم من رجال الطبقة التالية للزعماء الكبار ، فأصدرت حكمها عليهم جميعا بالشنق ، بغير مراعاة لقواعد المرافعات والاثبات المقررة فى القانون ٠٠ وأرسلت الاحكام الى مصطفى كمال فى بيته للتوقيع عليها ! وكان بينها الحكم باعدام «عارف» ، صفى الغازى القديم الذى كان قد اختلف معه فى المدة الاخيرة وانضم الى معارضيه ٠٠ ويقرر شاهد عيان أن عضلة واحدة لم تختلج فى وجه مصطفى كمال وهو يضع سيجارته جانبا ويوقع على الحكم بالموت على ذلك الصديق القديم الحميم !٠ثم ينتقل الىتوقيع الحكم على غيره، كما يوقع على أية ورقة عادية من أوراق الروتين الحكومى

اليومى ، من غير أن يسمح للذكريات أو العواطف بأن تلين عزيمته !

ثم جاء دور محاكمة « الكبار » فى أنقرة ، فحشدوا جميعا ـ عدا الذين فروا من البلاد ـ فى قفص الاتهام ٠٠ وألفت المحكمة من ثلاثة قضاة من «عصابة» الفدائيين أتباع الغازى، يرأسهم من يدعى « بالد على » ، وكان يتباهى بأنه قد حكم بالشنق على عدد من الاتراك يفوق العدد الذى حكم عليه أى تركى منذ عهد السلطان محمود الثانى !٠٠ وكان « بالد على » هذا قد تلقى أمرا من مصطفى كمال بأن يحكم على المتهمين جميعا بالادانة ـ أيا كان دفاعهم ـ فأدار المحاكمة بطريقة لم تسمح للمتهمين بالدفاع عن أنفسهم ٠ وأظهرت المحاكمة مصطفى كمال فى دور البطل الوطنى العظيم، بينما لطخت بالأوحال سمعة الباشوات العسكريين الأربعة بحيث كتبت نهايتهم السياسية فى اعتبار الرأى العام٠٠ وعندئذ أطلق سراحهم ، اظهارا لنبل الغازى وكريم عفوه !٠٠ أما الباقون من المتهمين فقد حكم عليهم « بالد على » بالموت ، وعلى شفتيه ابتسامته المألوفة !

وفى أثناء المحاكمة بذلت الحكومات الاجنبية والبيوت المالية الاوربية الكبرى ، والصحف العالمية ، جهودا جبارة لانقاذ أحد المتهمين من اليهود ، وهو « يافيد » وزير مالية تركيا فى عهد « أنور » ٠٠ لكن هذه الجهود لم تزد الغازى الا اصرارا على رأيه ٠٠ فلما حمل اليه « بالد على » أحكام اعدامهم ليوقع عليها بادر الى ذلك فورا ، وأمر بتنفيذ الاعدام فى الليلة ذاتها !٠٠ بل رأى ـ امعانا فى الانتقام ـ أن يحتفل لهذه المناسبة باقامة حفلة راقصة رسمية بقصره فى (شنكايا) فى الليلة نفسها !٠ على أن يدعى اليها بالتليفون بأقصى سرعة جميع البارزين فى العاصمة من الاتراك والسفراء الأجانب والوزراء والقضاة وأجمل سيدات أنقرة

الفصل الخامس

هدم ٠٠ وبناء

صار مصطفى كمال هو الحاكم بأمره فى كل أنحاء البلاد، بعد أن تخلص من معارضيه جميعا واستكان الشعب التركى لحكمه ٠٠ وتركزت كل سلطات الدولة فى يديه ، وبات حزب الشعب الذى يرأسه هو الآلة المهيمنة على الحكومة ، بحيث صار محتوما على كل ذى منصب حكومى ، من أصغر موظف فى أصغر قرية الى رئيس الوزارة ، أن يكون عضوا فيه ٠ كانت لجان الحزب الاقليمية بمثابة فروع محلية للحكومة ، تنفذ أوامر اللجنة المركزية العليا وتطلعها على كل صغيرة وكبيرة فى أنحاء البلاد ، وتدين بالطاعة العمياء لمصطفى كمال ، طبقا للأسس العسكرية التى نظمت بمقتضاها ٠٠ وكان الغازى يختار منها وزراءه ، الذين كانوا موظفين دائمين أكثر منهم وزراء ، بسبب انعدام أحزاب المعارضة !

وصارت انتخابات الجمعية الوطنية انتخابات «اسمية»، اذ لم يكن يسمح لأحد بمنافسة مرشحى الحكومة الذين ينتقيهم مصطفى كمال من أعضاء حزبه ولجانه ٠٠ وكان

النائب يلتزم الطاعة المطلقة لرغبات الغازى عند التصويت على مشروعات القوانين ·· واذا اجترأ شخص ، سواء أكان نائبا أو شرطيا فى احدى القرى، على أية مخالفة أو عصيان فسرعان ما يفصل فورا من الحزب ، فيفقد تبعا لذلك عمله ويتعذر عليه أن يجد عملا آخر ، ولو أدى الأمر الى موته جوعا !·· وهكذا صار الحزب أشبه بجيش احتلال ، يشرف على ادارة شؤون البلاد !

وكان مصطفى كمال يستعين فى حكمه بثلاثة أشخاص ، يجتمعون به كل ليلة فى منزله فينهون اليه الانباء ويتلقون أوامره : عصمت الذى كان يختص بشؤون الحكومة والجمعية الوطنية ·· وفوزى ، الذى اختص بشؤون الجيش ·· ثم « ظيا صفت » السكرتير العام لحزب الشعب ، وهو يهودى قدير حاضر البديهة كان يسرد على مسامعه أنباء اليوم الهامة وشؤون الحزب ·· وكان الثلاثة يستلهمون فى أعمالهم رئيسهم الوافر النشاط ، الذى جمع بين رياسة الجمهورية، ورياسة الجمعية الوطنية ، ورياسة حزب الشعب ، ورياسة مجلس الوزراء ، ثم القيادة العليا للجيش !

وكان مصطفى كمال يباشر مهام مناصبه بتعصب المؤمن بنفسه وبرسالته · وكانت رسالته أن يخلق من تركيا دولة متمدينة غنية رفيعة الشأن ، تأخذ بأفضل ما فى الحضارات الاخرى الى جانب الاحتفاظ بالصالح من حضارتها الخصة· وأدرك أنه لكى ينجح فى مهمته عليه أن يستنهض همم الشعب نفسه ، ويدربه ويقوده ، بروح المستبد المصلح ، أو ناظر المدرسة مع تلاميذه الصغار ، البسطاء الأغرار ، الذين هم أشبه بالمادة الخام التى تصاغ حسب طلب صائغها! ·· ومثل ناظر المدرسة ، كان اذا لم يفلح فى الاقناع استخدم القوة ، مؤمنا بأنها لخير تلاميذه !··

وجعل همه الأول أن يكمل الهدم قبل أن يشرع فى البناء،

كى يطهر تركيا من أدران الماضى الفاسد تماما ·· لقد مزق الكيان السياسى للدولة بأكمله ، فحول المملكة الى جمهورية، وفصل الدين عن الدولة ، وأقصى السلطان والخليفة ، وأزال كل أثر للامبراطورية العثمانية ·· وصار عليه الآن أن يغير عقول الشعب بأسره : أفكارهم القديمة ، وعاداتهم ، وأزياءهم ، وأساليب حياتهم ، وأدق الدقائق التى تربطهم بنشأتهم الشرقية وماضيهم ·· وكانت هذه المهمة أصعب بكثير من اعادة بناء الكيان السياسى للدولة ، أو على حد تعبيره : « لقد قهرت العدو ، وقهرت الدولة ، فهل أستطيع أن أقهر الشعب ؟ »

ورأى أن يتخلص من الطربوش ، رمز الدولة العثمانية ·· وكان يعلم أنه سيلقى مقاومة عنيفة من الشعب ، الذى سيشعر أنه قد طعن فى شعاره القومى ، فآثر أن يصل الى هدفه بالتدريج ·· بدأ بأن فرض على حرسه الخاص ارتداء القبعة ، فلما لم يعترض أحد عمم القبعة فى الجيش كله ، وبث فى صفوفه من يشرح للجنود أفضليتها على الطربوش فى حماية الرأس من الشمس والمطر ·· فلما لم يحتج الجيش ظهر هو فى حفلة رسمية مرتديا قبعة من القش !

وكان الغازى قد وطن نفسه على احتمال ضحك الناس وسخريتهم من منظره ، فقد كان يملك من الشجاعة الادبية مثل ما يملك من الشجاعة البدنية ·· وبدأ يبشر بنظريته قائلا : « اذا أردنا أن نكون شعبا متمدينا فينبغى أن نرتدى ثياب المتمدينين الدولية· أما الطربوش فهو رمز الجهل !»·· لكن الجماهير أبت أن تجاريه أو تقلده فى « بدعته » ، وحتى الافراد القليلين الذين تبعوه عادوا فنكصوا أمام ازدراء الناس وتهكمهم !· وعندئذ أحس الغازى أنه فشل فى اقناع الاتراك برأيه ، فلم يجد بدا من أن يفرضه عليهم بالقوة !· وهكذا أصدرت « الجمعية الوطنية » بناء على طلبه ، قانونا

يحرم ارتداء الطربوش ويعاقب من يرتديه • وبعد يومين من اصداره انتشر رجال البوليس فى الشوارع الرئيسية فى جميع المدن والقرى وأخذوا « يصادرون » الطرابيش من فوق رؤوس المارة • وكل من قاوم أو اشتكى كان مصيره الحبس !•• وسرت فى البلاد موجة من الغضب والسخط ، ورجمت الجماهير فى كثير من البلاد ممثلى الحكومة بالاحجار، مدفوعة بتحريض رجال الدين الموتورين الذين ألقوا فى روع الناس أن هذه « البدعة » مخالفة لتعاليم الاسلام ،وان القرآن والسنة يحرمان ارتداء القبعة !•• وفى الجمعية الوطنية نفسها وقف الجنرال نور الدين باشا يحتج على البدعة الجديدة !

عندئذ انقلب « ناظر المدرسة » الى مستبد غاشم ، لسان حاله « أن الثورات يجب أن تبنى على الدم ، والا انهارت ولم تدم ! » •• وبدأ فاقصى نور الدين باشا عن الجمعية ، وأرسل « محاكم الاستقلال » الى الاقاليم لتحكم على مئات من « المتمردين » بالشنق والرمى بالرصاص والسجن !•• فتوقفت حركة المقاومة ، وسارع كل تركى الى شراء القبعة وارتدائها ، وحين لم يجد الأهلون فى احدى القرى قبعات كافية هاجموا متجرا لبيع قبعات النساء يملكه أرمنى فابتاعوا محتوياته وارتدوها،بريشها وأشرطتها الملونة !••

وصار كل رجل فى تركيا يرتدى القبعة ، ولكى يوطد مصطفى كمال هذا التقليد فى أذهان العالم الخارجى أرسل مندوبه الى المؤتمر الاسلامى المنعقد فى مكة،مرتديا قبعة!•• وكان المؤتمر يضم ممثلين لجميع دول العالم الاسلامية ،ولم يجدالمؤتمرون بدا من احترام المندوب وقبعته تقديرا لمصطفى كمال !

وبقى أمر « الدراويش » ، الذين كانوا يملكون أخصب الاراضى وأفخم العمارات ، وكانوا أشبه بالعالة على المجتمع

العامل النشيط ، المحروم •• فضلا عن صلتهم بثورة الأكراد •• ومن ثم رأى مصطفى كمال أن يتخلص منهم ، فأصدر قانونا من الجمعية الوطنية يقضى باغلاق التكايا ومصادرة ثروات الدراويش وتشريدهم فى الشوارع ، كى يعيشوا منعرق جبينهم ، أو يموتوا جوعا اذا آثروا الكسل •• شأنهم شأن جميع المواطنين !

وبذلك قضى مصطفى كمال على الأساس والمظاهر الدينية للدولة والشعب ، بأكملها !

□

واذ فرغ الغازى من الهدم ، بدأ يشرع فى البناء •• فاستدعى الخبراء والمشرعين الأجانب كى يسنوا للبلاد قوانين تحل محل القوانين الشرعية القديمة • فوضع أولئك الخبراء نصوص القوانين الجنائية والمدنية والتجارية ، المقتبسة عن تشريعات ايطاليا وسويسرا وألمانيا على الترتيب ••وبمقتضاها منع تعدد الزوجات ونظام «الحريم» وتقررت المساواة بين الرجال والنساء فى جميع الحقوق والواجبات

ثم عكف على تحقيق حلمه القديم الذى كان عماد مقاومته للغاصب الاجنبى ، وهو جعل « تركيا للأتراك » فأصدر مجموعة من القوانين والتشريعات التى تكفل بلوغ هذه الغاية •• استبعد من اللغة التركية سائر الكلمات الاجنبية ــ العربية أو الفارسية ــ واستبدل بها كلمات من لغة التتار، التى هى أصل اللغة التركية •• ثم أمر بترجمة القرآن والانجيل الى اللغة التركية ، وبأن تتلى الصلوات فى الجوامع بالتركية وحدها ••وطبع طوابع بريد جديدة تحمل صورة « الذئب الأغبر » ، رمز الاتراك القدماء • وألزم المدارس الاجنبية بتعليم لغة البلاد واستخدام مدرسين أتراك ،وحتم

أن تكون الدراسة الابتدائية مقصورة على المدارس التركية وحدها .. كما حتم أن تكون نسبة كبيرة من رأس المال فى كل مؤسسة تجارية ، ملكا لأتراك ، وكذلك الحال بالنسبة للمديرين والموظفين فيها .. وألزمها بجعل مراسلاتها وحساباتها بالتركية . وأغلق فى وجه غير الاتراك ممارسة مهن الطب والمحاماة وبعض الصناعات . وشجع الصناعات الوطنية بفرض الحوائل الجمركية ، وشن حملة لاغراء الشعب بمقاطعة البضائع الاجنبية التى لها نظير من انتاج البلاد ، الى درجة استعمال شراب « البابونج » الذى يزرع محليا بدلا من الشاى الذى يستورد من الخارج !

وبعد أن كانت ساعات النهار تحسب ابتداء من الفجر المتغير ، صارت تحسب ابتداء من منتصف الليل الثابت.. وأدخل التقويم « الجريجورى » .. بل بز دول أوربا ذاتها فى بعض الأمور ، فقضى باعتبار الضحك سخرية بالمجنون والشاذ والكسيح ، اهانة اجرامية معاقبا عليها .. وطهر الشوارع من المتسولين ، وقضى بوجوب حصول الراغبين فى الزواج على شهادات رسمية بخلوهم من بعض الامراض ، بغية خلق جيل صحيح الجسم يخدم البلاد .. هذا الى مئات الاصلاحات الاخرى ، الكبيرة والصغيرة !

واعتزم أن يجعل أنقرة عاصمة جديرة بتركيا الناهضة ، رغم العوائق الطبيعية والجغرافية العديدة ، فاستدعى من برلين وفينا خبراء اخصائيين فى تخطيط المدن ، وكلفهم بتخطيط مدينة ذات شوارع وميادين فسيحة ومبان جميلة .. وشاركهم فى البحث والدراسة .. ثم استصدر من الجمعية الوطنية الاعتمادات المالية اللازمة للمشروع ، وأمر بزرع ملايين الاشجار ، وانشاء الطرق وردم المستنقعات لمكافحة الأوبئة المتفشية .. حتى أنفق فى هذا السبيل ، فى مدة وجيزة ، ثلاثة عشر مليون جنيه !

ثم بدأ مصطفى كمال يحصر اهتمامه فى الاشراف على الأمور ، تاركا أمر التنفيذ وما يكتنفه من دقائق وتفصيلات فى يد عصمت رئيس وزارته ، الذى صار يقتنص كل يوم مزيدا من الاختصاصات .. أما مصطفى فعاد تدريجا الى انزوائه فى داره بضاحية « شان كايا » ، والى نفوره من الناس والمجتمعات ، بحيث لم يعد يراه غير ألصق أصدقائه ونسائه ، وكبار الموظفين والمسئولين ..

وفى « شان كايا » عاش حياته الضارية الشاذة .. كان قد بلغ السابعة والاربعين ، وبدت عليه علائم الكهولة ، فامتلأ جسمه الى حد يقرب من البدانة ، وتساقط شعره عن مقدم رأسه ، واكتسب وجهه تلك الصرامة التقليدية التى كانت متكلفة فى البداية ، فصارت فى النهاية غير ارادية .. بحيث لم تعد الابتسامة تعرف طريقها الى شفتيه الا نادرا ، ولفترة قصيرة من الوقت ، برغم ما كانت تنطوى عليه من جاذبية نادرة !

وكانت صحته دائمة التغير ، لا تستقر على حال .. كان أحيانا يقضى ليالى بأكملها مؤرقا ، وتعاوده نوبات الكآبة السوداء .. وآلام الكليتين الحادة..وأحيانا أخرى ، وربما فى خلال ساعات قليلة ، ينقلب شخصا ممتلئا صحة وحيوية !.. فهو اليوم شيخ مهدم ، وغدا شاب قوى البنية .. على أن حيويته الخارقة فى عمله لم تضعف أو تتضاءل ، فكان يقوم فى بعض الاحيان بمجهود متواصل يعجز عن مثله عشرة من الرجال الاقوياء !

وفى احدى المناسبات ألقى خطابا عن تاريخ الثورة الوطنية استغرق منه اعداده سبع ليال كاملة ، واستغرق القاؤه ستة أيام متوالية .. حتى تعب النواب ودهمهم النعاس ، وهو محتفظ بكامل حيويته وقوة صوته !

وكان بعد ذلك يقضى عدة أيام منزويا فى داره ، يسهر

طول الليل مع أصفيائه ٠٠ وعقب هذه الليالى المرهقة ، أو ليالى الأرق الطويلة ، كان ينهض عند الفجر ليمتطى جواده الى المزرعة النموذجية التى كان يشيدها فى واد قريب ، والتى زودها بأحدث المستحدثات الزراعية والميكانيكية ، وأحسن فصائل الأبقار والخنازير ٠٠ وكانت تراوده على الدوام صورة حالمة لتركيا فى المستقبل ، وقد عمتها هذه المزارع وفاضت أرضها حنطة وزيتا ٠٠ فأمر بانشاء الجمعيات التعاونية والبنوك الزراعية للتسليف ، لعقد القروض للفلاحين وتوزيع البذور ٠٠ ووضع مشروعات للرى ، وللطرق والسكك الحديدية الجديدة ، ولأعظم المستحدثات الصناعية !

ولا شك ان مصطفى كمال ـ برغم أخطائه وأنانيته ـ كان وطنيا ، مؤمنا برسالته وبنجاحه ، لكن عوائق كثيرة كانت تصدمه فى مراحل جهاده،أهمها نقص المال ، وقصور الشعب وتواكله وفقره ٠٠

استعمال الحروف اللاتينية

بدأ مصطفى كمال يمل حياته المتشابهة فى «شان كايا» ٠٠ فود لو يسافر ويرى الحياة والناس ، ويبتعد ولو فترة من الوقت عن السهول الصفراء المترامية أمام داره !

ومن جهة أخرى كانت صحته آخذة فى التدهور بسبب الافراط فى الخمر ، حتى لقد أصيب مرتين بنوبة قلبية مصحوبة باغماء شديد ٠٠ فأنذره الطبيب بوجوب العناية بصحته والاعتدال فى حياته ، وتغيير الهواء

ومن جهة ثالثة كانت صلته بالجماهير قد ضعفت،وقبضته على زمام الأمور قد تراخت ، بدافع السأم والملل ، حتى لقد بدأ الناس يتهامسون بأنه قد بات صورة رمزية يختفى وراءها عصمت ووزراؤه !

ولم يكن « الذئب الأغبر » بالذى يقبل على نفسه هذا الوضع ، فهو يطمع فى أن يظل دائما القوة المهيمنة والرأس المفكرة فى الدولة ، الذى لا يسمو الى مكانته رأس آخر ، بل لا يقف الى جانبه على قدم المساواة منافس ٠٠ ومن ثم هب من مرقده معتزما أن يجعل نفسه مرة أخرى محط الأنظار ، ونجم المسرح الأوحد الذى تسلط عليه الأضواء ٠٠ انه سيذهب الى القسطنطينية ، وهناك يفاجىء الشعب من شرفة قصر السلطان العثمانى باصلاح جديد عنيف الأثر ٠ سوف يلغى الكتابة بالحروف العربية ويجعل اللغة التركية تكتب بالحروف اللاتينية ، وبذلك يحدث ثورة فى الادب التركى بأجمعه ، وفى وسيلة التراسل بين التركى والتركى ٠٠ سوف يقلب كل الأفكار فى البلاد رأسا على عقب !

وكانت حجته أن الكتابة بالحروف العربية شديدة التعقيد ، بحيث صارت وقفا على خاصة المثقفين ورجال الدين ٠٠ أما أكثريةالشعب ، أو نحو تسعين فى المائة منه، فلا تعرف القراءة والكتابة ٠٠ وحتى الذين يعرفونهاتقتصر ثقافتهم على الافكار العربية والفارسية السطحية ، وكان جدارا قد أقيم بينهم وبين الفكر الغربى الوثاب ٠٠ لكنه بجرة قلم سوف يقلب هذه الأوضاع ، ويرسل أفراد الشعب جميعا الى المدرسة،المتعلمين الى جانب الجهال،ورجال الدين الى جانب الخدم والعامة ٠٠ سوف يفتح لهم جميعا أبواب المعرفة ويقودهم الى مستقبل باهر !

وعكف على مشروعه يدرسه بعناية وتؤدة ساعات كل يوم مستعينا بأساتذة اللغة وخبرائها على وضع حروف أبجدية لاتينية تلائم اللغة التركية ، حتى أتم اعداد العدة لانقلابه الخطير ، فأعلن اعتزام الحكومة الانتقال خلال عطلة صيف سنة ١٩٢٨ الى القسطنطينية وشاطىء البوسفور ٠٠ وعند

وصوله استقبله أهل المدينة الكبرى بأعظم حفاوةوترحيب، بعد أن طالت غيبته عنهم تسع سنوات ·· وفى موكب رائع شق طريقه الى مقره الجديد : قصر السلطان !

وبعد أيام وجه الدعـــوة الى أكبر عدد من الشخصيات والنواب والموظفين ورجال الدين والصـحفيين والكتـــاب وأساتذة المدارس وسيدات المجتمع وكبار التجار ، لحضور حفلة استقبال كبرى فى القصر ·· وبعد أن اكتمل عقدهم وقف فشرح للمدعوين غرضـــه من دعوتهم ، وكانت الى جانبه « سبورة » وقطعة من الطباشير ، فشرع يردفشرحه بالكتابة ، موضحا طريقة الكتابة الجديدة وأفضليتها ،ملقيا النكات والملح اللطيفة بين الحين والآخر ، على خلاف عادته ·· داعيا بعض الحاضرين الى تقليده والنسج على منواله··!

ثم قام فى الايام التالية بجولات فى المدن والقرى ،حاملا معه سبورته وطباشيره ، ملقيا دروس الكتابة باللاتينية فى الاسواق والميادين العامة ··· فاستجاب الشعب بأجمعه للدعوة الجديدة ، التى هى مفتاح الباب المؤدى الى التجـاح الذهبى والثروة والرخاء ·· وصار الجميع ، شبابا وشيبا ، يجلسون فى أركان المقاهى والجوامع والميـــادين ، حاملين ألواح الاردواز والطباشير ، يتمرنون على «البدعة» الجديدة!

وكان الغازى لا يدع فرصة الا امتحن فيها كل من يلتقى به فى مدى اتقانه الكتابة اللاتينية ، حتى لقد أوقفالرقص فى احدى الحفلات ذات ليلة وطلبسبورة وطباشيرة ثمألقى على الحاضرين درسا وعقد لهم امتحانا !·· ثم حـــدد يوما يصبح بعده كل متخلف عن اتقان الكتابة الجديدة عرضـــة لعقوبات قاسية ، منها الطرد من الوظيـــفة والتجريد من الجنسية بل النفى من البلاد أو الاعتقال فى السجون !

وأخذ الغازى يقوم بجولاته فى أنحاء البلاد لتعليم شعبه

بهمة ونشاط لا يعرفان الكلل ·· وهكذا استرد من جديد اهتمام الناس به وتركيزالأضواء علىشخصيته !··وأحيانا كان يفرغ من جولته فينهمك فى المقـــامرة والشراب حتى مطلع النهار التالى ، ثم يخرج الى جولة تعليمية جديدة دون أن ينام لحظة أو حتى يخلع ثيابه !

الجمهوريون الأحرار

وواصـــل الغازى اصلاحاته ·· فأمر بتشجيع نهضـــة الفنون وفق الاساليب العصرية ، وأنشأ فى أنقرة مدرســة يدرس فيها الجنسان الفنون الجميلة ، وأمر باقامة تماثيـل له فى الميادين الكبرى ، واحلال الموسيقى الغربيـــة محل الموسيقى التركية العتيقة فى المناسبات والحفلات ، وانشاء مدارس لتعليم الرقص الغربى الراقى ، وترقيـــة الرقص التركى !

أما المرأة فقد رأى وجوب تحريرها تماما من الحجابومن الانزواء فى عقر دارها ، كى تشارك الرجل فى حياتهالعامة وتساهم فى أوجه نشاط الأمة والحكومة ·· ومنحهـا حق انتخاب أعضاء المجالسالبلدية ، ووعد بمنحها حقالانتخاب للبرلمان ــ الجمعية الوطنية ــ وعين بعضهن عضـــوات فى حزب الشعب على قدم المساواة مع الرجل · وشجعهن على دراسة الطب والمحاماة ، وعين اثنتين منهن فى منـــاصب القضاء وفى المجلس البلدى لاستانبول ·· وفتح مدارس للخدمة الاجتماعية ، بمعاونة أخته « مقبولة »

ومرة أخرى أمسى مصطفى كمال الرئيس العامل للدولة ولحزب الشعب ، فصار يطلب وضـــع تقارير لاطلاعه على تطورات الأمور ، ويستدعى اليه الوزراء والنواب وكبار الموظفين لمناقشتهم ، وطالب بأنتعرض عليه القراراتالهامة قبل تنفيذها ، ويكون له الاشراف الفعلى على شؤونالدولة·

وكان عصمت قد ركز فى شخصه كل هذه السلطات أثناء انزواء الغازى فى « شان كايا » ، فأبى أن يتنازل عنها ·· وصارا يصطدمان فى كثير من المناسبات ، فيوفق بينهما فوزى ·· حتى بلغ الخلاف أقصى حدته فى صيف سنة ١٩٣٠ ، حين صارح فتحى ـ وكان قد عين سفيرا لتركيا فى باريس ـ زعيمه مصطفى كمال بمدى الهاوية التى يقود عصمت البلاد اليها بسياسته الحرقاء ·· فرأى الغازى ـ الذى لم يكن يسهل عليه الاستغناء عن عصمت ـ أن ينشىء له « صمام أمان » يمنعه من الشطط··فألف حزبا معارضا باسم « الجمهوريون الأحرار » كى يحول الحكومة من أوتوقراطية ذات حزب واحد الى دستورية برلمانية مثل سائر الحكومات الديمقراطية ، وأسند رياسة الحزب الى فتحى ، يعاونه أحد عشر نائبا ، وثلاثة من أخصائه ، ثم شقيقته مقبولة ·· وشرح لكل من عصمت وفتحى نظريته فى وجوب قصر الخلاف بينهما على ما فيه صالح البلاد ، داخل الجمعية الوطنية ، على أن يظل الخصمان السياسيان صديقين فى الخارج ، كما هى الحال فى انجلترا ، العريقة فى ديمقراطيتها

وحين أجريت التجربة فى اجتماع الجمعية الوطنية بحضور مصطفى كمال وقف فتحى فهاجم عصمت هجوما عنيفا ، ورد عليه عصمت بهجوم أعنف ، ثم خرج الاثنان فى النهاية يتضاحكان متشابكى الأذرع ·· لكن أنصارهما من النواب عجزا عن فهم هذه المعارضة الشريفة أو هضمها، فاشتبك الفريقان فى مشاجرات ـ داخل الجمعية وخارجها ـ استخدمت فيها المسدسات وأصيب فيها الكثيرون !

وقبيل موعد انتخاب المجالس البلدية قرر مصطفى كمال رفع الرقابة عن الصحف واباحة حرية الاجتماعات ، بعد كبت استمر عشر سنوات ، كى يتاح للشعب أن يعبر عن

ارادته فى انتخابات حرة ·· لكن الحرية شجعت الشعب على اطلاق عواطفه المكبوتة دون حساب ، فتوالت على الحكومة الهجمات وحملات النقد والتشهير المعبرة عن السخط الشديد من جانب جميع الطبقات : التجار والمصدرين ورجال الاعمال وأصحاب السفن والموظفين والفلاحين ودافعى الضرائب وجميع النساء !

وشجع السخط أعداء مصطفى كمال القدماء ، من رجال الدين والمعارضين الذين خمدت أصواتهم منذ حركة التطهير العامة سنة ١٩٢٦ ، فانتعشت نفوسهم ·· وحدثت أكثر من محاولة لاغتيال الغازى،لا من جانب الساسة أو الثوريين المعادين له ، بل من جانب أفراد عاديين من الساخطين ·· وانتشر الاضراب والاعتصاب ـ بتشجيع الشيوعيين ـ فى مصانع تعبئة التين فى أزمير ، ثم امتد الى كثير من المناطق الاخرى ·· وفى الجنوب ، على حدود سوريا (الفرنسية حينذاك) نشط الثوار الأرمن يعاونهم الأكراد المغيرون ، وعلى طول الحدود الايرانية ثار الأكراد من جديد وعمدوا الى القتل والحرق والنهب،حتى لقد عجز عن قهرهم جيش تركى من خمسة عشر ألف مقاتل ، بقيادة صليب باشا !

وأخيرا نشبت ثورة جدية فى بلدة «منيمين» القريبة من أزمير ، على أثر صدام حدث فى سوق البلدة بين شيخ من مدعى النبوة زعم أنه المهدى المنتظر جاء لينقذ تركيا من طغيان مصطفى كمال ، وبين ضابط من الجيش ·· وانتهى الشجار بذبح الضابط « بالمنشار » بين تصفيق الجماهير وتهليلها ، فلما استدعيت قوات البوليس الضئيلة غلبت على أمرها،أما قوات الجيش فقد أبت اطلاق النار على المتظاهرين ·· وعندئذ هبت الثورة التى أعد « الدراويش » العدة لها منذ شهور ، فى منطقة تمتد من قونية الى اضاليا وأزمير ·· فطرد الاهالى فى كل مكان موظفى الحكومة من مكاتبهم ، بين

تهليل النساء وزغاريدهن ·· ثم جاءت الانباء بقرب نشوب ثورة مماثلة فى أرضروم ·· فى الوقت الذى كان الأكراد فيه يقاومون الاتراك بعنف ووحشية ويسومون أسراهم أفظع ألوان التعذيب

وأطل الغازى على الحالة المنذرة بالخطر ،كما أطل من قبل من مقعد الرياسة فى الجمعيةالوطنية علىالنوابالمتشاجرين، فأدرك أن وعى الاتراكالسياسى لم ينضج بعد الى الحد الذى يحتمل معه تجربة اطلاق حرية الرأى والسماح للمعارضة بمزاولة نشاطها ·· فشمر الغازى من جديد عن قبضته الحديدية ، وكشر الذئب الأغبر عن أنيابه مرة أخرى !··

انه حاكم على شعب بدائى متوحش ، فى أرض قاسية بدائية ، فلا مفر من أن يكون فى حكمه قويا ضاريا ··ومن ثم أعلن الاحكام العرفية ، وأعاد الرقابة الصارمة على الصحف ، ومنع حرية الخطابة منعا باتا ·· وسوى خلافاته مع عصمت ، فقد كان فى حاجة الى حزمه وصرامته ·· ثم أخمد الثورات فى كل مكان بمنتهى العنف والقسوة ، وشنق الذين حاولوا اغتياله فى مشهد عام فوق قنطرة « غلطه » عبر « القرن الذهبى » ·· كما شنق زعيم الدراويش ـ وكان فى الثمانين من عمره ـ مع أتباعه البارزين جميعا ·· وأرسل الى « منيمين » قوات بطشت بالثوار وسجنت ألفا من الاهالى وشنقت ثمانية وعشرين رجلا من أبرز زعماء الثوار ، فى وحشية تضارع وحشية المهدى المنتظر !

وهكذا عاد الأمن والسكينة يرفرفان على ربوع البلاد ، وخرست أصوات النقد والشكوى فجأة وعاد أصحابها الى جحورهم ·· وأحست طبقات الشعب جميعا بقبضة الغازى تشتد وتقوى من جديد ، فمنحته ايمانها القديم وثقتها العمياء !

ثم قام الغازى بجولة واسعة فى أنحاء تركيا،اتصل فيها بشتى الطبقات ، ووقف على أسباب تذمرهم وشكواهم ، ودرس مطالبهم ·· فلما عاد الى مقر حكمه دبر العلاج لكل داء ·· وبدأ باقصاء فتحى ، الذى تسبب دون قصد فى كل تلك الاضطرابات ، ثم طهر صفوف حزبالشعب منالمسنين العاجزين وغير الأكفاء،وأمر باجراء انتخابات عامة جديدة، حرص فيها على أن ينتخب فى الجمعية الوطنية تسعون نائبا جديدا من الصناع والعمال والتجار

انه لم يفقد ذرة من ايمانه بالشعب ، وبقدرته على أن يقوده الى مستقبل عظيم · وقد عبر عن رأيه بتصريح أدلى به فى ربيع سنة ١٩٣٢ ، قال فيه : « فليترك الشعب السياسة جانبا فى الوقت الحاضر ، وليضع همه فى الزراعة والتجارة !·· اننى ينبغى أن أحكم هذه البلاد عشرة أعوام أو خمسة عشر عاما أخرى !· وبعدها أستطيع أن أطلق للناس حرية الرأى ! »

خاتمة

وهكذا بقى مصطفىكمال ـ بحيويته الخارقة ـ دكتاتورا لتركيا ·· انه رجل أوجدته الظروف فى الوقت المناسب ليقود بلاده الى المجد ·· ولو أنه ولد فى الزمن الذى كانت فيه آسيا الوسطى كلها قبائل من الرحل لتزعمهم كما فعل (سليمان شاه) وقادهم فى ترحالهم تحت علم « الذئب الأغبر » ، وبقلب الذئب الأغبر وغرائزه !

ولو أنه وجد فى عصر « جنكيزخان » لبزه فى عبقريته الحربية وعزيمته الجبارة التى لا تضعفها عاطفة أو خلق أو وفاء ·· ولقاد مثله قبائل الفرسان المتوحشين فغزا بهم الأقطار واجتاح الأمصار ودمر المدن ·· ثم أنفق فترات الراحة بين الحملات المتعاقبة فى المجون الصارخ ، والخمر والنساء ··!

ولكنه ولد وريثا لامبراطورية ميتة ، شـذبت الظروف أطرافها وقلمتها على يديه حتى جعلت منها بلدا صغيرا فقيرا أقرب الى البـــداوة ٠٠ وورطته هو فى شباك السياســـة الوضيعة ، وفى الاصلاحات الصغيرة !

انه يعيش ــ بعقلية امبراطور ــ فى داره بقرية (شان كايا) ٠٠ أشبه برئيس قبيلة بدائية سلاحه سبورة وقطعة من الطباشير ٠٠!

ان عظمته تكمن فى معرفته للحدود الضيقة لفرصـــــه ، وقبوله لهذه الحقيقة !٠٠ لكنه قبل كل شىء عظيم فى ايمانه العظيم بمستقبل شعبه الزاهر ٠٠ أو على حد قوله : « لقد عرفت جميع الشعوب٠درستها فى ميدان القتال تحت النار وفى وجه الموت ، حيث تنكشف طبائع البشر وتبدو عارية ٠٠ وأقسم لكم ، يا شعبى ، انالقوة الروحية لوطننا تفوق قوى جميع الشعوب !٠٠ انى سوف أقود شـعبى من يده خلال الطريق الطويل ٠٠ حتى تتوطد أقدامه فيــه ويعرف سبيله ٠٠ وعندئذ يكون فى وســـع مواطنى أن يختـــاروا لأنفسهم بأنفسهم،الحاكم الذى يريدونه ، ويحكموا أنفسهم على هواهم ٠٠ وعندئذ تكون مهمتى قد أنتهت ! »

هذا الكتاب

هو تصوير رائع لنهضـة تركيا الجديدة بزعامة مصطفى كمال .. وقد توخى مؤلف هذا الكتاب ان يضعه فى شبه قصة او دراما رهيبة بطلها هذا الزعيم التركى الفذ الذى يصدق عليه وصـف « الذئب الأغبر » ، والذى يعد تاريخ حياته والانقلاب السياسى الذى قام به والأحداث الحربية الخطيرة التى اجتازها من أعجب القصص واشدها غرابة وروعة

ولقد اشاد النقاد العالميون ببطولة مصطفى كمـال الحربية والسياسية ، وزعامته القومية ، ووضعوه فى الصفوف الاولى بين منقذى الامم ، وصانعى النهضات الكبرى ، لانه استطاع ان يحافظ على استقلال شعبه ، وكرامة وطنه ومجد تاريخه !

والكتاب حافل بأمثلة البطولة ، وقصص الشجاعة النادرة ، والمغامرة الشريفـة ، والارادة الحديدية ، والوطنية الصادقة ، والنظرات الثاقبة ، وغيرها من الأمثلة التى رسمها مؤلفه عن بطل الأتراك فى العصر الحديث بأسلوبه القصصى ، وبتحقيقه الدقيق الذى أعانه عليه أنه عاش فى الشرق زمنا طويلا ، واقام فى تركيا عدة اعوام شهد فيها الانقلاب الكمالى ، ووقف على اسرار ووثائق لم يقف عليها غيره من المؤرخين وكتاب التراجم